

ميشال زيفاكو

سارق البنادق



مكتبة الثقافة
بيروت - لبنان
S. Ghantous

الجزء الثالث



Bibliotheca Alexandrina

بارداليات

میشال زیفاکو

روایۃ
بِجَارِ دِلِیَانِ

ترجمۃ : طانیوس عبده

الجزء الثالث

مکتبۃ الثقافیه
ببیروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
« لدار الجيل »
بيروت - لبنان

ص. ب ٨٧٣٧
تلفون : ٢٦٦١٥٨

تلكس : دارجيل ٢٣٤٣٠
Telex : DARJIL 23430

بارداليان

- ١ -

كيف اتفق ان يكون

جميع الناس سعداء

كثرت حوادث هذه الرواية ، وتعدد أفرادها ، وتنازعت منازعهم بحيث لم نجد بدأ بعد تلقاء ذلك من إظهار مجمل لحالة كل منهم كي لا يفوت القارئ شيء من ذلك .

وأول ما نبدأ بأهمهم شأنًا وأطولهم بقاءً ، وأكثرهم امتزاجاً بحوادث هذه الرواية التاريخية ، أي الملكة كاترين فنقول :

إن مطالب هذه الملكة العاتية كانت منحصرة ، في ذلك العهد ، في ما يأتي :

وهي أنها كانت تسعى إلى إبادة الهوكينوث ، وتجري إلى تحقيق هذه

الأمنية ببطء ودهاء .

فهي إذا فتكت بالهوكينوت ، فتكت أيضاً بولدها ديودات ، فنجت من عاره .

ولم يكن السبب في عزمها على إبادة الهوكينوت ، التعصب المحض للكنائس . فقد قيل لها مرة أن الهوكينوت قد انتصروا على الكاثوليك ، فأجابت :

« إذا سئمت القداس باللغة الفرنسية ،

ولكنها كانت تخاف ملكة النافار خوفاً شديداً ، لوثوقها إنها طامعة في عرش فرنسا لولدها ، فاتخذت التعصب الديني حجة لمناصبتها العداء ، والتشكيك بها .

ولم تكن تطمع في البدء إلا أن تظفر بملكة النافار .

حق إذا ظفرت بها وقتلتها ، كما تقدم ، ورأت ان جميع الهوكينوت أصبحوا في باريس ، وأنهم تحت مطلق سلطانها ، رأت ان تفتن هذه الفرصة وتضربهم الضربة القاضية .

ذلك لأنها كانت تخشى أن يعين الهوكينوت ملك النافار على تحقيق رغائب أمه .

ثم انها كانت تخشى أسرة دي كيز ، لوثوقها أنهم يتآمرون على خلع ولدها ، وتنصيب الدوق دي كيز مكانه ، كي يحصرها الملك في أسرة لورين .

وكانت تخاف ديودات لأن اقتضاح سر مولده يفضحها في أوروبا وفي فرنسا ويجعلها مضفة الأفواه في البلاط .

وهي كانت تسمى ان يفتك أهل دي كيز بالهوكينوت ، وأن يفتك الهوكينوت بأهل دي كيز ، وأن تقتل ماريلياك ، وأن توطن علائقها مع رومة .

وكانت أمانيا من هذا النصر راجعة إلى غاية واحدة ، وهي تولية
الدوق دالنجو ولدا على عرش فرنسا بعد موت أخيه ، وأن تحكم البلاد
باسم ولدا .

وقد أوشك أن يستتب لها النصر في جميع هذه المهام ، لأنها كانت
قابضة على زمام ماريلياك ، بواسطة اليس دي ليكس ، والراهب
بانيكارولا .

وكانت سائدة على ولدا شارل التاسع ، لأنها أدخلت الرعب إلى
قلبه ، وأقنعت أن الهوكينوت بأغزون على موته ، فبات آلة بيدها تديره
كما تشاء .

وكانت قد تفاضت عن دي كيز بحيث حملته على الاندفاع في دس المكائد
للهوكينوت ، بحيث بات يتولى عنها الفتك بهم وهي آمنة صابرة تنتظر دنو
تلك الساعة الهائلة .

هذا ما كانت عليه الملكة ، فأنها فتكت بعدوتها ، وأخذت أمانيا تتحقق
فكانت تمع نفسها من السعداء .



وكان ولدا ديودات سعيداً أيضاً ، فقد كان يحسب هذا التمس أنه أثر على
قلب أمه وإن الحنو قد حملها إلى إسعاده .

وفوق ذلك فقد حظي بكل ما كان يطمع به ، فقد زالت تلك الريبة التي
كانت تقطع قلبه وأصبح واثقاً كل الثقة من طهارة اليس .
ثم أنه سيتزوجها ، وقد تعين يوم الزواج وستحضر أمه الملكة تلك الحفلة .
وهذه هي السعادة كلها في نظره .

ولم يكن يشغله غير شاغل واحد ، وهو أين يقضي شهر العسل ، فلا يعلم

أيقضيه في باريس ؟ أم يطوف بأمراته سائحاً متجولاً في أرجل البلاد .
وكان يذكر من حين إلى حين ملكة النافار فتقع ذكراها موقع الفحمة السوداء
في سماء مناته الصافية .

ولكنه كان يتعزى عن فقدهما ، بأن الملكة كاترين كادت تجاهر
له بأنها أمه ، وإن خطيبته لا عيب فيها ، وهو قد وجد أمًا وزوجة ،
وهو بهما سعيد .



وكان الملك شارل التاسع ينتظر بلء الجزع تلك الحادثة الكبرى التي وعدته
بها أمه ، وهو لا يعلم حقيقة هذه الحادثة بالتفصيل .

ولكنه كان راثقاً أنها توطد أركان عرشه ، وأنه يخلص بعدها من
الدسائس والفتن والحروب ، فيتفرغ للصيد في الغابات ، وهو آمن من
القتل غيلة .

ومتى تفرغ للملاهي وارتاح سره شفي من نوباته العصبية .

هذا الذي كان يرجوه الملك شارل ، وهو لا يتيسر الحصول عليه
إلا بعد حدوث تلك الحادثة الخطيرة التي وعدته أمه بها ، فبات
يرجو ويبتظر .

وكان في خلال ذلك باش الوجه ، طلق الهيا ، يبسم للكاثوليك ويلطف
الموكنينوت ، ويصفي الى أمه بارتياح . بل كان يبش للدوق دالنجسو وهو
يكرهه ، وإلى هنري دي نافار وكان يخافه ، وإلى كوليني وقد أخبرت أمه
أنه يريد قتله .

وعلى الجملة لقد كانت السعادة ماثلة بين عينيّه ، حتى حير أهل البلاط ،
وهم لم يتعودوا منه غير التقطيب ومظاهر الاستياء ، وجعلوا يبحثون عن

السبب في ارتياح الملك فلا يحدونه .
ولكنهم لو نقبوا ودققوا في البحث ، لعلوا أن ماري توشيت ، خلية
هذا الملك ، قد ولدت مولوداً (وقد لقب هذا المولود بعد ذلك باسم الدوق
دي أجوليم) .

فكان السبب في سعادته ان أمه وعدته بالراحة وهو وعد نفسه بالتفرغ
للعناية بهذا المولود .



وأما الراهب بانيكارولا فقد كانت سعادته منحصرة في قتل ماريلياك ووعد
الملكة بارجاع اليس اليه .

وأما الدوق دي كيز فقد كان وضع لنفسه خطة بسيطة هائلة ،
وهي بما أن الملك أبى إلا مسألة الهوكينوت أعداء الدين ، أن يجعل الشعب
ناقماً عليه .

ولا بد للشعب ان يشور على الهوكينوت ويحري القتال في الشوارع ، وعند
ذلك يجعل نفسه قائداً عاماً للشعب الكاثوليكي الثائر .

ثم يتهم الملك بتشييع الهوكينوت كي يثير الشعب عليه أيضاً
وبعد ان تبدأ المذبحة وتحترق باريس وتسيل الدماء في الشوارع ، يزحف
بذلك الجيش الهائج إلى اللوفر فيخلع الملك .

ولا بد له من الفوز فان المارشال تافان معضد له ، والدوق دامفيل يساعده
بسبعة آلاف فارس ، وحاكم الباستيل من أعوانه فهو يعد الملك سجيناً لا يستطيع
الخروج منه حتى إذا أراد الملك ان يدافع عن نفسه بجحراسه وجد حراسه أنفسهم
عليه ان رئيسهم من أعوان الدوق .

وعندها ، أي بعد ان يظفر بالملك يأمر بإيقاف المذبحة ، فينال بذلك ثناء

الكاثوليكين إذ هو الذي دفعهم الى المذبحة ، وينال رضى المؤمنين إذ هو الذي أنقذهم منها .

ولما كانت فرنسا لا يمكن أن تبقى من غير ملك وكان الكاردينال لورين قد أثبت أن الدوق دي كيز من سلالة شارلمان فيحق للدوق ان يعين ملكاً بدلاً من شارل التاسع .

ولذا كان سعيداً كسواء من رجال هذه الرواية وقد أعد كل شيء فهو لا ينتظر غير الفرصة المناسبة للبدء بالعمل .

وأما الدوق دامفيل فانه استدعى من ولايته سبعة آلاف فارس ليضعهم في خدمة دي كيز .

والغريب في أمر هذا المحتال ، أن هذا الجيش قد زحف بأمر الملك نفسه .

وقد كان له مأرب ، زينته له الطمع والغرور .

إذ كان يظن أنه إذا قتل دي كيز ، يحل محله في أطباعه ويضع على رأسه تاج الملك .

وإذا كان الفوز لدي كيز فقد كان طمعه قاصراً على أن يكون له شبه مملكة في ما وراء اللوار .

على أن أخص ما كان يطمع به هذا الداهية ، هو سحق أخيه . فقد كان قرر مهاجمة قصر فرنسوا ، وقتله بيده ، وأخذ حنة إلى مملكته الجديدة .

فهو كان سعيداً أيضاً ، يترقب الفرص . ولو كان علم يجنون حنة لكان غير خطته ، ولكن جيالوت لم يستطع إخباره لانه هو نفسه لم يكن عارفاً يجنونها .

* * *

ولندخل الآن بذهن القارىء إلى قصر فرنسوا دي مونجورانسى نجد فيه
خسة أشخاص يرغب القراء معرفة أحوالهم .
ولنبداً منهم بالشغالييه بارداليان وبلويزا .
فانها بعد أن باح كل منها بقوامه للآخر انقطع بينهما الحديث إلا في
القليل النادر .
وأية فائدة من الحديث ، فإن كل كلمة كان يناجي نفسه بها
بارداليان كانت تعلمها لويزا ، وكل خفوق يبدو من قلب لويزا كان يشعر
به بارداليان .
فتكافأ إذا تكلمتا بأبسط الأمور يتمثل الحب في كلماتها ، ولم يخطر لأحدهما
أن يفكر بتلك الأخطار الهائلة المحدقة بهما .
فقد شغلها الحب عن كل خطر . وأي خطر يخطر في بال لويزا وهي
ترى حبيبها بقربها .
وأما بارداليان فإنه بعد أن وثق من حب لويزا لم يعد يكتوث لخطر
في الوجود .
على أنه مع وثوقه من حبها لم يكن واثقاً من الزواج بها فقد قال أبوها
أنه يريد تزويجها بالكونت مارجنسي .
وهو لا يعرف هذا الكونت ، ولكنه كان يرجو أن يلتصق بالسيف
بيده ، فينازعه لويزا . بل أنه كان مصمماً على أخذها من أبيها قهراً ،
إذا اضطر .
وفي كل حال فإنه كان يعد نفسه سعيداً بحبها وقربها ولكن ذلك لم يكن
يمنعه عن التفكير بأمرين .
أحدهما إنقاذ لويزا نهائياً أي الخروج بها من باريس .
والثاني أن يعرف من هو هذا الكونت ، الذي يريد المارشال أن
يزوجه ابنته .

وأما بارداليان الأكبر فإنه كان يعد خطة سوف نراها في الفصول
الآتية .

وأما حنة فكانت لا تزال مجنونة ، لكنها كانت أسعد جميع من ذكرنا ،
لأن جنونها عاد بها إلى أيام صباها فكانت تحسب انها في مرجسي تناجي
فرنسوا بأرق الفاظ الغرام وقد تحسنت صحتها محسناً بيناً وظهرت عليها علامات
الارتياح والهناء .

وأما فرنسوا دي مونمورانسي فقد اعتزله زعماء الهوكينوت لأنه أبى ان
يساعدهم ، واجتنبه زعماء الكاثوليك بل كرهوه لأنهم كانوا يعتقدون انه من
أنصار الهوكينوت .

أما هو فقد كان يرى كل ذلك ولا يكثر شيء منه فقد أنف ما رآه من
الدسائس والفتن حول ذلك العرش ولم يعد يطمع إلا بالمعزلة في حصنه والراحة
من عناء شقائه الماضي بقرب امرأته وابنته ، فكان يترقب الفرص للخروج آمناً
من باريس وهو سعيد أيضاً بهذا الانتظار .

هذه هي حالة جميع أشخاص روايتنا في خلال ذلك السكون الذي كان
يتقدم العاصفة الهائلة .

- ٢ -

مقابلة دامفيل وبارداليان

في ليلة من ليالي أغسطس الحارة ، كان بارداليان الأكبر في غرفته في قصر مونغورانسى ، يتم لبس ملابس الحربية وهو يغني نشيداً من أناشيد الصيد .

حتى إذا أتم لباسه قال : إني سأختنق بهذه الدروع التي تضغط علي ، ولكني أرجو أن أتزعها قريباً .
وعند ذلك نظر إلى الساعة فرأى أنها بلغت التاسعة فقال في نفسه : لم يحن الوقت بعد .

وجلس على كرسي وجعل يناجي نفسه فيقول :

ترى أخبر ولدي بما عزمته عليه ؟ كلا فإني إذا أخبرته يصير على الذهاب معي دون شك ولا سبيل إلى إرجاعه عن عزمه .
إذا لا بد لي من الذهاب وحدي لقضاء هذه المهمة ، وماذا عسى بعد ذلك أن يحدث ؟

إنه سيحدث أمر من أمرين وهما إما أن أجد الدوق دامفيل وحده ، كما أخبرني جيلوت ، وفي هذه الحال لا حاجة بي إلى مساعد .
ولما أن أقع في كمين ، وفي هذه الحال ، لا أحب أن يموت ولدي معي .

ولكنني إذا قتلت .. إني أحب أن أرى ولدي قبل الموت . . بل أية فائدة من ذلك ؟

وبقي في مجلسه يفكر إلى ان بلغت الساعة العاشرة ، فنزل من غرفته إلى غرفة البواب وأخبره انه خارج من القصر وانه قد يتأخر بالرجوع بل انه قد لا يعود غدا أو بعده فإذا اتفق ذلك يكون قد سافر .

ثم تركه وانصرف إلى قصر مسم فبلغه في الساعة الحادية عشرة . وكان القصر مظلماً مقفل الأبواب والنوافذ .

فبعد ان راد بالبيان حوله باحثاً مراقباً دون أن يجد أحداً تسلك سبيل الحقيقة ووثب منه اليها .

ثم بلغ منها إلى الباب المؤدي إلى داخل القصر فأخذ خنجره وما زال يمالج قفله حتى فتحه ودخل .

وكان يعرف أين يقيم الدوق دامقيل ، فسار في أروقة القصر والظلام يحيم عليها وهو يعتقد ان جميع من فيه نيام .

حتى إذا وصل إلى الباب المؤدي إلى غرف الدوق ، ومد يده ليفتحه فتح ذلك الباب فجأة ، بيد سواه ، وظهر منه هنري دي مونغورانسي ، ويده مصباح .

لقد قابله هنري مبتسماً ، كأنه ينتظر قدومه ، وقال له وهو يتكلم الانذهال :

— أهذا أنت يا بارداليان ؟ . كيف ذلك ؟ . الملك أتيتم تبحث عني ؟ . تفضل وادخل معي ، فلاني ، أنا أيضاً ، أحب أن أراك وأباحثك .

أما بارداليان فقد ذعر ذعراً شديداً ، على فرط بسالته ، التي بلغ بها حد الجنون .

ولكن الرجل مهما بلغت بسالته فلا يسهه إلا أن يندعر حين يباغته عدوه

اللدود وهو يتوهم انه هو القادم، لهذه المباغثة .
غير انه بذل جهداً عنيفاً ، فأعاد إلى نفسه مظاهر السكينة ، وأجاب
الدوق قائلاً :

— أقبل يا سيدي دعوتك ، لاني قادم لمباحثتك في شؤون خطيرة
— ولكني لو كنت عالماً بقدمك إلي لوفرت عليك مشقة اغتصاب الأبواب
وتسلق الجدران وفتحت لك الباب بيدي .
— أشكرك يا سيدي وأؤكد لك إني لم أتحمل شيئاً من المشقات .
— ربما كان ذلك بسبب العادة .

— إذا كنت قد تعودت اغتصاب الأقفال ، فقد تعودت اغتصاب
القلوب أيضاً .
— ولكن هلم بنا، ندخل يا مسيو بارداليان فإني أحب ان أفيك كل حقوق
الضيافة والإكرام.

فدخل بارداليان دون أن يتردد ، ودخل الدوق في أثره ،
فأقفل الباب .
ثم ذهب الاثنان إلى قاعة متسعة لها ثلاثة أبواب محفلة ، فجلس الاثنان كل
منهما بازاء الآخر .

وبدأ بارداليان الحديث فقال :
— إذا أنت تلتظر قدومي يا سيدي كما يظهر .
— هو ذاك ولكني كنت أنظرك دون ان أنتظرك ، وبيان هذا الابهام
أن مركزي بازاء مركرك ، كان يحملني دائماً على اللظن بأنك لا بد ان تأتي
إلي لتراني .

فخطر عند ذلك لبارداليان ان جيلوت قد خدعه، فقال :
— لا تقل ذاك يا مولاي بل قل أنهم أخبروك بقدومي .
— هذه هي الحقيقة .

— ألا يمكن يا سيدي أن تذكر اسم الرجل الذي أخبرك ما زلت قد تفضلت بمحادثتي بهذا الجلاء .

— دون شك ، لا سيما واني لا أجد مانعاً يحول دون إخبارك . أما الذي أخبرني فهو ضابط من ضباطي ، تعرفه حق العرفان ، لأنه يدعى أورقيس .

— الفيككونت اسبرمونت .

— هو بعينه لقد جمعت بينكما الصداقة كما أظن بدليل انه يبحث عنك كما يبحث عنه وأظن أنه يريد ان يحادثك بشأن خطير .

— وأنا مستعد للاصغاء اليه إذ لا بد لنا من الالتقاء وقول الكلمة الأخيرة ولكن تفضل يا سيدي باتمام حديثك فقد قلت ...

— قلت ان أورقيس كان يبحث عنك ليضمك بين ذراعيه ولذا كان يروء كل ليلة حول قصر مونغورانسي .

فقال بارداليان في نفسه : إذا ليست الخيانة من جيوت .

وتابع هنري الحديث فقال :

— وقد اقتفى أثرك في هذه الليلة فراك تتسلق سور قصري فتركك وشأنك ودخل من الباب الكبير فأخبرني انك شرفقتي بزيارتك . وكنت عازماً على الرقاد لكنني امتنعت عنه إكراماً لك .

— ما زلت قد تطلعت يا سيدي ، إلى هذا الحد ، أتأذن لي ان أسألك سؤالاً واحداً .

— بل عشرة . بل سل قدر ما تشاء ، فلك الحق بما تريد من الأسئلة .

فاصفر وجه بارداليان ، ولم يشك بقرب الموت ، ولكنه تجلد وقال :

— أسأل مولاي إذا كان وحده يسمعي ، وإذا كنت أستطيع ان أكله دون ان يسمعي أحد .

— إنك تستطيع ان تقول ما تشاء ، وإما ان أكون وحدي باستقبالك
فإني أحسب ذلك إهانة لك لا أجسر عليها ، إذ يجب ان أستقبل مثلك بجميع
ضباطي فأنظر .

ثم قام إلى الباب الأول ففتحه فرأى بارداليان اثني عشر جندياً مسلحين
بالفؤوس .

ثم ذهب إلى الباب الثاني ففتحه فرأى بارداليان خمسة عشر ضابطاً من
الأشراف بأيديهم السيوف مجردة .
فبادرهم بارداليان بالتحية ولبثوا ساكتين دون ان يردوا التحية .

فأقفل هنري الباب وفتح الباب الثالث فرأى بارداليان ستة جنود مسلحين
بالبنادق ، ورأى أورتييس وراءهم وقد صوبوا البنادق كأنهم لا ينتظرون غير
الأمر بإطلاقها .

فدعر بارداليان وقال في نفسه : لم يبق مطمح بالنجاة .
لكنه ابتسم لحاظراً فجائي خطر له فدعر هنري لابتسامه إذ كان يرجو ان
يراه مضطرباً مصفراً .

ثم جلس وأجلس بارداليان بإزائه وقال له وهو مقطب حاجبيه :
— انتهت الآن فأنت قادم لاغتيايي اليس كذلك .

— كلا يا سيدي ، بل أني قادم لقتلك كما يقتل الشريف الشريف
بالمبارزة ، وكنت أرجو ان أجذك وحسبك ، حق إني ظننت أيضاً إني
أجذك نائماً ، فعولت على ان أوقظك ، وأدعوك إلى لبس ملابسك ثم أقول
لك ما يأتي .:

« مولاي أنت تسيء إلى جماعة من كرام الناس لا يطعمون إلا بأن يعيشوا
عيشة راضية .

« ولكنك لا تريد لهم غير الشر وهم لم يسيئوا اليك ، وان شرك قد استفحل
في هذه الأرض فوجب إنقاذ عباد الله منك .

« ثم أقول خذ حسامك ودافع عن نفسك لأنني عولت على ان لا أخرج من هنا إلا بروحك » .
 هذا الذي عزمته على ان أقوله يا سيدي ، لو وجدتك وحدك ، كما كنت أتوقع .

ويسرني بعد ان فتحت الأبواب الثلاثة ان أجد كثيراً من الشهود يشهدون ان هنري دي مونمورانسي دوق دامفيل لم يقتل غيلة بل قتل قتلاً مألوفاً بفضل الله وبفضل حسامي .
 وقد كان هنري حيواناً ضارياً مفترساً ، ولكنه كان شجاعاً يعرف بسالة الشجعان . .

فلما رأى ابتسام بارداليان وسمع أقواله ، وهو يعلم أنه على قيد خطوة من الموت لم يسمعه إلا الإعجاب بهذا البطل الجريء الذي تجاسر على مخاطبته بهذه اللهجة وهو يرى السيوف والبنادق وكل آلات الموت محدقة به من كل جانب وقال له :
 - ولكنني أرى يا بارداليان ، انك لم تتوقع ان تكون أنت المقتول في هذه المباراة .

- ذلك محال يا سيدي فلا أقول ان الخير يفوز على الشر فهذا وجودي في حينك أصدق دليل على ان الشر قد يفوز .
 ولكنني أقول ان القتال لا يفوز فيه غير الجسور ، وانا واثق إنني أجراً منك .
 - ليكن ما تقول ، ولكنك لم تتوقع أيضاً إنني أرفض أن أشرفك بمبارزتي .

- لقد بحثنا مرة في هذا الشأن في فندق بونديكه ، واقتنعت يومئذ ان حسامي معادل لحسامك .
 فوقف هنري ومشى في القاعة بضع خطوات مطرقاً مفكراً وهو يراقب

خلسة يد بارداليان .

ثم انكأ على المسترقد وقال :

-- إني طالما احترمتك يا بارداليان لبسالك وجراؤك كما احترمتك الآن أيضاً بدليل اعتدالي وطول انائي .

فإني لو اشرت إشارة واحدة لسقطت مخضباً بالدم لأن جميع من رأيتم لا ينتظرون غير هذه الإشارة

بل إني أستطيع ان أفعل ما هو اشر من ذاك أي اني أأمرهم ان يقبضوا عليك حياً ويلقوك في الباستيل .

وأنت تعلم ان حاكم هذا السجن الرهيب من أصحابي فاذا أوصيته بك رأف بجالتك وقتلك قتلاً بطيئاً يطيل نزعك عدة أيام .

واني اذا اشرت هذه الاشارة فقتلوك او أمرت فقيدوك أكون قد فعلت ما يفعله كل إنسان سواي فأنت عدوي .

نعم انت عدوي ، لقد خنتني في مرجلسي ، ثم التقيت بك بعد أن كرت الأعوام ، فصفحت عن خيانتك ، وعقدنا اتفاقاً يعود عليك بالخير والفائدة .

ثم أقمتك في منزلي وجعلتك في عداد أصحابي فعبوزيت منك جزاء سخار وخنتني تلك الخيانة التي تعلمها .

وقد اردت الانتقام منك ، وظفرت بك ، فنبجوت مني ، وانجذت الى اعدائي ، وانضمت الى اخي ، وانت لا تعرفه . . في حين اني غمرتك بإحساني ، وانت تخدمني منذ خلقت ، ثم أتيت الآن لتقتلني ...
فماذا تجيب ؟

-- أجيب إني لم اخذك ، لاني اتفقت معك على ان اكون معيناً لك في عمل عظيم ، ولكنني لم اعاهدك على المعاونة في امر سافل .
إني ادخل الى اللوفر وأقبض على الملك بيدي ، بل اقبض على تاجه إذا

أمرتني ، وأضعه فوق رأسك ، بل أقاوم فرق الملك بأسرها إذا وليتني قيادة جيشك ، ولكني لا أقدر أن أكون جلاد امرأة .

إنك ان تطلب إلي ما أستطيع أن أعطيه ، وهو سيفي ودمي وإقدامي سفكت دمي .. في سبيل خدمتك .

وأما أن تطلب إلي أن أكون جاسوساً على ولدي ، وسجاناً للمرأة التي يحبها فهذا ما لا يطيقه بشر يا مولاي ..

ثم أنت تعلم اني لم أخنك .. ولو أردت ان أخونك ويكون لي ثروة طائلة .. وأستولي على أراضيك وثروتك .. وأزج بك إلى هاوية الأبد .. لذهبت إلى الملك وقلت له : « إنك تريد قتله ، لتولية الدوق دي كيز » .

ولكن سكوتي عن إفشاء هذا السر يدلك يا سيدي ، اني لست من الخائنين ، واني من أهل الوفاء وهم قلائل يا حضرة المارشال .

فاصفر وجه هنري واضطربت أعضاؤه وقال له :
 ... ألم تقل كلمة لأحد مما تعلمه ؟ اصغ إلي .. إنك قد لا تكون نقلت ما تعلمه من قبيل الوشاية ، ولكنك قد تكون بحت به لمن تثق به .
 فقال بارداليان في نفسه : لقد وضع السبب في اعتداله ، فانه يريد أن يعلم قبل الفتك بي إذا كنت قد بحت بهذا السر ..

ثم قال له : لمن تظن اني بحت بهذا السر يا مولاي ..
 - لا أدري ، فإنك قد تكون بحت به لرجل ليس له مكارم أخلاقك كأخي فرنسوا مثلاً ..

فأجابه بارداليان قائلاً :
 - وهب اني بحت به لأخيك يا سيدي ، ألا يحق لي أن أعاملك كعدو كما تعاملني ؟

ألا يحق لي أن اقلد أخاك هذا السلاح ؟

نعم يحق لي فيما أرى ، فلقد سجنتم إبنة المارشال فرنسوا ، عدا عما أصيبت به أمها من الشقاء الهائل .. ثم لما نجت تلك الأم منك وعادت بابنتها إلى أبيها ، أقفلت أبواب باريس دون المارشال ، وجعلته مع أسرته أسيراً ، بل كنا نحن أيضاً اسرى معه ، وأخذت تتأهب لضربنا جميعاً بالضربة القاضية .

وأنا أعترف لك يا سيدي ، اني لم أجسر على الوشاية بك الملك ، ولكني افكرت انه يجب على الأقل أن أبوح بهذا السر ، لأخيك المارشال كي يستطيع الدفاع عن نفسه .

فصاح به هنري صيحة يأس قائلاً : ويحك أيها الشقي ، أخبرت أخي بهذا السر الهائل ؟

فهز بارداليان كتفيه وقال :
- اني أردت ان أخبره ، ولكني لم أفعل شيئاً ، ولا تشكرني على هذا ، فقد كنت مصمماً على الاباحة له ، ولكن ولدي منعني عن الافشاء .. فالفضل له إذا كان هناك فضل ، ولكني أراه أضاعني بهذه المباديء وسيضيع نفسه .

أتعلم ما قاله لي يا سيدي الدوق ؟

.. اني أوثر ان اقتل نفسي أمام عينيك ، ولا أراك تبوح بسر أو ثمنت عليه فتلطنخ اسمك بوصمة عار لا تزول .
فليحرق دامفيل باريس في سبيل القبض علينا ، إذا استطاع ، وإذا كان لا بد لنا من الموت فلنموت على الأقل دون ان ندع لمثل هذا الخائن ، مجالاً لاثامنا بالخيانة .

هذا ما قاله لي ولدي ، وهذا الذي حملني على السكوت .
فقال له هنري بصوت أجش : إذا أخي لا يعلم شيئاً .
- كلا ، ولا سواه .

فتمنهد هنري لنهد ارتياح ، فقد كان رعبه شديداً ، حتى انه لم ينتقبه
الكلمة الشائنة التي وصفه بها بارداليان ، ولم يكن لديه ريب بصدق محذره .
وعندها ، عادت اليه السكينة ، وعاد معها الغضب على بارداليان ،
ونظر اليه نظرة منكرة .. ثم مشى إلى باب الغرفة التي كان فيها أورتييس
مع حملة البنادق .

ولكنه توقف فجأة وعاد إلى بارداليان فقال له :

— ماذا تقول اذا عرضت عليك السلم .

فوقف بارداليان والمحنى ثم سأله : ما هي شروطك يا سيدي .

— شرطي بسيط ، وهو أن لا تحول ، أنت وابنتك دون ما أريد قضاءه ،
وأن تخرجنا من قصر مونمورانسي وتبرحنا باريس الى حيث شئنا ، فانكنا نجدان
جوادين مسرجين ، وفي سرج كل منهما الفارياك ، فانكنا بمثل هذه القيمة
تعيشان أين كننا .

فأطرق بارداليان برأسه كأنه يفكر .

فقال له الدورق : تمن بالأمري يا بارداليان فانك جردتني من سلاحي بوفائك
وكتان السر بحيث وجبت علي مكافأتك .

فاعلم الآن اني انسى كل أقوالك وافعالك واكافئك وولدك خير مكافأة
واحترم مبادئك ، حتى اني لا أقترح عليك الدخول في خدمتي ، فلا أسألكا
أن تكونا من أعدائي ، ولا أريد ان تكونا من أعدائي ، بل كل ما أبغيه
منكما أن تلتزما الحياد .

فتمنهد بارداليان .

وعاد هنري الى الحديث فقال :

— تمن يا بارداليان ، فسانك اسيري الآن ، ومهما بلغت من الجراءة ،
والقوة لا تستطيع مقاومة ثلاثين رجلا مسلحين بجميع آلات الموت ،
فاقبل ما اقترحتك عليك ، أطلق سراحك ، ويكون هذا الأمر خيراً

لك ولولدك .

- وان رضيت يا سيدي ، فكيف يكون اطلاق سراحني ، واي احتياط تتخذ فانك لا تكثفي بكلامي فيما أظن .

فبرقت عينا هنري واجاب :

- اني لا اتخذ غير احتياط واحد لا بد من اتخاذه ، وهو أن تكتب لولدك كي يحضر الى هنا لموافاتك ، فيذهب أحد رجالي بكتابك اليه وعندما يحضر ، وتعدني وإياه وعداً شريفاً على أن لا تعودا إلى باريس ، قبل ثلاثة اشهر ، أتولى حراستكما بنفسي مع بعض أصحائي إلى باب باريس وانتمى لكما سفرأ سعيداً .

- انه تشريف اذكره بالامتنان ما حميت

- إذا تقبل ، اليس كذلك ؟

- بلا ريب ، بل أقبل بملء الشكر والامتنان .

فأخرج الدوق ادوات الكتابة من درج ووضعها على مائدة فقال له :
إذا قم واكتب الكتاب إلى ولدك .

فلبت بارداليان في موضعه ولم يتحرك ، ثم تنهد وقال :

- اني أقبل .. ولكنني لسوء الحظ لا استطيع ان اضمن قبول ولدي .

- لا بأس فاكتب وانا أتولى إقناعه .

- إنني أعرف ولدي يا سيدي حق العرفان ، فان سوء الظن قد بلغ منه أشد مبلغ ، حتى انه لا يثق بوعود الملوك والأمراء ...

ويسوء الظن بي ، بل يسوء ظنه بنفسه ، وطالما خرجت من نفسي أمامه ، حين كان يسوء ظنه بأمثالك يا سيدي ، في حين انه كان يرى مني احتراماً لا يوصف وثقة لا حد لها .

- ماذا تعني بهذا .

— أعني انه إذا أطلع ولدي على هذه الرسالة التي تريد أن أرسلها اليه
يضحك ويقول :

« ايبكون ابي أسيراً في قبضة الدوق دامفيل ويريد ان اذهب اليه بحجة
انه عقد معه شروط السلم .
« لا شك يا ابي إنك من المجانين . الا تعلم ان الدوق دامفيل خائن محتمل
يريد ان يقبض علينا معاً .
(هذا ما يقوله ولدي وما هو بقولي) .
« ولكن ما هذه الحيلة التي لا تجوز على البلهاء »

« اني احب الحياة فلا ازال في عنقوان الشباب ، وأما أنت يا ابي فقد
شبتت من الحياة ، فمت وحدك ما زلت قد اخطأت ورميت نفسك في جب
الأسد » .

هذا ما يقوله ولدي يا سيدي ، حين يقرأ رسالتي واني واثق من هذا حتى
اوشك أن اسمع صوت ضحكته .

فعض الدوق شفته وقال إذا لا تريد ان تكتب الرسالة
... لا اكتبها إذا لا فائدة منها وفوق ذلك فلنفرض المستحيل ، وهو ان
ولدي يحضر إلى هنا بعد قراءة رسالتي اقدري ماذا يكون .

... ماذا ؟

— إن ولدي على سوء ظنه شديد العناد فهو اشد عناداً منك ، وقد اصر
على إنقاذ حنة دي بيانس وابنتها واخيسك من قبضتك فلا شيء في الوجود
ينزع من فكره هذا العزم ، اما أنا فلاني اقبل اقتراحك بالشكر والسرور ،
واما هو اتعلم ماذا يقول إذا حضر .

... ماذا يقول ؟

.. يقول .. أنت يا حضرة الدوق الذي اقترحت علي هذا الاقتراح ،
ألا تحجل ان تعرض علي ان ادنس شرفي بأربعة آلاف ريال وجوادين

مسرحين .

أبيع شرقي وسيفي الذين اخذتهما من ابي بالمال ، وأتخلى عن امرأتين منكودتين اقسمت ان احميمهما واسفك دمي في سبيلهما ، ثم أحشر نفسي في زمرة الخائنين .

« وانت يا ابي اترضى لي ان اكون سافلاً خائناً ابيع نفسي بالمال ؟ .
كلا فلتقع تبعة هذا الاقتراح الشائن على الدوق دامفيل ، فهو قد تعود الخيانة والغدر ، .

وقد قال بارداليان هذا القول . ومد يده حتى كاد يمس يدها
وجه هنري

فاحمر وجه هنري وقال : ويح لك ايها الشقي .

.. كلمة بعد يا سيدي .. كلمة واحدة ، وهي ان لولدي غير الميوب التي
ذكرتها عيماً آخر ، وهو انه يحبني فوق ما يحب نفسه وهو عالم اني عندك
الآن ، فاذا لم يراني في الصباح قد عدت إلى القصر ذهب إلى الملك وأخبره
انك تخونه لتولية دي كيز .

نعم ، إن اليأس من لقائي يحمله على الرشاية بك ولا يحسبها وشاية في تلك
الساعة ، بل انتقاماً لأبيه .

وقد كان هنري هم أن يصفع بارداليان ، ولكنه توقف حين سمع قوله ،
كأنما الصاعقة قد صمقته .

أما بارداليان فانه ابتسم وقال له قل لرجالك ان يقتلوني ، إذا
شئت الآن .

غير ان هنري على شدة حذره وخوفه من هذه الرشاية بلغ الغضب والحقد
منه مبلغاً جعله لا يكثر للأخطار فقال :

- ليفعل ابنك ما يشاء .. الي . الي . جميعكم .

فجرد بارداليان خنجره ، ووثب في الحال وثبة النمر إلى هنري

وهو يقول :

- ولكنك ستموت قبلي ايها الزميم ..

غير ان هنري رأى بارداليان ينقض عليه بمخنجره فلقى نفسه على الأرض قبل أن يصل اليه بلحظة ..

وسقط بارداليان أيضاً لاندفاعه وخلو الدوق من طمئنته فسقط جثثاً على ركبتيه .

وعند ذلك فتحت الأبواب الثلاثة وأطبق الجنود على بارداليان قبل ان يتمكن من طمئن هنري فقيده بالأصفاد .

وبعد أن فرغوا من تقييده قال اورتيس للدوق : أين تريد يا مولاي أن نشنق هذا اللص .

فأجابه هنري بصوت لا يزال يتهدج من الغضب .

.. كلا ، لا يجب أن نشنقه الآن ، فإن هذا اللص يعرف أسراراً كثيرة يجب أن ننزعها منه لفائدة جلالة الملك . نعم ، وأنا سأختار الذي سيتولى تعذيبه وتقريره واحضر ذلك بنفسى .

- إلى أين إذاً يأمر مولاي أن نذهب به .

-- إلى سجن التامبل .

- ٣ -

دير العجائب

حدثت في سنة ١٢٩٠ أعجوبة لا بد لنا من ذكرها لعلاقتها بمحوادث هذه الرواية .

وهي انه في ذلك العهد كان رجل يهودي يدعى جوناتاس مقيماً بالقرب من كنيسة نوتردام .

وكان له منزل جميل تحيط به حدائق غناء .

وقد قدر له نكد طالعه أن يقيم بجوار دير للرهبان ملاصق لحدائقه .

فما رواه أولئك الرهبان ان هذا اليهودي كان يقسم دائماً أن يفضح الديانة المسيحية فضيحة هائلة .

فأرسل في عيد الفصح امرأة من أتباعه إلى الكنيسة ، فأخذت المرأة قربان الفصح

ولكنها بدلاً من أن تأكله عادت به إلى جوناتاس

وكان اليهودي شديد التعصب كما يروي الرهبان . فأخذ قطعة القربان وجعل يثقبها بخنجره ، فأخذ الدم يسيل من كل ثقب من ثقوب تلك القطعة .

فلما رأت المرأة هذه الأعجوبة ذعرت ذعراً شديداً ، وعاد الايمان إلى قلبها ، فأسرعت إلى الدير وانطرحت على اقدام الرهبان وأخبرتهم تادبة

بكل ما اتفق لها .

وأما اليهودي فان منظر الدم أثاره كما يقول الرهبان ، فأخذ مطرقة ومسماراً وطرق المسمار بالقربان كما فعلوا بالمسيح ، فساد الدم يتدفق من قطعة القربان .

فزاد هياج اليهودي والقى القطعة في النار ، ولكنها جعلت تطير فوق النار فلا تحترق .

فيئس جوناثان من إخضاعها ، وأخذ حلة فوضع فيها ماء وغلاه فوق النار ، ثم القى قطعة القربان في الماء ، فبقيت كما هي ، غير ان الماء تحول إلى دم .

وكان نتيجة كل ذلك انهم قبضوا على اليهودي المنكود فلم يعترف بجريته وأصر على الانكار ، فغضب اولئك الرهبان ، وفي أيديهم زمام السلطة في ذلك العهد ، فوضعوا جوناثان في مرجل وسلقوه في مياهه الغالية .

ثم اغتتموا فرصة قتله فأخذوا منزله وحدائقه المجاورة لديرهم وضموها الى الدير ودعوه دير المعجائب ؟

ولا ندري إذا كان جوناثان قد جرت له هذه المعركة حقيقة مع القربان أو غير القربان ، ولكن الذي لا ريب فيه أن منزله وحدائقه قد انضمت إلى دير الرهبان ..

ومنذ ذاك العهد ، أي منذ سنة ١٢٩٠ إلى سنة ١٥٧٢ ، كانت المعجائب تتوالى في ذلك الدير ، ولكنها كانت منحصرة في شكل واحد وهو إحالة المياه الغالية إلى دم .

وقد تطرقوا في العهد الأخير ، أي في عهد هذه الرواية إلى حسابان هذه المعجبية أمراً من أوامر الله ، يقضي به أن يحرق فريق من الملحدن كما أحرق ذلك المنكود جوناثان .

ففي السابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٥٧٢ ، أي في اليوم التالي لزواج

هنري دي نافار بمرغريت أخت شارل التاسع ، وهو يوم أحد كان الناس مزدحمين في الشارع ، ففتح باب الدير في الساعة الخامسة بعد الظهر وخرج منه راهبان وجعلا يصيحان بلء صوتيهما :
عجيبة .. عجيبة !

وكان هذان الراهبان تهييوت ولوبين ، اللذين عرفهما القراء في فندق دفينير .

ولاسيا لوبين ، فقد كان خرج من ديره باذن خاص فلبس ملابس العوام وذهب إلى فندق دفينير بصفة خادم للمائدة ..
حق إذا فرغ الدوق دي كيز من مؤامره ولم يعد محتاجاً إلى الاجتماع في الفندق استدعى رئيس الدير لوبين وقال له :

- إنك قد جاهدت خير جهاد في مهمتك ولكن الانسان ضعيف بالطبع ولا بد أن يكون الشيطان قد جربك مدة بعدك عن الدير فارتكبت بعض الهفوات بحيث وجب التكفير عنها .

ولذلك أعينك حارساً للحلة العجائبية مع الأخ تهييوت ، وهو أعظم شرف وفخر لكما معاً .

ولكن .. مثل هذا المقدس يقتضي له التكفير التام عن كل الهفوات ، ولذلك .. أمرك أن لا تذوق اللحم والخضر ، وأن لا تشرب الخمر مدة أسبوعين .

فدعر لوبين وقال : أأعيش اسبوعين لا أكل غير الخبز ، ولا أشرب غير الماء ؟

ثم أطرق برأسه حزيناَ مهوماً وسار إلى صومعته حيث اجتمع بالأخ تهييوت ، الذي كان ينتظره ، بلا ريب ، إذ صدر اليه مثل هذا الأمر من الرئيس ..

وسار الاثنان بعدها إلى قاعة متسعة تشبه الكنيسة ، إذ كان فيها كثير

من التماثيل ومذبح فوقه رسم المصلوب .
وكان تحت هذا المذبح حلة قديمة العهد جداً ، كان يمر بها الرهبان ،
فيسجدون وينظرون إلى داخلها من حين إلى حين ليروا إذا كانت العجيبة
قد حدثت ، وإذا كان ما فيها من الماء قد استحال إلى دم .

وقد ذهب تهيوت بلوبين إلى تلك الحلة وركع أمامها .
أما لوبين فانه وقف أمامها وقفة الحزين وتنهّد تنهّداً طويلاً .
فقال له تهيوت : ماذا أصابك ، وما هذا التنهّد .
- اتسألني أيضاً أيها الأخ عن السبب .. العلك نسيت أيام الفندق ، رعى
الله تلك الأيام ، وذلك الفندق فقد كنّا نأكل فيه ما نشاء .

وليس هذا بذنب أيها الأخ فقد خلقت نعماً وكنت أأكل كل ما أريده في
فندق دفينير .

اني لا أعلم ما أعدّه الله لنا في الجنة من أسباب النعم ..
ولكن الذي أعلمه أن في الأرض جنة أيضاً .. وهذه الجنة كالجنة في
فندق دفينير .

- ألا تزال تذكر ذلك الطعام الشهي ؟
- كيف لا أذكره ، وماذا تريد أن أذكر سواه .

فتوجع تهيوت لمصابه وقال له :
- لقد تبدلت أيام نعيمنا منذ عهد بعيد ، فلقد كنّا معشر الرهبان في
عهد فرنسوا الأول ندخل إلى أي فندق نشئنا ونأكل فيه أي طعام أردناه
ثم نخرج منه ولا ندفع غير البركة .

- نعم ، فأننا بتنا نجاهد في سبيل الطعام الشهي جهاد الأبطال .
- ولقد جاهدت أكثر من جهادك ، فاني أفرغت جعبة الحيل حتى تمكنت
من الذهاب إلى فندق دفينير مع الدوق دي . . ولكنك لا تعلم
هذه الأسرار .

- وأنا لا أبالي بها الآن .. فقد كفاني من الهموم .. اني محكوم علي
كما يحكمون على المجرمين في السجون ..
اي بأكل الخبز وشرب الماء فقط .
- فابتسم تهيبت ابتسامة معنوية ..
فقال له لوبين :
- لماذا تبسم هذا الابتسام .
— اسكت واذهب فاقفل الباب .
فأسرع لوبين إلى إقفال باب القاعة وقد ملء قلبه رجاء .
ثم عاد إلى رفيقه فقال له تهيبت :
- إذأ لقد حكم عليك بمثل هذا الصيام مدة أسبوعين .
— نعم .. وآسفاه .
— ولكني لا أخالك تصبر عليه .
— بل أموت قبل انقضاء المدة .
- فأخرج تهيبت من خزانة قطعة من الخبز الأسود ، وزجاجة من الماء ،
فدفعها إلى لوبين وقال له :
- هذا هو غذاؤك مدة يومين .
- فضم لوبين ذراعيه إلى صدره واغرو رقت عيناه بالدموع وقال :
- ليقولوا لي اني محكوم علي بالموت ، فان هذا الغذاء والموت واحد .
ثم أنت يا تهيبت الذي تقدم لي هذا الغذاء ، وأنا الذي كنت في فندق دفينير
اطعمك افضل الطعام واسقيك افخر الخمر .
- اني لم اكن أتوقع منك هذا الجفاء يا تهيبت .. وبعد فاني حين افتكرك
بتلك الفطائر ..
— كفى ..
— وحين افتكرك بتلك الفراخ وهي توقص فوق النار وتنبعث رائحتها

فتنمّش القلوب ..

- كفى . كفى .

- وحين افتكّر بتلك الزجاجات افرغ خمرها في الكؤوس فيفعل بي صوتها فعل اعذب الألحان .

- كفى فقد هجّت شهيقي للطعام واسمع ..

افترض اني أرحّت الغطاء عن هذه القدر فوجدت فيها .. أولاً ..

وعندها أزاح تهيّبات الغطاء عن الحلة التي كانت تظهر فيها المعائب .. ومد يده إلى جوفها .

فكان له لوبين وقد اتقدت عيناه بشمع الأمل : ماذا نجد أولاً ؟

- اجد تلك الفطائر المقلية التي كنت تأكلها في الفندق ، ثم اجد زجاجة باردة ، ثم قطعة من لحم الخنزير المقدد ، ثم زجاجتين من الخمر الأبيض وأربع زجاجات من خمر بروجونيا .

وكان تهيّبات كلما ذكر صنفاً أخرجه من الحلة ووضعها فوق المذبح ولوبين ينظر إليه ، وقد اندلع لسانه واضطربت عيناه .

فلما أتم تهيّبات نقل الطعام والشراب إلى المذبح ركع لوبين وبسط يديه إلى السماء يسبح الله .

فقال له تهيّبات :

- افترض الآن ايها الصديق ، إن هذه القراخ واللحم المقدس والفطائر خبز اسود ، وإن هذه الخمر ماء فبارك واشرب منها ، بل لتأكل هذا الخبز الأسود ، وأنا اعلم اني اكذب ، ولكن ذلك لخير الكنيسة فلا تحاول ان تفهم .

فقال لوبين : بل هو لخير ولا أبالي الآن ان افهم فقد قتلتني الجوع .

وجعل الاثنان يأكلان ، فكان تهيّبات لا يقتصد في الطعام ، ولكنه اقتصر على شرب زجاجة واحدة من الخمر الأبيض .

وأما لوين ، فإنه بعد أن شرب الزجاجاة الأولى ، تمكنت منه
السويداء .

وبعد شرب الثانية صار يضحك لكل كلمة دون سبب .

وبعد شرب الثالثة انطلق لسانه بالترتيل فجعل يمجّد الله ...

وبعد الرابعة جعل يبكي ويذكر خطاياہ .

ثم بحث عن الخامسة كي يتمزى بشربها عن تلك الخطايا فلم يجدها .

أما تهيبوت فإنه كان قد أفرغ الزجاجاة البيضاء التي لم يشربها في حصة
العجائب ثم سكب فوقها مادة حمراء .

ثم رفع يديه إلى السماء وفادى لوين قائلا :

-- أسرع أيها الأخ !

فنهض لوين وكان جائعا على الأرض يبحث عن الزجاجاة الخامسة وأسرع
إلى تهيبوت فقال له : ماذا حدث ؟

أجاب لا أدري ، وأخاف أن تكون عيني قد خدعتني ، ولكن
يظهر لي . . .

... ماذا أصابك ؟

— تحول الماء دم .

— أهذا ممكن ... وباليته تحول إلى خمر .

فبنظر تهيبوت اليه نظرة المؤنب ، وقال : لا يحب المزح ، في الأمور
المقدسة .

— ولكنني أخاف أن يكون بصرك قد أصيب بفشاوة ... وسأرى
بنفسي ...

ثم دنا من الحلة ونظر إلى مسافيتها ، فاعفر وجهه ، وجعل يصيح بله
صوته قائلا :

— عجيبة .. عجيبة .. إن الماء قد احمر ، وأنا الذي وضعت الماء بيدي ..

أيها الاخوان .. أيها الرهبان .. أسرعوا أسرعوا .. إن دم المسيح قد حل في
الحلة وأنا وضعت الماء .. الينا الينا !
ثم ركع أمام الحلة وجعل يبكي .

فأسرع تهييوت ورد الزجاجات الفارغة وبقايا الطعام الى الخزانة ، وأقفلها
وفتح باب القاعة .
أما الرهبان فلما سمعوا صوت لوبين أسرعوا اليه وفي مقدمتهم رئيس الدير
وهو يقول :
- ماذا حدث ؟ .

فأجاب لوبين وهو يبكي :
- لقد ظهرت العجيبة على يدي ... وأنا الذي وضع الماء في الحلة فاستحال
الى دم ... إشربوا ... إشربوا ولنشرب جميعنا .
فارتفعت أصوات الرهبان بالتهليل والتسبيح ، وأحدقوا بلوبين يحلونه
ويتبركون به وقد اعتبروه من القديسين الصالحين .
وعندها رفع رئيس الدير الحلة وأمر ان تفتح جميع الأبواب وتقدم الرهبان
الى الكنيسة وهم يرقلون .
وسار هذا الموكب ، حتى بلغ إلى باب الدير ، فلما يبهاير الناس
قد احتشدوا ، وبينهم نحو عشرين رجلاً من الأشراف ، وفي طلبعتهم
مورفر .

فلما مر الرئيس ، وبيده الحلة ، ركع الجميع أمامها وجعلوا يتبركون بها .
ثم دخلوا بها الى الكنيسة وأقفلوا الباب . ولكن الناس كانوا يسمعون
ترتيل الرهبان ، وقرع الأجراس ، فتعلو أصواتهم على تلك الأصوات ،
وهم يصيحون :

- لتحيى الكنيسة .. ليحيى دي كيز .. ليبت الهوكينوت ا
وعندها أشار مورفر إلى رجل كان واقفاً بين الجمع ، قال : هوذا واحد

منهم ، هوذا اثنان .
فانقض الناس عليهما انقضاض الساعة فرفعت الأيدي ولمعت الحناجر فلم
يبق في قتلها ريب .

وكأنما الله قد أراد إنقاذهما ، ففتح باب الدير في تلك اللحظة ، وخرج
منه لوبين ، وقد دفعه السكر إلى الاعتقاد بنفسه انه حقيقة من القديسين ،
فأفلت من الرهبان وخرج من الدير وهو يبكي .

فصاح الناس قائلين : هوذا القديس الذي أحال الماء الى الدم .
فتركوا الرجل الذي كانوا يهاجمونه ، وازدحموا حول لوبين
يتبركون به .

أما لوبين فانه رأى الرجل الذي كانوا يهاجمونه فأسرع اليه وقال : أهذا
أنت يا سيدي بارداليان الذي كنت تسقيني الخمر في الفندق فمال أعانقك فإني
لا أنسى جميلك .

وبينا كان الناس يصيحون : ليعيسى القديس لوبين ، كان هذا القديس لوبين
يعانق بارداليان ويقول : ليعيسى باكوس (إله الخمر) .

مهمة مورفر

كان بارداليان يذهب في كل يوم إلى صديقه ديودات ، فيقيم عنده فترة من الزمن ثم يرجع إلى قصر مونغورانسى .

وكان كل منهما يحدث الآخر بقرامه فيقومان الساعات الطوال ، ولا شاغل لهما غير هذا الحديث .

ففي يوم الأحد وفي تلك الساعة التي ظهرت فيها عجيبة الحلة في دير المعجائب كان بارداليان عند صديقه ديودات .

وقد الفاه طلق الوجه ، منشرح الصدر ، فعلم منه أنه سيتزوج الليلة باليس ، وأخبره أن أمه الملكة كاترين ستحضر الزفاف ، وأنه سيعقد في كنيسة سانت جرمين ، عند انتصاف الليل ، وأن الملكة ستولى بنفسها مهام الزفاف .

وكان بارداليان شديد الانقباض ، فزاده هذا الخبر انقباضاً ، وأوجس خيفة على صديقه من تلك الملكة الجائرة . فعول على أن يحضر الزفاف وأن يسير إلى الكنيسة مع بضعة من أصحابه ، إذ بات يعتقد أن الملكة لم تهتم بديودات هذا الاهتمام ، ولم تجعل الزفاف عند انتصاف الليل إلا لغاية شر لم يعلمها .

ولكنه لم يذكر شيئاً من هواجسه لصديقه ، سوى أنه سيحضر

هذه الحفلة .

فشكره وسأله ان يرافقه إلى إحدى الحانات فيشر بان فيها كأساً من الخمر فوافقه على ما أراد .

وكان ديودات رأى انكماش بارداليان ، فسأله وهما في الطريق عن سبب انقباضه .

فقال له : إن أبي خرج من القصر منذ ثلاثة أيام ولم يعد الى الآن وأخشى ان يكون أصيب بسوء .

— كيف ذاك ألم تعلم شيئاً من أخباره .

— كلا فإنه ذهب مساء الاربعاء وقال للبواب إنه إذا لم يعد صباحاً يكون قد سافر ، فألى أين هذا السفر ؟ وكيف يستطيع الخروج من باريس وأبوابها مقفلة ؟ ومع ذلك فقد يكون تمكن من مبارحة المدينة وحده ، ولكن إلى أين ذهب ؟

.. لا ريب ان أباك وافر الحكمة فلا سبيل الى الخوف عليه .

— ربما ، فإن ذلك يريح بالي بعض الراحة ، وانه لو كان مصاباً بخطر لأخبرني به ، ولكنه يجري في خطة وأنا أجري في خطة ، وأخاف ان يفسد غيابه خطتي .

— ما هي خطتك يا بارداليان .

— لقد تمكنت من إغواء ضابط سيتولى حراسة باب سانت ديفيس يوم الثلاثاء وقد وعدني انه لايدافع غير دفاع ظاهري حين نخرج من ذلك الباب بشرط ان يكون هجومنا شديداً كي يكون له عذر بالفشل ، وإني معتمد عليك أيضاً أيها الصديق في هذه المهمة .

.. حسناً ففي أية ساعة من يوم الثلاثاء يكون اللقاء .

— في الساعة السابعة من المساء ، فتكون حنة وابنتها والمارشال أيضاً ، في مركبة مقفلة ، فقد أقنعتهم ورضي ان يتواري . وسيكون معي

عشرون مهاجراً .

- وأنا أعدك بعشرين رجلاً أيضاً .

- أو اه لو كان أبي معنا .

- إنه سيرجع بلا ريب في ذاك الحين ... ولكن ما لهؤلاء الناس

يبحثون ؟

- ما هذا ؟ .. إنهم يبحثون جميعهم على الركب .. تقدم ، أيتها

الصديق لئلا نرى .

- ألا تخشى أن يعرفوك ؟

- ومن عساه أن يعرفني منهم وليس لي علائق بهذه الجهة .

وعندها سمع بارداليان صوت رجل يقول : « هوذا اثنان منهم » فارتدش

لهذا الصوت إذ علم أنه مورفر .

وكان بارداليان وماريلياك قد قدما إلى باب الدير ، وامتزجا بالناس قبل

أن يراها مورفر فرأيا أن جميع الحضور قد ركعوا حين مرور الحلة المقدسة فلم

يبقى واقفاً غيرهما .

وكانا يصيحون في ذاك الحين : ليمت الهوكينوت . وفي تلك اللحظة صاح

مورفر قائلاً : هوذا اثنان منهم .

فأحاط الشعب بهما من كل ناحية ، وانقضوا عليهما انقضاض العقبات

على القريسة .

فنظر كل منهما إلى الآخر نظرة مفادها ان الموت بات محتملاً ، ولكن

لننتقم ما استطعنا قبل الموت .

لكنهما قبل ان يجردا سيفيهما رجع الشعب فجأة الى الركوع وجعل الناس

يصيحون : هوذا القديس !

وعند ذلك رأى القديس ، وهو لوبين ، بارداليان وأسرع اليه يعانقه

فتفرق الناس من حول ذلك القديس ، بحيث تمكن بارداليان وماريلياك من

تجريد سيفيهما .

وقد رأى بارداليان زاوية تحت الدير ، فقال لصديقه . انظر الى هذه الزاوية
في الجملة اليسرى من الدير .
- اني اراها .

- هلم نشب اليها لاننا نستطيع الدفاع فيها ... تأهب .

- هلم بنا .

فاندفع ماريلياك الى تلك الزاوية وهو يفرق الناس بسيفه المسلول فيبتعدون
عنه منذرين ثم يركضون في أثره ناقلين .
حتى اذا وصل الى تلك الزاوية رأى انه وحده فيها .

فحاول ان يعود الى حيث كان ، للدفاع عن صديقه بارداليان ،
ولكنه شعر ان عدة أياد أمسكته من وراء ، ثم شعر انهم حملوه وأدخلوه
الى الدير .

واما بارداليان فانه حين رأى صديقه يركض الى الزاوية ، وان لويين
يعانقه بحيث يمنع عن إدراك صديقه ، تخلص منه بعنف ووثب يشق عباب
ذلك الجمهور .

ولكنه وجد سداً من الناس ورأى مورفر ورفاقه قد انقضوا عليه من
كل صوب . فما زال يدافع عن نفسه ذفاع القائط المستميت حتى تغلب
عليه ذلك الشعب الزاخر الناقم ، وسقط على الأرض وقد تهشم جسمه
من الجراح .

فاحتاط الناس ، واسرع مورفر فجاء بجبل متين ، فأوثق به يديه
ورجليه ، وأمر بإدخاله الى الدير ، بعد ان جرح عشرين رجلاً من اولئك
المهاجرين .

وبعد ان أقفلت أبواب الدير ، وقف الناس خارج الأبواب يهتفون لذلك
القديس .

وكان لو بين يظهر من حين الى حين من النافذة ويبارك ذلك الشعب ، وهو يكاد يسقط من السكر .



أما مورفر فانه ، بعد ان دخل الى الدير ، خلا برئيسه وتداول معه ملياً .

ثم ذهب الى الغرفة التي وضعوا فيها ماريلياك فقال له : انت حر يا سيدي الكونت وهوذا حسامك .

فلم يظهر ماريلياك لا سروراً ولا دهشة بل أخذ حسامه فوضعه في غمده والتفت الى مورفر فقال :

- أرجو ان نلتقي في حال لا تشبه هذه الحال ، اي نلتقي في مكان لا يخفرك فيه عشرون رجلاً من اعوانك .

- اننا نلتقي ، يا سيدي الكونت ، في أية ساعة اردتها ، وفي اي مكان تختاره .

- إذا نلتقي صباحاً بعد غد .

- اين ؟

- في مروج الرعاة .

- ليكن ما تريد ... ولكن ارجوك ، يا سيدي الكونت ، أن تأذن لي بإظهار انذهالي مما اراه من عداوتك لي ، بعد ان انقذتك من الموت .

فأجاب ماريلياك بلمحة المحتقر :

- انت انقذتني ؟

فأصفر وجه مورفر وقال :

- نعم فاني اتيت من ورائك ، حين رأيت الناس ينقضون عليك فحملتك مع رفاقي وادخلتك الى الدبر ، ولولاي لما كنت الآن في قيد الحياة ، يا سيدي الكونت .

- إذا كان ذلك كما تقول فلا يعني انا ايضاً غير الانذهال ، فاني لست من اصدقائك كما اظن .

- ايجب ان تكون من اصدقائي لأنفذك من ايدي اولئك الناقين ... وفوق ذلك ، فلا بد لي من الاعتراف لك ، اني قد اندفعت الى لمجدتك بسبب سري .

- ما هو هذا السبب يا سيدي .

- هو ان يروق عملي في عيني جلالة الملكة كاترين ، فاني اذا لم اكن من اصدقائك ، يا سيدي الكونت ، فذلك لا ينفي ان اكون من اصدقاء الملكة .

اتعلم ما قالته الملكة اخيراً لي ولسواي من المخلصين لجلالته ؟ . قالت انها تعتبرك من البواسل وتمتطف عليك عطفاً خاصاً ، وانها ترجو جميع المخلصين لها ان يحموك من كل سوء قد يصيبك .

فأنت ترى يا سيدي اني اذا انقذتك فقد صدعت بأمر الملكة ، التي اسفك دمى في سبيل خدمتها وخدمة من تحبهم .

فقال له ماريلياك بصوت يتهدج :

- اهي قالت هذا القول ؟

- انه كلامها نقلته اليك بحرفه يا سيدي الكونت ، وانا على قبولي مبارزتك ارجوك ان تعتبرني من اخلص الأوفياء لك .

ثم انحنى امامه وحاول الانصراف فاستوقفه ماريلياك وقال له :

- ان لكلام جلالة الملكة الذي سمعته منك الآن تأثيراً عظيماً على حياتي يا سيدي ، فهل تقسم لي انك نقلت اقوالها كما سمعتها .

- نعم ، اقسم لك ، يا سيدي الكونت ، وازيد على ذلك انه اذا كانت اقوالها تدل على الميل اليك ، فإن نبرات صوتها كانت ادل على عطفها عليك ...

ولم يعد ذلك بسر ، يا سيدي ، فقد عرف الجميع ان جلالته تريد لك الخير ، وانها ستوليكَ أرقى منصب في جيش الأميرال كوليني الزاحف الى هولندا .

فتنهده ماريلياك وقال في نفسه :

- أماء ! أحق ما أسمع .

ثم نظر إلى مورفر ، وقال : إني آسف ، يا سيدي ، لأنني أسأت استقبالك .

فابتسم مورفر وقال : وأنا أغفر لك هذه الاساءة .

- أشكرك إذاً شكركين ورجائي الآن ان تذهب بي إلى الشفالييه بارداليان كي أعود وإياه .

- بارداليان !

- نعم هو ولماذا عجبت ؟

- أعيد عليك ما قلته يا سيدي الكونت ، وهو انك حر طليق ، وأما بارداليان فقد ارتكب جريمة العصيان ، وجريمة إهانة الملك فوجب أن أقبض عليه .

- تقبض عليه ؟

- وقد فعلت .

- بأي حق الملك من ضباط الحرس ؟

- كلا يا سيدي ولكنني تلقيت الأمر للقبض عليه وكنت أبحث عنه حين تشرفت بلقائك .

- ومن الذي أصدر اليك هذا الأمر ؟

- جلالة الملكة كاترين .
وعند ذلك انحنى مورفر مسالماً وانصرف ، وقد ترك الباب مفتوحاً .
ولبت ماريلياك هنيئة ، وهو مطرق مفكر ، ثم ضرب جبينه
بيده وقال :
- سأرى الآن جلياً إذا كان عطف الملكة علي أكيداً فإني سأسأله إطلاق
سراح بارداليان .
ثم خرج من غرفته إلى رواق فلقبه راهب وقال له : لقد عهد إلي يا سيدي
الكونت أن أخرجك من باب خلف الدير .
- لماذا لا أخرج من الباب الكبير .
- ذلك يا سيدي الكونت ان الشعب هائج ، والناس يلتظرون خروجك
للانقضاض عليك .
ولكننا علمنا ان جلالة الملكة لا تريد أن تصاب بسوء ، ولذا أردنا إخراجك
من ذاك الباب .
فتبسم ماريلياك الراهب دون اعتراض فخرج من ذلك الباب دون ان يراه
أحد وسار في طريق اللوفر .

- ٥ -

سجن التامبل

وقد كان ماريلياك يسير مسرعاً إلى اللوفر ولكنه على سرعته لم يدرك مورفر لأنه سبقه إليه .

ويظهر ان الملكة كانت تنتظر مورفر بفارغ الصبر لأنه حين وصل إلى اللوفر أسرع إليه رئيس حراس الملكة وأدخله إليها .

وكانت الملكة تكتب ، وقد اقلت على مائدتها كثيراً من الرسائل المختومة .

فلما دخل مورفر أشارت إليه إشارة مفادها أن ينتظر إلى ان تتم الجملة التي تكتبها .

ثم عادت إل الكتابة ، وجعل مورفر ينظر إلى تلك الرسائل ليعرف عنواناتها .

فباغتته الملكة وهو ينظر وقالت له : أرى انك تريد ان تعرف اسماء الذين أكتب اليهم هذه الرسائل .

- سيدتي . .

- لا بأس إني أحب أهل الفضول لان فضولهم يدل على الذكاء وسأشفي غلك فاذهب إلى النافذة .

- أقول إلى جلالتك ان تشق ...

- قلت لك اذهب إلى النافذة .
فامتثل وذهب إلى النافذة وهو يعتقد انه سيباغت بأمر هائل لكنه اطمأن
حين خطر له ان الملكة محتاجة اليه .
فقالت له : ماذا ترى يا مورفر في ردهة البلاط .
- لاني أرى ثلاثين رجلاً من سعاة بريد جلالة الملكة ، وهم فوق جياهم
متأهبون للسفر .
- حسناً إبقى حيث أنت لترى كل شيء .
ثم قرعت جرساً أمامها .
فدخل إلى غرفتها رجل أشارت اليه ان يأخذ الرسائل .
فأخذها ونزل مسرعاً إلى تلك الردهة فجعل يوزعها على السعاة وكلما أعطى
ساعياً رسالة انطلق يحواده وخرج بها من الدوفر .
حتى إذا سافر السعاة كلهم بالرسائل ، نادى الملكة مورفر ،
وقالت له :
- أريد منك حين ترى صديقك الدوق دي كيز ان تقول له بأنك رأيت
سعاة بريدي يحملون رسائلني إلى حكام الأقاليم . وأضف إلى ذلك ان كل رسالة
تتضمن الأمر الى الحاكم يجمع من لديه من الجنود ، والزحف بها إلى باريس
لايقاف أولئك الجهال عند حدم .. أولئك الأغرار الذين لم يخشوا أن
يتآمروا على الملك .
قل يا مورفر لصديقك الدوق انه لا تمضي بضعة أيام حتى يزحف إلى باريس
جيش مؤلف من ستين ألفاً لحماية الملك أو لانتقاذه اذا خطر لأولئك الجاهل ان
ينفذوا خططهم .
وأما أنت ... فماذا أصنع بك .
فشمع مورفر ان الأرض تميد به لما خامر قلبه من الرعب ، كأنما سيف
الجلاد قد أشهر على عنقه ، وقال في نفسه :

- ويلاه إني من الهالكين .
فنظرت اليه الملكة ، وقد رأت اضطرابه ، نظرات تختلف بين الريب
والاحتقار والفوز .

على انها كانت كاذبة فيما قالت ، لان هذه الرسائل التي أرسلتها إلى
الحكام لم تكن تتضمن الأمر بحشد الجنود والزحف بها إلى باريس ، بل
كانت تحتوي على إصدار الأمر لهم بالقبض على كل ساع من سعاة البريد
لا يكون معه أمر بإيصال الرسائل ، والقبض على كل هارب من باريس
وكل هوكينوتي .

وكان مورفر قد ركع أمامها وهو يضطرب اضطراب الريشة في مهاب الريح
فأمرته ان ينهض وقالت له :

- لا ينقذك غير الصدق ... فقل لي الآن ، إلى أين بلغت مؤامرة
دي كيز ؟

فأجاب مورفر وقد بذل جهداً عنيفاً كي يضبط نفسه :

- أقسم بالله يا سيدتي انه لا شأن لي مع المتآمرين .

فقالت بلهجة احتقار هائلة: ومن قال لك انك تؤامر يا مورفر فان من يتآمر
يجب ان يكون شيئاً مذكوراً ، لكن لا بسد ان تكون سمعت شيئاً عن هذه
المؤامرة فقل ما تعلم عنها .

- يقولون يا سيدتي ان جلالة الملك لا يريد ان يتخذ الوسائل اللازمة بشأن
الهوكينوت .

- وبعد ذلك .

- ولما كان أهل باريس هائجين عليهم ، فسيستفيد الدوق دي كيز
من هذه الفرصة ، ويتخذ النبلاء وعامة الشعب من حزبه ، ويكون قائد
الكاثوليك العام .

- وبعد ذلك .

- هذا كل ما أعلمه يا سيدي .

- كذبت .

- سيدي ... إني لو نقلت إلى غرفة التعذيب ، لما قلت غير ما سمعته مني ، لأنني لا أعلم سواه ... ولكني أظن ... وظني مبني على الافتراض ...

- قل .

- أظن انه حين يسود الدوق دي كيز على باريس ، ويصبح القائد العام لجميع الكاثوليك ، يقتنم هذه الفرصة إذا ساعدته الظروف ، للوصول إلى جلالة الملك .

فقالت الملكة في نفسها : أحق انه لا يعرف أكثر مما يقول ؟

ثم نظرت اليه وكان قد قاب إلى رشده وضبط نفسه فقالت :

- إنك أحسنت خدمتي يا مورفر وستخدمني أيضاً .

- إن حياتي لجلالتك يا سيدي قافعلي بها ما تشائين .

- إني أصفح عنك يا مورفر ، وأما الدوق دي كيز فإنه إذا أحب أن يكون قائد الكاثوليك رضيعنا به قائداً ، فقد يعجبني منه دفاعه عن الدين .

وأما ان يحضر الى اللوفر لعرض شروطه على الملك فسيجد حول عرشه جيشاً كثيفاً يسمم قبل الملك تلك الشروط .

ثم حدثت بمورفر تحديق الفاحص المرقاب .

فتحمل مورفر نظراتها بشهامة اليأس ، وقد أيقن انه إذا بدرت منه بادرة تدل على الضعف سيق في الحال الى غرفة التعذيب .

أما الملكة فإنها بعد هذه النظرات أخذت ورقة وكتبت عليها بضعة سطور وقالت له : أنظر ما أصنعه بك .

فقال مورفر في نفسه : لا ريب ، انها تكتب الأمر القاضي بإرسالني

إلى الباستيل .

لكنه حين دفعت له الملكة الورقة ورأى مكتوباً عليها حوالة باسمه على الجزيرة بخمسين ألف فرنك فرح فرحين أحدهما خلاصه مما كان يتوقعه من العقاب والثاني فرحه بذلك المال .

أما الملكة فقد راقبت تأثير هذه الورقة فيه فقالت في نفسها : إنه دون ريب لا يعلم أكثر مما قال .

ثم قالت له لقد اقتربت الساعة يا مورفر ويجب ان تذهب الى ذاك الصديق الذي اتفقت معه على ان يكن للأميرال كوليني .

-- لكنه يا سيدتي مقيم في مكانه وقد دفعت له ما أعطيتني إياه من المال فما هذا الذي أعطيتني إياه الآن ؟

-- انه مقابل سوء ظني فيك ثم لأكافئك عن النبأ الذي جئتني به بشأن عجيبة الدير فقد بلغني انها حدثت ليس كذلك .

-- نعم يا سيدتي وان الشعب متبحر الآن حول الدير ولهم واثقون ان الماء تحول الى دم .

-- اذأ ان الشعب واثق من حدوث العجيبة .

-- كل الوثوق يا سيدتي وهو يعتقد ان هذه العجيبة جاءت إنذاراً من الله للدلالة على إبادة أهل البدع وقد بدأت بالقبض على اثنين منهم ولكني أطلقت سراح واحد منهما .

فظهرت عليها علائم الدهشة والقلق وقالت : من هما ؟

-- إن الذي أطلقت سراحه يا سيدتي بعد ان أنقذته بيدي من الشعب الثائر هو من أعظم الهوكينوت ولكني لاحظت ان بجلالة الملكة لا تريد ان يساء اليه وهو الذي يدعو الكونت دي ماريلياك .

فارتعشت ارتعاشاً خفياً ، ولبثت باسمة ، متظاهرة بمسدم الاكترات ، وقالت له :

- لقد أحسنت يا مورفر في إطلاق سراحه ، لأنه من أصحابي . فمن هو الثاني ؟
- الثاني ... إني التمس من سيدتي أن أذكرها بوعدها ، الذي تفضلت ووعدتني به .
- ما هو ؟
- يوجد على وجهي يا سيدتي أثر ، لا يمحو عني عاره ، إلا إذا انتقمت انتقاماً هائلاً . وهذا الرجل الذي ظفرت به ، هو الذي رسم في وجهي هذا الأثر .
- الشفاليه بارداليان .
- هو بعينه يا سيدتي .
- فظهرت علائم الفرع على وجه الملكة وقالت : أنت من خير الرجال يا مورفر فقل بماذا وعدتك ؟
- وعدتني يا سيدتي أن تأذني لي بالتحرف بهذا الرجل كيف أشاء ، إذا ظفرت به .
- أين هو الآن ؟
- مكبل مسجون في إحدى غرف الدير .
- أين تريد أن تسجنه ؟
- في الباسكيل إذا كانت جلالتك تريد أن تصدر أمرها بذلك .
- ففكرت الملكة هنيهة ثم قالت :
- ماذا تريد أن تصنع بهذين الرجلين ؟
- فانذهل مورفر وقال :
- من هما هذان الرجلان يا سيدتي ؟
- الشفاليه بارداليان وأبوه ، لقد أخبرني المارشال دامفيل انه قبض على الأب وأرسله إلى سجن التامبل .

وقد طلب إلي هذا المارشال ، لسبب لا أعلمه ، أن أأذن له بأن يتولى استنطاق هذا الرجل وهو لم يحاكم إلى الآن ، ولكنني أعجب كيف ان المارشال يتولى بنفسه هذا الأمر . فهل يعرف بارداليان سرّاً عظيماً يريد المارشال أن يعرفه منه .

— لتتفضل سيدتي بإصدار أمرها إلي ، وأنا أتعهد بأن أنزع منه هذه الأسرار .

— أنت تعرف ، إني غير حاقدة على بارداليان ، الذي تنقم عليه هذه النعمة .

— لكن الشفالييه بارداليان أهان جلالتك في قلب اللوفر .

— ليس من المؤكد أنه خطرت له إهانتني ، وفوق ذلك فان الشفالييه بارداليان خدم الملك خدمة جليلة حين أنقذ ابنة عمه ملكة النافار . مسكينة هذه الملكة إن ذلك لم يمنع عنها الموت .

إن مصاب موتها عظيم لقد كان الاتفاق معها سهلاً ميسوراً في كل أمر خلافاً للأميرال كوليني فلا سبيل معه الى الاتفاق .

ثم تنهدت إظهاراً لأسفها على ملكة النافار ، وعادت إلى حديثها الأول فقالت :

— إني وهبتك هذين الرجلين ، ولا أخلف بوعدي .. ولكنني أحب أن يكونا في سجن واحد ، وما زال الأب مسجوناً في التامبل ، فاسجن الابن معه فيه .

ثم كتبت له الأمر بذلك .

فأخذه مورفر وقال :

— لا فرق عندي بين أن يكونا في التامبل او في الباستيل بشرط ان يكونا في قبضة يدي ولا سيما الشفالييه .

— ألم تقل انك ستتولى استنطاقهما .

. نعم يا سيدتي وذاك كاف لانتقامي .
 - إذاً اذهب ، لكن قل لي متى عذمت على استنطاقهما .
 - منذ الآن يا سيدتي بعد ان أنقل الشفالييه الى سجن أبيه ، وأدعو الذي يتولى تعذيبهما ، لكنه لا يفعل إلا بحضور القضاة .
 .. إلا إذا كان لديه أمر خاص .
 ثم كتبت أمراً بذلك وعينت وقت التعذيب والاستنطاق في الساعة العاشرة من صباح السبت الواقع في ٣ أغسطس .
 فقال لها مورفر : أيجب ان أنتظر الى هذا الحد .
 - إني صبرت أكثر منك ولم أضجر ، أقل من انتظار خمسة أيام .
 .. ليكن ما تريده جلالتك .
 - واعلم اني لا أريد ان يكون أحد سواك في غرفة التعذيب ، ومأمور التعذيب .
 - سأصعد بالأمر .
 - ثم انك تعود إلي بما يقوله الرجالان دون زيادة او نقصان .
 - هذا لا ريب فيه .
 - واعلم أيضاً ، يا مورفر ، إني أعطيك حياة هذين الرجلين ، مقابل حياة كوليني ، الذي وعدتني بقتله ... ويجب أن ينفذ قتله من اليوم إلى السبت .
 - سيكون ما تريد يا سيدتي .
 وأمرته عند ذلك بالانصراف وبقيت وحدها فقالت : لقد قضى على كوليني ولم يبق له مفر من الموت .
 وأما بارداليان فسأعلم ذلك السر الذي يريد دامييل ان ينتزعه منه ، إذ يوجد في غرفة التعذيب غرفة خفية ، أستطيع ان أسمع منها كل شيء دون ان يراني أحد

وعندها دخل نانسي قائد حرسها وقال :
- على الباب يا سيدتي الكونت ماريلياك .

فابتسمت الملكة وقالت :

- ماذا يريد هذا الكونت العزيز ؟

- إنه يلتمس مقابلة جلالته .

- ليدخل .

فخرج قائد الحرس وقالت الملكة في نفسها :

- لماذا لا أقبض عليه أيضاً وأزجه في السجن ... كلا .. فإنه قد يبوح

بسري مولده ...

وإذا قتلته فلاني أخاف اليس ... فلأصبر يوماً أيضاً فقد بات الانسان في

قبضة يدي .

وعندها دخل الكونت فاستقبلته باسمه مسرورة وقالت :

- لقد قيل لي انك تريد مقابلي يا كونت فتفرغت لمقابلتك عن أشغال

الملكة فقل يا بني ماذا تريد ؟

الملك جئت تسألني إذا كانت معدة الحفلة قد انتهت ؟ .. إطمئن اني لا

أدخر وسيلة في سبيل هنائك .

فركع ماريلياك وقال :

- إن سيدتي غمرتني باحسانها ، لكنني لم أحضر الآن لشؤوني بل أتيت

التمس منها العفو .

- عن تريد ان أعفو ؟

- بل التمس ان يحري العدل في مجراه فقد قبضوا اليوم على صديق بل على

أخ لي وهو زين الشباب بذكائه وبسالته وحنانه .

- يكفي ان تحب هذا الرجل ، يا كونت ، فأريد له كل خير . قل

ماذا يدعى ؟

. وأسفاه ، يا سيدتي ، إنه نكب بأن أتاحت له الأقدار أن تكوني غاضبة عليه ، وذلك مرتين . إحداها في مقابلة في ذلك المنزل الذي تشرفت فيه أنا بمقابلتك فيه أول مرة ، والمرة الثانية في الوفير ، في غرفة الملك .

— لقد أساء إلي كثير من الناس ، ولكنني كنت أحاول نسيان إساءتهم ، لأن كل من يعرفني حق العرفان يصبح من أعواني . فقل ماذا يدعى هذا الصديق .
— الشفالييه دي بارداليان .

فتظاهرت الملكة أنها تبحث في ذاكرتها عن هذا الاسم ، ثم دقت يداً بيد وقالت :

— نعم .. نعم لقد كدت أنسى هذا الرجل الذي عرضت عليه الدخول في خدمتي . أتقول أنهم قبضوا عليه .

— نعم يا سيدتي ، واني أتوسل اليك أن تأمري بإطلاق سراحه وأنا الضامن انه لا يفعل ما يدعو الى استياء جلالته وجلالة الملك ، فإذا كان التماسي غير كاف فإن جلالة ملك النافار ينضم إلي فيه ، لكنني أرجو ان يكون التماسي كافياً .

— لقد أصبت ايها الكونت العزيز ، لأن في طلبك فوق الكفاية .

ثم قرعت جرساً على مائدتها ، فدخلت الخادمة وأمرتها ان تنادي نانسي قائدة حراسها .

وبعد هنيهة جاء نانسي فسأله :

— أعلمت بخبر القبض على رجل يدعى الشفالييه دي بارداليان .

— نعم يا سيدتي ، وهو ذلك الشاب الذي سجن قبل هذه المرة في الباستيل وهرب منه .

فقطبت حاجبيها وقالت : من الذي أمر بالقبض عليه ؟

— جلالة الملك يا سيدتي ، وأظن ان الرجل متهم بالعصيان وفي كل حال فإنه قاوم جنود الملك مرتين .

فقال ماريلياك : هو ذاك يا سيدتي ، ولكني سأخبر جلالتك عن السبب في هذه المقاومة .

فقالت الملكة : حسناً يا نانسي لقد علمنا ما تريد ان نعلمه .

ثم أشارت اليه بالانصراف ، فانصرف .. وبقيت هي مع ماريلياك فقالت له :

— اني سأبرهن لك يا بني برهاناً جديداً عن عطفي عليك كما أعطف على أولادي فابق هنا وانتظرنني الى ان أعود .

فلبث ماريلياك وحده وهو مضطرب إذ لم يبق لديه شك ان هذه الملكة تعامله بمحنو الأمهات وندم على ظنونه الماضية .

ولم يبق مرتاباً إلا بما سمعه من مورفر ، فقد قال له ان بارداليان قبض عليه بأمر الملكة

وقد سمع نانسي يقول انهم قبضوا عليه بأمر الملك ، فهل نسيت انها أصدرت هذا الأمر .

وأما الملكة فانها غابت نصف ساعة وعادت اليه فقالت :

— لقد فزت بما تريد يا كونت .

فقال بصوت يضطرب ان حياتي بعد الآن وقف على أمر جلالة سيدتي فهل صدر الأمر بإطلاق سراح صديقي .

— لقد تلقيت وعد الملك بالافراج عنه ، وما بلغت هذه الغاية إلا بعد العناء الشديد ، اذ يظهر ان صديقك هذا يتكلم مع المارشال مونمورانسي .

كلا ، كلا يا سيدتي ، فاسمعي لي بهذه المناسبة ان أخبرك أن المارشال مونمورانسي . .

- لا حاجة يا كونت الى معرفة ذلك ، فليس هو من شؤني ... ومع ذلك ، فاذا أراد بارداليسان ان يقول شيئاً بشأن مونغورانسي ، فسيقوله لي بنفسه

- أنت عظيمة يا سيدتي بجلالك ونبلك وكرم أخلاقك .

- كلا يا بني بل أنا امرأة لقيت جميع أنواع الشقاء والشقاء يلين النفوس ويطبعها على حب الرفق .
ولاني لا أريد ان أعرف اذا كان صديقك يتآمر على الملك بل اريد أن أعرف فقط انه صديقك .

وقل له ان أصدقائك هم أصدقائي ، وانه اذا كان يريد أن يسأل شيئاً له ، أو للمارشال مونغورانسي ، ان يأتي الي صباحاً بعد غد ، اي بعد أن يتم الملك استنطاقه .
- أريد جلالة الملك ان يستنطقه ؟

- نعم ، لقد تمكنت من ان أجعل الملك يتولى بنفسه هذه المهمة ، بدلاً من القضاة .

واذا كانت جواباته صريحة ، عن السبب في ملازمته قصر مونغورانسي يصفح الملك عن كل ما صدر منه في اللوفر ، وفي الخسارة ، وفي شارع مونغارتر .

- سيكون جوابه يا سيدتي بأتم الصراحة ، فان بارداليسان والمارشال لا يريدان إلا الخروج من باريس... واعلمي يا سيدتي ان جميع أعمالهما لا مرجع لها الا الحب .

- حسناً احضر به يا كونت في الساعة العاشرة من صباح بعد غد وقل له اني أريد ان أراه .

... سيدتي انه لا يبرح اللوفر قبل ان ينطرح على قدميك ويظهر امتنانه ..
أما أنا فإن حياتي موقوفة على رضاك .

- الى اللقاء اذا ، يا كونت ، فسنلتقي غداً في الكنيسة ، وبعد غد في اللوفر .
- فتركها ماريلياك وخرج من عندها ، وهو يكاد يطير سروراً فذهب توا الى الدير للعودة بصديقه بارداليان .
- وقد رأى حين وصوله اليه ، فارساً خرج منه ، وسار في طريق اللوفر ..
- فطلب ماريلياك مقابلة رئيس الدير فقال له : أتريد يا سيدي ان تخبرني اذا كان الشفالييه بارداليان لا يزال في الدير .
- نعم هو فيه وسينقل منه الى الباستيل ، ولكن صدر الى الأمر بأن أبقيه في الدير الى صباح الثلاثاء وأن أبالغ في اكرامه فخصصت له غرفتي ، وهذا كل ما أستطيع ان أفعله .
- وفي صباح الثلاثاء ماذا تصنع به .
- أطلق سراحه وأقول له ان جلالة الملك يدعوك الى مقابلته .
- انه سينذهب دون شك ولكن قل لي يا سيدي الرئيس ألا يؤذن لي بمقابلة الشفالييه ؟
- فتمعن الرئيس هنيهة وقال :
- اني لا أمانع في ذلك فلم يردني أمر صريح بهذا الشأن ، ولكنني أرى ان ذلك غير ميسور .
- انهم قبضوا عليكاً معاً ، ثم أطلقوا سراحك ، وأبقوه سجيناً الى الثلاثاء ، وكل ذلك يدل على انهم يريدون التفريق بينكما ، الى ذاك اليوم .
- اني لا ألع في ذاك يا سيدي ولكنني أرجو ان تخبر صديقي اني سأحضر اليه صباح الثلاثاء فأذهب به الى اللوفر .
- سأخبره دون ريب .

فودعه ماريلياك وانصرف مسروراً ولكنه كان يشعر برعب شديد يتولاه وهو لا يعرف سببه .

فكان اذا افتكر به يعلله بفرحه العظيم فيقول :

صباح غد يتزوج ملك النافار في كنيسة لوتردام فأصبح جراً وأطلب اجازة تمتد الى زمن الذهاب الى الحرب .

وغداً عند انتصاف الليل تقود أمي بيدها خطيبي اليك الى الكنيسة فيمقد الكاهن فيها زواجنا ...

نعم اني أرضى ان يعقد زواجنا كاهن فقد رضي ملكي قبلي .
وبعد غد أذهب بصديقي بارداليان الى اللوفر وأنال الأذن له ولونغورانسي بالخروج من باريس وأسافر معهم الى حيث يسافرون .

وكان يحدث نفسه بهذه الأحاديث ، وهو سائر في الشوارع ، فيرى الناس يجتازونها عصابات ، فيحسب انهم يتأهبون للحفلات الكبرى التي ستبدأ غداً .



لم يكن رئيس الدير صادقاً فيما رواه لماريلياك ، لأن مورفر قد جاء قبله الى ذلك الدير بركبة وعشرين فارساً ، فحملوا بارداليان وهو موثق اليدين والرجلين ، ونقلوه الى المركبة ، ثم ساروا به الى سجن التامبل ، حيث كان أبوه .

وكان الدوق دامفيل قد سجن بارداليان الأكبر في سجن التامبل ، بدلاً من سجن الباستيل ، لأنه خشي ان يفر من ذلك السجن كما فر منه ابنه من قبله ، ولأنه يعلم ان حاكم سجن التامبل من أهل اليقظة والشدّة فلا خوف من فرار بارداليان .

ثم ذهب الى الملكة ، وأخبرها بما فعل ، بشكل أظهر لها فيه انه خدمها
أجل خدمة .

وكان في نيته ان يستنطق بنفسه بارداليان الأكبر .

غير انه حين علم ان مورفر قبض على بارداليان الأصغر ، وزجه
مع أبيه ، خشى العاقبة ، ولا سيما حين علم ان مورفر سيتولى الاستنطاق
بأمر الملكة .

وقد عرف القراء ان الملكة عازمة على ان تسمع سرأ ما يقوله بارداليان
وابنه وانها عيشت موعدا تعذيبهم في صباح السبت وانها أذنت لمورفر بتعذيبهما
حتى الموت ، مكافأة له عن قتل كوليني بحيث لم يكن مورفر مغبوناً ، فإنه
سيشتري بحثة جثتين .

وأما الشفالييه بارداليان ، فإنه حين كبلوه ونقلوه الى الدير ، استسلم
للموت ، اذ لم يشك بأن مورفر يريد قتله .

فأغض عينيه وهو ملقى في زاوية الغرفة وجعل يحدث نفسه فيقول :
— أود لو علت السبب الذي يدفع مورفر هذا إلى اغتيالي ، إذ لا أظن
انه ينقم علي هذه النعمة لضربة سيف أصبت بها وجهه . فمن هذا الذي
يفريه بقتلي .

أهي الملكة كاترين ؟ ربما ... ولماذا ؟ إني أبديت ان أقتل بأمرها صديقي
ماريلياك ...

مسكين هذا الصديق فلاني أخشى ان يقتلونا معاً لان الملكة لم تعين موعد
زفافه عند انتصاف الليل عبثاً .

ثم ان الدوق دامجو قد يكون له يد أيضاً في قتلي ، لأنني لا أنسى ما كان
منه حين عاملته معاملة الخدم .

بل ربما كان الدافع الى قتلي دي كيز ودامفيل لأنني أعرف سر مؤامرتهم .
إني أشعر بدنو الساعة ولكن ما هذا الاضطراب الذي يصيبني؟ العلي خفت

الموت ؟ ومتى كنت أخافه ؟

لكن والأسفاه ان لويزا ستتزوج الكونت مارجنسي

وقد بذل جهداً عنيفاً عندما خطر له هذا الخاطر كي يقطع قيوده فلم يستطع
لأنهم أحكموا وثاقه .

وكان كلما خطر في باله اسم لويزا يبذل مثل هذا العنف ثم يشن أنيناً مزعجاً
إذ يمحز عن قطع القيود .

ولبت على ذلك إلى ان أقبلت الجنود برئاسة مورفر ، فنقلوه إلى
سجن التامبل .

وقد سلمه مورفر الى مدير السجن وقال له : ضع هذا الرجل مع أبيه واعلم
انك المسؤول عنهما إلى يوم السبت .

— لماذا الى يوم السبت ؟

— لأن تعذيبهما واستنطاقهما سيكون في ذاك اليوم . فأخبر مأمور التعذيب
كي يتأهب للساعة العاشرة من صباح السبت

— وسأخبر حفار القبور أيضاً كي يتأهب لظهر ذاك اليوم .

وقد أخذ مدير السجن بارداليان فجعل قيوده وأدخله إلى غرفة وأقفل بابها .
وكان الظلام سائداً في الغرفة فلم ير بارداليان أحداً فيها .

وفيا هو واقف لا يعلم أين يقيم شعر ان رجلاً يمانقه ويقول بلمهجة الحزين .
رباه ا.. أهدا أنت يا بني ؟ . أنت في هذا الجحيم .

فصاح بارداليان صيحة فرح وقال أبي !

— نعم إنه أبوك الشقي لقد قضى علينا القضاء المبرم هذه المرة وما أسفي على
نفسي فقد شبت من الحياة ولكفي أسف على شبابك الغض .

— لا بأس يا أبي وحسبنا ان نموت معاً .

فأجابه صوت من الخارج عرف بارداليان أنه صوت مورفر قائلاً :

— سيكون لكما ما تريدان وستموتان معاً فاشكراني لانكما لم تسجنسا في

غرفة واحدة إلا بفضلي وستعذبان بفضلي ايضاً عذاباً واحداً. والآن استودعكما الله إلى الساعة العاشرة من صباح السبت .

فهجم بارداليان الأكبر كأنه نسي انه سجين وقال له ويح لك ، أيها الشقي السافل .

وأما بارداليان الأصغر فلبث في مكانه .

وبعد ان ذهب مورفر وفرغ بارداليان الأكبر من شتائه عاد إلى ولده فأخذ بيده وقال له : تعال واجلس يا بني .

ثم ذهب به إلى فراش من العشب اليابس وجلسا عليه .

وقد روى كل منهما حديثه للآخر وهما موقنان ان الموت لا بد منه لأن بارداليان الأكبر بحث بحثاً طويلاً خلال إقامته في السجن فوجد ان لا سبيل إلى الفرار منه .

وأما بارداليان الأصغر فانه وضع رأسه بين يديه وقد اسودت الدنيا في عينيه فجعل يبكي بكاء الأطفال .

فقال له أبوه : ما بالك تبكي يا بني ، فهذه أول مرة أراك تبكي ، العلك ذكرت لويزا .

— كلا إن فراقها لا يبكييني بعد ان أيقنت من حبها ، لكنني أبكي صديقاً ستقتله أمه ثم قتل وهو يحسب انها تحبه حب الأمهات . .

- ٦ -

الملكة مرغريت

في الساعة الثامنة ، من صباح الاثنين الواقع في ١٨ أغسطس سنة ١٩٧٢ ، كانت أجراس الكنائس تقرر في كل باريس ، ولا سيما كنيسة نوتردام .

وكانت شوارع باريس قد ازدحمت بالناس على اختلاف طبقاتهم ، بحيث غصت بهم وبات يتعذر المرور .

وكان معظمهم يحملون البنادق وقد لبسوا الدروع والخوذ كأنهم سائرون الى حرب او كأن عاصمتهم قد هاجمها الأعداء .

فجمعت هذه الجموع تسير إلى كنيسة نوتردام وهم يصيحون: لتحيى الكنيسة ليحيى دي كيز !

ثم دوت المدافع من اللوفر إشارة إلى خروج الموكب الملكي منه . وذلك ان هذا اليوم كان يوم زفاف مرغريت أخت ملك فرنسا، الى هنري دي نافار .

وسار الموكب ، وكان في طليعته حرس الملك ، ثم المركبة الملكية وفيها ملك فرنسا وملك النافار ، ثم مركبة الملكة كاترين وابنتها مرغريت ، فمركبات امراء الأسرة الملكية ، يتلوها مركبات كبار النبلاء كدي كيز ودامفيل وغيرهما .

وفي مؤخرة الموكب نبلاء الهوكينوت فكانوا يسرون مطرقي الرؤوس وقد أوجسوا شراً من مظاهرات الشعب .

وكانت الشعب يهتف للملكة ويهتف للدوق دي كيز ، ولا سيما حينما مر الدوق فقد كانت أصوات الناس تطبق الفضاء وكلهم يصيحون بصوت واحد : ليحيى قائداً العام .

وظل الموكب سائراً حتى وصل الى الكنيسة فوقف فيها الملك مع كوليني وهنري دي نافار مع مرغريت .

وكانت الملكة كاترين واقفة بالقرب منها ، ويدها كتاب مفتوح كانت تتظاهر أنها تقرأ صلاتها فيه ، وهي مشرقة الوجه ، وقد ظهرت عليها علائم الفوز .

ولم يدخل الى الكنيسة من رجال الهوكينوت غير كوليني ، والبرنس دي كونديه ، وماريلياك .

أما كوليني فلأنه كان قد دخل بدعوة الملك .

وأما البرنس دي كونديه فلأن ملكة النافار أوصته قبل موتها ان لا يفارق ولدها لحظة ما زال في باريس .

وأما ماريلياك ، فلأنه كان يرجو ان يرى اليس ، فان الملكة كاترين قد جعلتها من نساء بلاطها ، وقد صاحبها الى هذه الحفلة جميع نساء البلاط .

وأما بقية رجال الهوكينوت ، وعددهم سبعمائة رجل ، فقد لبشوا خارج الكنيسة عرضة لانذار الشعب الزاخر الناقم .

وكان واقفاً ، يحسانب الملكة كاترين ، سالفاتي مندوب قداسة البابا . فأشارت اليه أن يدلو منها ، وقالت له ، وعيناها شاخصتان الى كتابها :

— أنت مسافر اليوم الى رومة ، اليس كذلك ؟

- هو ذاك. ولكن ماذا أقول للحرير الأقدس ؟ أقول له انك عقدت الصلح مع الهوكينوت وان ملك الهوكينوت دخل الى كنيسة نوردام دون أن يرسم علامة الصليب على وجهه ، وان ملك فرنسا عين عشرة آلاف جندي لحراسة الهوكينوت .

قولي يا سيدتي أهذا الذي تريدان أن أنقله الى قداسته أم أقول له أن الهوكينوت سيظفرون بفرنسا وأنت عاجزة عنهم .
- كلا بل تقول لقداسته ان الأميرال كوليني قد مات .
فارتعش سالفاتي وقال :

- ولكنني أرى هذا الأميرال بجانب الملك ، وليس عليه شيء من دلائل الموت

- كم يوم يجب ان تقضي في الطريق لتصل الى رومة ؟
- عشرة أيام .
- إذا علم ان الأميرال سيموت بعد خمسة أيام .
- وأي دليل على ذلك ؟
- رأس الأميرال الذي سأرسله اليك .
وكان هذا الراهب فظ القلب ولكنه لم يتألك عن الارتعاش لساعه مثل هذا القول الهائل في كنيسة .
وعادت الملكة الى الحديث فقالت :

- إذا قل لقداسته ان الاميرال قد قضي عليه وانه لم يبق أحد من الهوكينوت في باريس .

- سيدتي !
- بل قل لم يبق هوكينوتي في فرنسا .
ثم تركته وركعت أمام تمثال المسيح .
ولا ندرى إذا كان ركوعها استغفاراً عما ستجنيه من سفك الدماء أم

استنجداً بالله على ذبح أعداء الدين
وأما الراهب ، فإنه رجع الى موقفه ، وقد اصفر وجهه حتى بات
كالأموات .

ولم ينتبه أحد لمحادثة كاترين مع مندوب البابا غير ابتلتها مرغريت فكانت
تنظر اليهما نظرات تدل على الخوف والقلق .

ثم اغتنمت فرصة فركمت بجانب زوجها هنري ونبهته بكوعها وقالت
له : رأيت أمي تتحدث مع مندوب البابا ؟
فأجابها بصوت منخفض : كلا ، ولكنك رأيت ، وستخبريني بما
رأيت .

- هو ذاك فاعلم اني لا أرى حوالينا ما تقرر له المين فلا تفارقني لحظة مدة
هذه الحلقة .

- الملك خائفة ؟

- كلا ، ولكن قل لي ألا تشم شيئاً ؟

- إني أشم رائحة البخور .

- أما أنا فأشم رائحة البارود .

فنظر هنري الى امرأته نظرة قلق ، وقد فهم كل شيء ، ثم أطرق برأسه
كأنه يصلي وقال :

- أستطيع ان أكلمك بحلأ .

إني أرى كل ما بك يدل على الاخلاص لي .. نعم إني بت حذراً بما أراه
فهل أستطيع الاعتماد عليك .

- نعم ولهذا قلت لك وأقول لا تفارقني لحظة ما زلت في باريس ..

ثم ابتسمت وقالت : ومتى خرجنا من باريس أطلق لك الحرية في النهار ..
وفي الليل أيضاً .

- أتعلمين أيتها الحبيبة إني لم أعد أخاف غير أمر واحد .

- ما هو ؟

- هو اندعي بحبك .

فابتسمت مرغريت وقالت : إذا تقسم لي على الوفاء ما زالت في الوفور ..

- انك ، يا سيدتي من الطف النساء ، وما زلت قد تفضلت بحمايتي فلم أعد أخاف شيئاً ، وسأنام في الوفور قريبر العين ، فاني لم أنم فيه إلى الآن إلا نومة الذئب .

هذا ما كان يتحدث به العروسان ، بينما كان الكاهن يعقد لها عقد الزفاف .

حتى إذا تم العقد وانتهت الصلاة عاد الجميع إلى الوفور وهناك بدأت الحفلات الكبرى الباهرة ..

وقد تفرق الناس في القاعات .

فأخذت مرغريت بيد زوجها وذهبت به إلى بنايتها الخاصة في القصر ، فدخلت معه إلى غرفة وقالت له :

- هذه هي غرفتي وقد وضعت فيها سريرين كما ترى ، فهذا سريري وهذا سريرك ، وما زلت دائماً في هذا السرير فأنا المسؤولة عنك .

فاصفر وجه هنري وقال لها :

- بالله قولي ماذا تعلمين ؟ أتظنين انهم يحسرون ..

- لا أعلم غير أمر واحد وهو اني هنا في غرفتي ، ولا يحسر أحسد على الدخول اليها حتى الملك .

فأطرق هنري برأسه وقال في نفسه : أحق إنها لا تعلم شيئاً ، وإذا كنت آمناً على نفسي بفضلها فكيف أأمن على رجالي .

أما مرغريت فانها أخذت بيده وقالت له :

- هلم نعد إلى الحفلة كي لا يفتنوا لفتياننا ولا يكثروا الظنون .

- وماذا عسام يقولون أيتها الحبيبة ، سوى اننا نتناجى بأحاديث
الفرام ..
وعاد الاثنان إلى قاعات الحفلة فسمعا الناس يصيحون من الخارج قائلين
لتعبي الكنيسة .

فالتفت هنري إلى زوجته وقال :
- وأنا أيضاً. اهتف معهم هذا الهتاف ، قاني دخلت المرة الأولى إلى
الكنيسة فكان جزائي فيها امرأة فرنسا يجها لها وذكائها .
ثم نظر اليها محمداً وقال :
- ما عسى أن يكون جزائي حين أدخل اليها المرة الثانية .
فنظرت اليه مرغريت مثل نظرقه وقالت :
- من يعلم ؟

ثم قالت في نفسها : من يعلم ، فاما ينال طعنة خنجر ، وإما ينال
عرش فرنسا .

- ٧ -

دهاء الملكة

وكان الشعب قد تجمهر حول أبواب اللوفر ، واشتد صياح المتجمهرين حتى رأى حراس أبواب اللوفر ان يرفعوا الجسور من قبيل الحكمة ، كأنهم خافوا هجوم هذا الشعب الهائج على القصر .

ولولا كثرة الأمطار في ذلك اليوم لما علم أحد إلى أين كان يصل الهياج بذلك الشعب ، ولكن الناس اضطروا إلى الرجوع إلى منازلهم اتقاء لتلك الأمطار .

ومع ذلك فقد بقي نحو ثلاثة آلاف من أشدم تمصباً وتحمساً ، فظلوا واقفين أمام القصر غير مكترئين للزوابع والأمطار ، وهم يصيحون لتحيى الكنيسة وليمت الهوكينوت .

وكان الهوكينوت في اللوفر يسمعون هذا الصياح ويقلقون ، ولكن الذي كان يطمئن نفوسهم انهم كانوا في ضيافة ملك فرنسا .

ومثل هذا الملك العظيم ، وهو أعظم ملوك النصرانية يستحيل أن يخجل بواجبات الضيافة .

حتى انهم كانوا مصممين على الدفاع عن الملك ، إذ كان كثيرون منهم يعتقدون ان دي كيز وحده المحرك لهذه الفتن ، فانه قد يدفعه الغرور بما رآه ، من تحمس الشعب وهتافه له ، فيهاجم الملك نفسه بغتة لانتزاع

عرشه ...

وعلى ذلك فقد كانوا يعتقدون ان الملك مثال السلم ، وكان لهم ثقة لا حد لها بضيافته ، فيخافون من هياج الشعب على الملك أكثر من خوفهم منه على نفوسهم .

وأما الملكة كاترين فانها دنت من ابنها الملك فأخذت بيده وخرجت به إلى شرفة تطل على الجماهير وقالت له :
- يجب يا بني ان تظهر لشعبك .

فلما برز الملك من المشرف للناس المتجمهرين ، صاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين :

- ليعحي قائدنا العام .. ليعحي الدوق دي كيز . ليمت الهوكينوت .
فذهر الملك لهذه الأصوات وقال لأمه . ما هذا ؟
قالت : إنك تسمع ما يقولونه يا بني ، فاذا تأخرت عن العمل ، عمل الدوق دي كيز .

فارتعش الملك من الغضب والذعر واتقدت عيناه بوميض نار وتراجع مضطرباً إلى القاعة التي كان فيها ، فرأى دي كيز وكوليني يسيران ويتحدثان بأحاديث الحلة على دوق البيا .

فنظر إليها الملك نظرة المجانين ، ثم هاج به ذلك الداء العصبي فجأة ، فجعل يضحك ضحكاً عالياً شأنه كلما بدأت النوبة العصبية .

وأما كاترين فانها تظاهرت انها لم تسمع ضحكته ، ولم تشعر ببده نوبته فانصرفت ببطء ، وأخذت تسير في القاعات فتتنحنى لها الرؤوس احتراماً وخوفاً وهي باسمعة طلقة الهيا .

وكانت كلما مرت بامرأة من نساء بلاظها قالت لها كلمة واستمرت في مسيرها .

إلى أن لقيت جميع نساءها ، فمادت إلى غرفتها ، تصحبها اليس

دي ليكس .

وهناك جلست في كرسيها وقالت لأليس .

- انك لا تبرحين اللوفر اليوم يا ابنتي بل لا تفارقينني .

- ولكني يا سيدتي ..

- نعم .. اني عارفة بما تريدن ان تقوليّه فانك واعدت ماريلياك على

الاجتماع به في الساعة الثامنة من هذا المساء .

فنظرت اليس إلى الملكة نظرة الانذهال .

فهزت الملكة كتفها وقالت :

- أتمحسبن اني لا أعلم كل شيء يا اليس ، ولكن إذا لم يكن بد من

فراقنا فسأخبرك الحقيقة بتمامها .. وهي أن لورا كانت تخبرني بكل ما يحدث عندها ..

ان هذه المرأة المعجوز التي تثقين بها كل الثقة كانت ترسل الي تقرير

كل يوم عما تفعلين ، وعن كل ما يجري في منزلك .

فأحذري يا اليس في المستقبل واحسني اختيار خدمك .

فدعرت اليس ذعراً شديداً ولم تحب بحرف .

وعادت الملكة الى الحديث فقالت :

- إنها خائفة ، يا اليس ، فاطردها منذ الغد ، ولنعد الآن إلى ما

كنا فيه .

فقد قلت لك اني عارفة بانك مواعدة ماريلياك على اللقاء في الساعة

الثامنة وانه سيبوح لك بسر لم يعد يطبق كتمان .

أما هذا السر فسأخبرك به أنا وهو انه يريد أن يسير بك الى كنيسة سانت

جرمين ، أتدرين لماذا يا اليس ؟

- كلا يا سيدتي ..

- اني كنت أحسبك أشد تبصراً فاعلمي إذا اني أعددت كل المعدات

لزواجك بالكونت هذه الليلة .
وكانت الملكة تتكلم وهي تتكلف سلامة النية وحسن الطوية ، بحيث
يتعذر معرفة ما وراء نياتها من مقاصد الشر .
وفوق ذلك فكيف يخطر لأليس انها كاذبة فيما تقول وهي قد وعدتها
باتمام عقد هذا الزواج .
وقد احمر وجهها في البدء ، ثم اصفر وخفق قلبها خفوقاً شديداً فقالت
والدمع يحول في عينيها .
- وذلك الكتاب يا سيدتي ؟
- الكتاب .. ماذا تعنين .
فاضطربت اليس اضطراب رجاء وقالت :
- لقد وعدتني يا سيدتي أن يرد الكتاب الي هذه الليلة .
- تريدن أن تقولي ان بانيكارولا يجب أن يرده اليك الليلة لأنني أعطيته
ذلك الكتاب ولأنه صفح عنك .
فاعلمي الآن انك في الساعة الحادية عشرة ترين الماركيز بانيكارولا ، وعند
انتصاف الليل يأتي ماريلياك وأنا أتولى إخباره .
فشمعت اليس كأنها أصيبت بدوار ، وخامر قلبها الشك في قصد الملكة
من جمعها بالراهب وماريلياك في محل واحد ، وفي ساعة واحدة .
ثم قالت في نفسها :
ترى أعلم الراهب بهذا الزواج وبلغ من كرم أخلاقه انه يدعها تتزوج من
تجنبه وتعيش معه سعيدة .
أما الملكة فانها ابتسمت وقالت لها :
- كيف ذلك يا اليس ألا تشكريني .
- وأسفاه .. يا سيدتي ، إنك ترين اضطرابي فاني لا أعلم ، الأسر
أم أخاف .

— وما تخافين يا ابنتي .. نعم انك تخافين أن يجتمع العاشقان ، وأن تبدر
بأدرة من بانينكارولا أمام ماريلياك .. اطمئني يا اليس فقد اتخذت ما يجب من
الاحتياط وهما لا يجتمعان .

— كيف ذلك يا سيدتي ، ائدائيت إلى ..
— اني أحب أن أراك سعيدة مع الكونت .
— سيدتي ان حياتي لا تكفي لظهار امتناني .
— أبقى حياتك لك يا اليس فاني أريد أن تعيشي سعيدة ..
ولكن ليس هذا كل ما أبتغيه يا ابنتي ، فقد كلتك بحرية ، وأريد أن
تتكميني بمثلها ..
— تفضلي يا سيدتي بسؤالي عما تريدن ، فلا تخرج كلمة من فمي الا وهي
صادرة من قلبي .

— ماذا عزمتم أن تصنعي بعد الزواج .. أتقيمين مع زوجك في باريس
أم تهرحانها ..

فحسبت اليس بعد هذا السؤال أنها عرفت سر الملكة وأدركت كل
قصدها ، فانها كانت تعلم ان الكونت ماريلياك ابن الملكة ، وقد علمت هذا
السر يوم طردها ملكة النافار .

ولكنها بالفت بكتان هذا السر الهائل حق عن ماريلياك نفسه ، وهي
تعلم انه يعرفه أيضاً .

وذلك لأنها كانت واثقة أن الملكة إذا علمت إفشاء هذا السر قتلت إبنتها
لا محالة فكانت تقول في نفسها :

إن الملكة تعلم ان ماريلياك ولدها ، وتعلم اني لا أستطيع أن
أعيش في باريس ، كي لا يفتضح أمري ، فهي واثقة ، اني أريد ابعاد
ماريلياك عن باريس ، ولذلك أرادت تزويجي به وجعلت هذا الزواج سراً
في منتصف الليل .

هذا ما جال في فكر الجاسوسة التي تعودت أن تقرأ افكار خصومها
بسرعة التصور ..
وحسبت ان الملكة ستكون على ذلك حليفة لها في ابعاد ماريلياك من
باريس ، فقالت لها :
- هو ذاك يا سيدتي فقد كنت أريد مخابرة ماريلياك في هذه الشؤون
ولكنني كنت أنتظر اوامر جلالتك .
- لا حاجة إلى تلقي اوامري فاني احب ان تعلمي من عند نفسك فقولي
بماذا تشيرين على ماريلياك .

- اشير عليه بمبارحة باريس إثر الزواج .
- أحق ما تقولين ؟ اتريدين مفارقتي .
- اسأل جلالتك العفو فانها تعرف نيأتي في هذا الشأن .
- إذا لا بد من السفر ، ولكن متى تسافرين .
- اسافر الليلة إذا استطعت يا سيدتي .
فارتعشت كاترين إذ لم تكن تشك بصدق اليس ، ولبثت مطرقة
تفكر ، وربما كانت تفتكر تلك الساعة في العفو عن ولدها ، إذ لم يعد
فائدة من قتله .

ثم التفتت إلى اليس وقالت لها :
- في هذه الليلة ، عند انتصاف الليل تنتظر كما مركبة ، عند باب
الكنيسة وسأصدر الأوامر إلى حراس باب بيسي كي تستطيع مرصفتكما
اجتياز باريس .
وعندما تبحر حانها ، تذهبان توأ إلى ليون ، فلا تتوقفان قبل
الوصول اليها .
ثم تذهبان إلى إيطاليا ، فتقيان في فلورنسا ، وقتنظران تعليماتي
الأخيرة فيها .

أتعدينني ان تفعلني ما قلته لك ؟

فركمت اليس امامها وقالت لها : بل اقسم لك يا سيدتي .

- حسناً ، وإذا خطر لزوجك يوماً ان يعود إلى فرنسا ، اتعدينني ان تثنيه عن عزمه ، وإذا أصر على الحضور اتعدينني ان تخبريني من قبل .
- اقسم لك يا سيدتي اننا لا نعود إلى فرنسا .
- إذا انهي يا ابني فائك ستجدين في المركبة هدية الزفاف وعندما تصلين إلى فلورنسا تصل اليك حبة قصر لي فيها .

لا تشكريني ، يا اليس ، فقد خدمتني بوفاء يستحق فوق هذه المكافاة .

فبكت اليس وقالت : اني لقيت كثيراً من العناء يا سيدتي في باريس ، حق اني لو كنت فقيرة معدمة لفضلت مبارحتها ، أما الآن وقد قررت مبارحتها مع من أحب ، فلا أجد هناك بعد هذا الهناء ، حق اني خفت هذه السعادة وخشيت أن أكون حاملة .

- اطمئي يا ابني واصفي الي ، فإني أريد أن أقول لك أموراً خطيرة أيضاً ، وهي خير دليل على ان ثقي بك لا تقف عند حد .
- إن أسرار جلالتك مقدسة عندي .
- نعم فأنت من خير أهل الكتان ، ولكن ما أقوله لك هذه المرة لا يختص بأسرار السياسة والدين ولولا ثقي بك المتناهية لما بحث لك بهذه الأسرار الخطيرة .

ثم نظرت اليها محدقة وقالت :

- إنني ارتكبت هفوة في حياتي يا اليس ، أي هفوة بصفتي امرأة ، وأما بصفتي ملكة فان حياتي فيها فوق الهفوات .
- ولكني أريدك وضوحاً ودلالة على حسن ثقي بك أخبرك يا اليس أن شارل وهنري وفرنسوا ومرغريت ليسوا وحدهم أولادي .

فلم تظهر اليس شيئاً من علائم الدهشة كأنها احتفظت بتلك الدهشة لمسا
ستعلمه من قنمة الحديث ..

أما كاترين فأنها حددت بها كأنها تريد أن تخترق بنظراتها أعماق
نفسها وقالت :

- لي أيضاً ولد خامس ، وهذا الولد بعيد عن درجات العرش .
فقلت اليس بانذهال شديد كيف ذلك يا سيدتي هل أبعد هذا الولد
عن جلالتك .

- ليس هذا يا اليس ، فإن هذا الولد ولدي ، ولكنه ليس ولد الملك ..
فاستجمعت اليس كل قواها حتى تمكنت من إظهار الانذهال
العظيم وقالت :

- كيف هذا يا سيدتي ، اقتداني جلالتك إلى الاباحة لمثلي بمثل هذا
السر الهائل .

- نعم .. انه سر هائل كما قلت يا اليس فاذا اشتهر فضحت كاترين
العظيمة أقبح افتضاح وجاءني هذا الولد يطالبني بحقوقه ، اليس هذا الذي
تعنيته يا اليس ..

- كيف أجسر يا سيدتي على ان يخاطر لي هذا الخاطر .

فوقفت كاترين وأخذت يد الجاسوسة بين يديها كأنها تريد أن تسهر غور
أفكارها بالنظر واللمس فقالت :

- إن هذا الولد حي يا اليس وخطره يتهدد ملكتك .
وستعرفين الآن لماذا كنت أعتبر الكونت ماريلياك من أعدائي ..

ولماذا كنت أبالغ في مراقبته ، حتى اني جئت به إلى البلاط كي
أراقبه بنفسي ..

فارتعدت اليس واصفر وجهها ، وكاترين تراقب اضطرابها واصفرارها .
فقلت لها يوجد يا اليس رجل يكون أعظم شاهد على هفوتي ،

وهو ولدي .

أما هذا الولد فإن ماريلياك يعرفه .

- لا صحة لذلك يا سيدتي .

- كيف تنكرين صحته .. الملك تعلمين شيئاً من هذا السر ؟

- كلا .. كلا يا سيدتي ، ولكنني أقسم لك ان ماريلياك لا يعرف

شيئاً ..

- كيف عرفت ذلك ..

- لو كان ماريلياك عالماً بشيء من هذا لعلته أنا أيضاً ، فإنه لا يكتف

عني أمراً من أموره وأمور سواه .

وكان جواب اليس مقنعاً مفجعاً ، حتى ان كاترين تركت يدها وعادت إلى

كرسيها فتمعننت هنيهة وغيرت خططها فقالت :

- نعم ... إني كنت أكره الكونت دي ماريلياك ، ولكنني لا

أكرهه الآن .

ولا تحسبي يا اليس اني عفوت عنه من أجلك ، بل لأنني وثقت انه لم يقل

كلمة عما يعلمه من ذلك السر الهائل ، ثم لأنني اطمأنيت حين وثقت بأنك

ستبرحين به باريس .

فاطمأنت اليس وقالت في نفسها :

لقد ظهرت الحقيقة الآن فان كاترين تحسب ان ديودات يعرف ولدها

وتعهد إلي أن أذهب به خارج باريس ، ولكن ماذا يكون لو علمت أن

ديودات نفسه ولدها .

ثم عادت كاترين إلى الحديث فقالت :

- وأسفاه يا ابنتي . إن من يبحث في أعماق نفسي يعلم حقيقة شقائي فان

هذا الولد الذي أخافه لأنه يهدد شرفي ولا أعرفه ، أبذل كل مرتخص وغال

كي أراه ولو مرة ، وأنت لا تقدرين عواطف الأمهات قدرها يا اليس .

فاضطربت اليس وقالت في نفسها :

لقد أصابت فيا تقول فاني سأسافر واتحلى عن ولدي ..

وقالت كاترين : لقد كرت الشهور وتوالت الأعوام وانا حزينة قانطة
أبحث عن هذا الولد الذي أخافه فلا أجده .. اني أحبه يا اليس حب عبادة
دون أن أعرفه ، وما تمنيت إلا أن أراه ولو مرة قبل موتي فأباركه وأجعله
من أسمى البشر ، ولكفي أبحث عنه وأأسفاه فلا أجده له أثرا .

ثم بككت ولا ندرى من أين اتت بهذه الدموع وقالت :

— أوجد شقاء أشد من شقاء أم تبحث عن ولدها الذي تحبه بالسر دون
أن تجد هذا الولد فتقول له كلمة حنو وتغزي به عن هذا الفراق ..
إن هذا شديد لا يطاق ، ومع ذلك فلا يزال لي بقية رجاء لأنني معتمدة
عليك يا اليس .

— تعتمدين علي أنا يا سيدتي ..

— نعم . فاني واثقة من ان ماريلياك يعرف إسم ولدي .

— إذا ..

— إذا ، أريد منك حين تصلين مع زوجك إلى فلورنسا ان تنزعي منه
هذا السر ، وهذا آخر ما أسألك إياه يا اليس فان ملكتك قوت وهي تباركك
لأنها ستجد ولدها بفضلك .

فأصفر وجه اليس وخدعت ببكاء كاترين ، فكان مثلها في تلك الساعة مثل
المبارز فقد سلاحه .

أما كاترين فإنها تمكنت بدهائها ، وتكلف اليأس وذرف الدموع من
إغواء الجاسوسة ، فأغضت عينيها وقالت :

— ربه من يعلم إذا كنت أجده هذا الولد الذي أبحث عنه عيشا .

فصاحت اليس قائلة :

— سيدتي اني واثقة من انك ستجدينه .

- الملك تريدن تعزيتي ، يا اليس ... ألم تقولي إنك لا تعلمين شيئاً .
- سيدتي ، أقسم لك انك سترين ولدك .
- وأسفاه ، أأنت واثقة مما تقولين ؟
- كل الثقة .

فأطبقت كاترين عينيها لإخفاء لاضطرابها وغضبها وقالت في نفسها .
لقد اعترفت الآن أيتها الشقية .. نعم لقد كان أعدائي ثلاثة ، وهم
ملكة النافار وماريلياك واليس ، وقد ماتت ملكة النافار وجاء دور
اليس ... وولدي .

ثم فتحت عينيها ونهضت فمأانقت اليس وقالت :
- إني واثقة بقولك يا ابنتي ولا ريب عندي انك ستجدين ولدي ..
والآن الى اللقاء ، فسنجتمع في المساء ، وستبقين في اللوفر إلى أن ارسل
من يأتي بك .

ثم خرجت وقد تركت اليس في الغرفة يكاد الفرع يقتلها ..
فبكت سروراً وقالت : ديودات ... لقد بسم لنا الدهر ومضت أيام
الشقاء ..

- ٨ -

نساء الملكة

مضى اليوم الأول من حفلة زواج الملك هنري دي نافار ، وكان السرور عاماً شاملاً ، فلم يحدث في خلاله ما يكدر صفو المحتفلين .
وقد كان الهدوء سائداً في الشوارع ، فامتنع ذلك الزحام وبطل الوعيد .
وجعل أعيان الكاثوليك في الوفرة يظهرون كل تودد وبجالة لأعدائهم الهوكينوت ، كأنما قد صدر اليهم امر سرى يقضي عليهم بهذا التلطف .
ففي الساعة العاشرة من تلك الليلة كانت كنيسة سانت جرمين مظلمة لا يرى اليها من الخارج أمراً للنور .
ومع ذلك فقد كان ينبعث من هيكلها نور ضعيف .
ولو تيسر لأحد الدخول إلى الهيكل في تلك الساعة لرأى امراً غريباً .
ولكن الدخول كان متعذراً إلى تلك الكنيسة .. فقد كانت مقفلة الأبواب .
وفوق هذا فقد كان عند كل باب من أبوابها ثلاثة أو أربعة من الحراس مخبئين لا ترام الميوت .
وذلك انهم كانوا واقفين وراء تلك الأبواب بأمر خاص ، فلا يفتحونها إلا لمن بطرقها طرقة معينة متفقاً عليه من قبل .
فمن طرق الباب بهذا الشكل الخاص فتح الحراس له فدخل دون ان

يعترضوه او يحاولوا ان يعرفوه .
 وكان من واجبات هؤلاء الحراس ان يقبضوا على كل من يحاول الدخول
 دون ان يقرع الباب بالطريقة السرية
 وكان يقف بعيداً عنهم عند مدخل الكنيسة امرأتان تستقبلان كل داخل
 فتدخلان به إلى الهيكل .
 اما هذا الهيكل الذي ذكرناه فقد كان فيه خمسون فتاة ..
 وكن جالسات بشكل نصف دائرة على خمس درجات من درجات
 الهيكل ، ومن يتحدثن بأصوات منخفضة ، فيحدثن من اصواتهن لفظ يشبه
 لفظ المصلين .
 وكان يعترض هذه الأصوات من حين إلى حين ضحك وقهقهة .
 وكان جميع هؤلاء الفتيات في مقبل الشباب فإن أكبرهن لم تكن تتجاوز
 عشرين عاماً .
 وكلهن جميلات .. فكان يزيدن تأنيهن بالملابس جمالاً على جمال ..
 بحيث كان يجتمع تحت قبة ذلك المذبح الجمال كله ، على اختلاف
 أنواعه .
 ولكن .. لم يكن على وجوه أولئك الفتيات ، شيء من علائم
 الطهر والحياء التي تزدان بها وجوه العذارى ، بل كانت عيونهن تدل على
 المرأة والقحة .
 وكن يتحدثن كأنهن في ملعب تمثيل ، غير انهن كن يحترمن ذلك المكان
 المقدس حين يندفعن بالضحك ، فينقطعن عنه فجأة ويرجعن إلى ما كن عليه
 من الكلام هماً .
 وكانت كل فتاة متقلدة خنجراً في حزامها .
 وكان هذه الخناجر كلها كانت مصنوعة في مصنع واحد ، فقد كانت
 أحمادها جميعها مغطاة بالخمير الأسود .

ولم تكن من خناجر الزينة والتبهرج ، بل كانت سلاحاً قاتلاً يشبه بمضائه اسلحة الاصوص

وكانت قبضة كل خنجر مصنوعة على هيئة صليب ، وقد زينت بياقوتة لماعة ، فكانت هذه البواقيت تهرق في تلك الكنيسة وتنفذ منها حين تنعكس عليها أنوار المصابيح أشعة حمراء .

فلما دقت الساعة الغاشرة خفتت الأصوات فجأة وساد الصمت في ذلك الهيكل ، ثم التفتت الفتيات إذ سمعن صوت مرور وصحن بصوت واحد :
هوذا الملكة !

أما الملكة كاترين ، فأنهسا تقدمت ببطء ، حتى وصلت إلى موضع الفتيات .

وكانت كل ملابسها سوداء وقد وضعت على وجهها برقع الحداد ووضعت على رأسها تاجاً ملكياً من الذهب .
ثم سارت بلىء الجلال إلى المذبح وركعت
فركع جميع الفتيات ركوعها .

وبعد ذلك نهضت وصعدت ثلاث درجات من درجات المذبح وأزاحت النقاب عن وجهها وجعلت تجمل نظراتها النافذة بين الحضور .
فكان الفتيات ينظرن إليها نظرات خوف واحترام ، وقد كسبرت تلك الملكة في عيونهن .

في حين ان وجهها في تلك الساعة كان يشبه وجوه الأموات لاصفراره ، ولم تكن تبدر علائم الحياة إلا بين عينيها .

وكانت كاترين تشير الى الفتيات إشارات بطيئة سرية ، وقد رقت موقف كاهن يصلي صلاة الأموات وسرت لما رأته من خوف الفتيات وعلمت ما لها عليهن من النفوذ والتأثير .

فقد كان نساء هذه الملكة يخضعن لها كل الخضوع ويحترمنها كما يحترم

. المؤمن معبوده .

على انهن قد جمعن كل صفات الشر ، إذ لم يكن يدخل في خدمتها غير كل بارعة في التجسس والاحتتيال .

وكانت كاترين تعز بهن وتدعوهن جيشها ، إذ كانت تستخدم جمالهن ودهاءهن للفتك بمن تشاء من أعدائها .

والغريب في امرهن انهن كن شديدات التمسك بالدين على اتيانهن كل يوم ما يحرمه الشرف والدين من الفظائع ، وكان لهن كاهن واحد يعرفهن ، وهو كاهن الملكة ، فتعرف منه كاترين كل أسرار جيشها .

أما كاترين فانها نظرت اليهن تلك النظرات الثاقبة وقالت :
- ايتها الفتيات لقد دنت الساعة التي تنقذن فيها المملكة وتطردن شيطانها ، ويكون لكن الفخر المجيد .

اني أردت عقد الصلح مع الهوكينوت فعاقبني الله عن ذلك بأنه كاد يفجمني بكن وانتن كل من أحببته في هذا الوجود .

فدعرت الفتيات وجعلن ينظرن اليها نظرات الخوف والاضطراب ، وعادت كاترين إلى الحديث فقالت :

- نعم ، انه كاد يفجمني بكن ، لأنكم قوتي التي أقاتل بها أعداء الدين ، وقد علم أولئك الأعداء انكم سيف النعمة المسلول على رقابهم ، فكادوا لكم كيداً عظيماً ، وعولوا على خنقكم جميعاً في ليلة واحدة .

نعم . فلأنهم اعدوا رسائل هذا القتل الذريع ، فعينوا خمسين جلاداً من الهوكينوت وقرروا أن يقتلوا في ليلة الأحد نسائي الأمينات الوفيات وهن خسون .

فوضعت الفتيات أيديهن على خناجرهن وقد برقت أعينهن بأشعة غضب هائل أزال جمالهن الفضاح وأحاله إلى قبح الوحوش المفترسة وجعلن يشتمن شتائم لا يقولها غير من ساءت تربيته من الرجال .

ولكن كاترين أشارت إشارة فسكن الهياج وسادت السكينة وأصغين كلهن لما تريد أن تقوله الملكة .

وعادت كاترين إلى الحديث فقالت :

— نعم .. إن الله أراد معاقبتي لأنني أردت مسالة الهوكينوت ، وقد كان عقابه شديداً هائلاً ، فإن التي خانتني كانت إحدى نسائي التي طالما وثقت بها كما أتق بنفسي .

وقد كان بين الهوكينوت رجل أعطف عليه بعض العطف ، وكان بينكم فتاة اميل اليها كل الميل .

إن تلك الفتاة هي التي خانتني وأرادت قتلكم ..

وذلك الرجل هو الذي دبر تلك المكيدة وأعد رسائل المذبحة ولو نجحت لكنت الآن وحدي لا ناصر لي ولا معين .

وكانت الملكة تتكلم بصوت تدل نبراته على الحزن لا على الغضب ، وقد جمدت دماء الفتيات في عروقهن وجعلت كل منهن تسائل نفسها فتقول ترى من عسى أن تكون هذه الخائنة .

وقد صمتت كاترين هنيهة ثم قالت :

— إن هذه الفتاة التي وثقت بها ، وهذه الخائنة التي أرادت قتلكن جميعاً وهذه السافلة التي جازتني جزاء سنار تدعى اليس دي ليكس . فصاحت الفتيات بصوت واحد .. النافارية الحسناء .

ثم ثارت عواصف غضبهن فجردن الخناجر وعدن إلى الانذار والشم القبيح ، وجعلن يهزرن تلك الخناجر المجردة كأنما اليس قد مثلت لهن .

وصبرت كاترين إلى أن هداً ثأر هذا الهياج فقالت :

وأما الرجل الذي دبر هذه المؤامرة ، وأراد ذبحكن ذبح الأغنام فهو ذلك الهوكينوتي المنافق المحتال المدعو الكونت ماريلياك . صبراً يا بناتي ولا تضطربن فاني بمثابة أمكن ، وأنا ساهرة عليكم واسمعن

ما عزمت عليه .
إنكن حين تخرجن من هنا تذهبن جميعكن إلى قصري الجديد وتلبثن فيه
إلى الأحد .

وحذار ان يخطر لاحداكن مبارحة القصر ، فانها تقتل قتلاً ذريعاً
دون اشفاق .

على إنكن سترين ماذا أصنع حين تكون ديانتنا مهددة بمثل هذه الأخطار
وحين يجب إنقاذ بناتي الأمينات .
وليس هذا كل ما أريد قوله فان اليس دي ليكس والكونت ماريلياك
سيكونان هنا بعد ساعة وسأسلهما لكن .

ولكن .. سيحضر ايضاً راهب من خير رجال الله عرف هذه الخيانة ،
وهو سيتولى عقاب الخائنين ، فاذا عاقبها هذا الكاهن الجليل فكانتسا الله
قد عاقبها .

إن هذا الراهب هو بانتيكارولا وهو سيفضربها الضربة القاضية .

أما أنتن ، فتلبثن وراء الباب الكبير ، حين التنفيذ ، بحيث لا
يراكن أحد .

ولكن إذا رجفت يد الراهب ، او دافع الهوكينوتي واليس أشير لكن
إشارة فتسرعن بالهجوم وتقتلن الخائنين شر قتل .

أما هذه العلامة فهي اني أرفع بيدي هذا الخنجر وأقول : « هذا ما
يريده الله » .

فرفعت الفتيات خناجرهن كما فعلت الملكة وصحن جميعهن بصوت واحد
« هذا ما يريده الله » .

فرفعت كاترين عينيها إلى السماء وقالت :

— أيها الرب العلي القادر هوذا سلاحك بأيدينا لمعاقبة أعداء الدين فبارك
الهم هذه الخناجر فقد جعلتها لهذا الغرض على هيئة الصليب المقدس .

فأطرقت الفتيات برؤوسهن ، ونزلت الملكة عن درجات الهيكل ،
فأطفأت المصابيح وقوارت في ظلمات تلك الكنيسة ، فصعدت إلى لوج
وأقامت فيه .
وأما الفتيات فلأنهن ذهبن إلى المكان الذي أمرتهن كاترين ان يذهبن اليه
فجردن خناجرهن وأقمن ينتظرن فيه .

- ٩ -

الراهب

بينما كانت الملكة جالسة في لوجها وهي قائمة في مهامة التفكير لا تعي
شيئاً دخل رجل إلى ذلك اللوج فلم تنلبه لدخوله ولم تلتفت .
وقد دنا الرجل منها وقال : سيدتي ..
فلم تجب ولم تلتفت .
فلمس كتفها وقال : كاترين .
فالتفتت عند ذلك وقالت : اعددت كل شيء يا رينيه .
فضم رينيه الفلكي يديه شات المتوسل وقال :
- انه حكم هائل يا سيدتي ، الا تعفين عنه ..
رحماك يا ملكتي واشفقي على ولدي ، بل اشفقي علي ، انا الذي احببتك
إلى ان اسفك دمي في سبيلك .
وبعد فماذا تضرك حياته ما زال بعيداً عنك ، لا يعود إلى باريس .

فوقفت كاترين وقالت :

— اقسم بالله وهو يسمعنا يا رينيه اني كنت اريد انقلاذه اليوم ، ولكني استنطقت اليس وعلمت الحقيقة الهائلة .

إن ديودات لا يعلم فقط انه ولدي ، ولكنه يفتخر بذلك ، فان اليس تعلم انه ولدي وكيف عرفت هذا إلا منه ، بل من يعلم ما يصنع الاثنان بهذا السر الرهيب إذا تركتهما هربان .
كلا يا رينيه ان الشفقة في غير موضعها ضعف ، ولم اجد سبيلا للرحمة في هذا الموقف الخطير .

وبعد فأنت قضيت عليه قبلي ، ألم تره ميتاً وقد خرق صدره بمنجبر ؟
الم يظهر لك خياله على هذا الشكل هناك في البرج ؟
الم يكن ذلك انذاراً له من الله ؟

وإذا كان الله قد قضى عليه يا رينيه ، فأية حيلة بقيت لنا في إنقاذه ؟

... لم يكن ذلك قضاء الله يا سيدتي ، ولكنه الخوف مثل لي هذا الخيال ..

رحماك يا سيدتي ، إصفحي عنه وانا اسافر معها وراقبها .

... كفى يا رينيه واسكت ، فانهم يطرقون الباب بالعلامة المتفق عليها .
— كلا بل هو صوت الله يلعننا .
— قلت لك اذهب وافتح الباب .

فرجع رينيه امام الملكة وقال :

— كاترين انه من لحك ودمك اتسفكين دمك بيدك ، الم يبق اثر للرحمة في قلبك .

فدننت الملكة من رينيه وقبضت على ذراعه بيد من حديد ، كأنما اصابته نوبة عصبية ثم انهضته وقالت :

- ويح لك ايها الشقي ، اريد ان اضحي بشرفي ومجدي ومملكتي وسلطاني
 لإجابة لصوت قلبك الضعيف .

إحذر لنفسك فانك منهم بالسحر والقتل وانك لم تبق حياً إلا من فضلي ،
 فاذا تخليت لحظة عنك وردت عليك الشكايات من كل صوب فقبض عليك
 وحوكت وعذبت وقتلت .

فلم يحبس رينيه بشيء ، بل رفع عينيه إلى السماء وقد اغرورقت
 عيناه بالدمع .

فأمرته قائلة : اذهب وافتح الباب .

فامتثل مكرهاً وذهب إلى الباب الذي دلت عليه الملكة وفتحه .

فظهر له راهب .

وكان هذا الراهب قد ستر عينيه بقبعته .

فأزاح الستر ونظر إلى رينيه فدعر لمنظره المضطرب وسأله قائلاً : إلى
 أين يجب ان اذهب .

فأشار رينيه بيده إلى حيث كانت الملكة وقال له :

- اذهب اليها ايها الجلاد فانها تنتظرك .

فارتعش الراهب إرتعاشاً شديداً لما سمع .

وخرج رينيه من تلك الغرفة وهو يشبه المجانين لما قولاه من اليأس .

ولم يكن يوجد نور في الغرفة فلم يستطع الراهب ان يتبين وجهه .

ولكنه سمع منه تنهداً عميقاً اخفاه ذلك الرعد القاصف .

ثم ابرقت السماء اثر ذلك الرعد ، فرأى الراهب ذلك المنكود خارجاً

من الغرفة وقد قبض بيده على شعره كأنه يريد ان ينتزعه من اليأس .

فأقبل الراهب عندئذ الباب ومشى الى الملكة .

وكانت الملكة قد رآته فلم تتقدم للاقائه ..

حقى إذا دنا منها قالت له :

- يسرني أيها المركيز ان أراك آميناً على المواعيد فأهلاً بك .

فالتفت الراهب إلى جهة الباب الذي خرج منه رينيه وقال في نفسه : لماذا دعاني هذا الرجل جلاداً .

أما الملكة فقد قالت له :

... لقد وفيت بوعدك يا مركيز فإن باريس ثائرة هائجة بفضلك بعد ان كشفت الرماد عن نارها المحبوة .

وأنا قد وفيت بوعدي أيضاً ، أيها الأب المحترم ، فسترى بعد هنيهة من تحبها .

فارتعدت فرائص الراهب وقال : اليس !

- نعم فهي لك فخذها أيها المركيز إني منحتك إياها . وأما خصمك فيها فقد أذنت لك بقتله وهذا هو السلاح .

ثم دفعت للراهب ورقة مطوية .

فأخذها الراهب بيد ترتجف وقال : « مكتوب اليس » ...

لقد فهمت الآن كل قصدك فأنت عظيمة هائلة ... نعم فلم يخطر لي هذا الانتقام الذريع في بال ... نعم إنه يحبها بل هو يعبدها وهذا الكتاب ينفذ كالسهم إلى قلبه ويكون أسرع في قتله من رصاص البنادق .

أشكرك يا سيدتي كل الشكر فقد مهدت لي خير سبيل للانتقام .

- إذا نحن متفقان وستطلع ماريليناك على الكتاب .

- نعم ..

- وستحملة على قراءته .

- دون شك .

وعندها تذهب باليس فتعزها إذ تكون في حاجة إلى العزاء ... وهي ستصدق كل ما تقوله لها فقد سبرت غور نفسها فأيقنت أنها لا تكرهه ، ويوجد

على الباب مركبة تنتظرك ، أرايتها يا مركيز ؟
- نعم ولكن هو ... ماريلياك أيجزر إلى هنا .
- دون شك .

- أيجزر في وقت حضورها ... ولماذا يا سيدتي ؟

- إنه سيجزر وهذا كل ما تفيد معرفته ، فإذا رأيت أنه يريد أن يحتفظ
بأليس بعد أن يقرأ كتاب جريمته وبعد أن يعلم أنها كانت أمّاً وهو يعتقد أنها
نقية عذراء وإذا رضي أن يتزوجها وهي ملوثة بعار الخيانة ، وإذا تغلب الحب
على شرفه فنسي فجورها كما تغلب الحب على قلبك فنسيت خيانتها .
- سيدتي ، سيدتي !

- يجب على العاقل أن يتوقع كل أمر ، فقل لي ماذا تصنع إذا أراد ماريلياك
بعد كل ذلك أن يحتفظ بأليس ويأخذك فيها .

فلم يجب الراهب ولكنه أزاح وشاحه المريض فظهرت من تحته تلك الملابس
البديعة التي كان يلبسها وهو مركيز .
وظهر في حزامه خنجر هائل ، فاستسلم الراهب وقال : هذا هو الحكم
بيني وبينه .

- ١٠ -

الخطيبان

ثم أعاد الراهب وشاحه كما كان وركع فجعلت الملكة تتفرس في وجهه هنيئة ثم مشت إلى الباب الذي دخل منه .

وكان الليل قد انتصف في تلك الساعة ، فسمعت الملكة صوت مركبة قادمة .

وقد وقفت هذه المركبة عند باب الكنيسة ونزل منها ثلاث نساء .

وكانت إحدى هذه النساء اليس دي ليكس وهي مصفرة الوجه ، مرتدية بلباس الزفاف البيضاء .

فتوقفت هنيئة عن الدخول كأنها تتردد ثم دخلت .

وأما المرافقان اللتان كانتا معها فقد عادتا إلى المركبة فسارت بهما .

ودخلت الجاسوسة إلى الكنيسة فوقفت حائرة مضطربة ، إذ لم يكن يوجد فيها غير أربعة مصابيح ، تبعث نوراً ضعيفاً من آخر الكنيسة في الهيكل .

ولكنها شعرت أن يداً أمسكت يدها ، وسمعت صوتاً همس في أذنها قائلاً :

... أأتيت يا ابنتي ؟

فعرفت اليس صوت الملكة وزالت أسباب اضطرابها .

فقلت لها الملكة . أنت تبحثن عنه ، اليس كذلك ؟ صبراً يا انسي
لأنه سيحضر .

— لا أعلم يا سيدتي كيف أعرب لجلالتك عن امتناني
— رأيت المركبة التي ستسافران فيها ؟

— لم أنتبه لذلك يا سيدتي . ولكني لا أرى الكاهن . ماذا ، ألا يوجد في
هذه الكنيسة ؟

— قلت لك اصبري يا ابنتي ، ولكن ما لي أراك مضطربة ؟

— لهذه الأصوات التي أسمعها من داخل الكنيسة .

— إنها صوت الرياح تعبت بالأبواب يا اليس .

— سيدتي هوذا الليل قد انتصف .

— نعم وهوذا خطيبك قد حضر .

وإنما قالت الملكة ذلك لأنها سمعت طرق الباب الخارجي بالطريقة المصطلح
عليها فأيقنت انه ماريلياك .

ومدت اليس يدها لتفتح الباب فاعترضتها كاترين قائلة : بل أنا أفتح

فلبثت اليس ساهية وقد عاودها الرعب إذ رأتها تتولى بنفسها فتح الباب
وذلك منوط بالخدم .

ثم ذكرت انها حين دخلت إلى الكنيسة أقفلت الباب بيدها أيضاً وأحكمت
إقفاله ، فقالت في نفسها . ليس القادم ماريلياك .

غير انها كانت مخطئة لان الطارق كان ديودات نفسه .

فلما فتحت كاترين الباب ودخل قالت له :

— كيف ذلك ، ألم تصحب معك أحداً من أصحابك ؟

فعرف ماريلياك صوتها وانحنى أمامها بملء الاحترام ، وقد عجب كيف أنها

فتحت له الباب بيدها وقال في نفسه : من يفعل ذلك غير الأمهات ؟

ثم نظر اليها وقال :

- العمل جلالة الملكة نسيت أمرها إلى ان أحضر وحدي
ومع ذلك فقد خطر لي ان أحضر معي رجلا له في قلبي منزلة فوق منزلة
الصديق ولكن الشفالييه لا يطلق سراحه قبل صباح غد .
- نعم نعم لقد نسيت ذلك .
ثم عادت فأقفلت الباب وتنهدت تنهد فرح هائل .
وعندها أدنت الخطيبين من بعضهما فوضع كل منهما يده بيد الآخر ، وقد
نسيا الوجود .
وسارا الى الهيكل حيث كانت تضيء المصابيح الأربعة .
وكانت كاترين تسير وراءهما حتى وصلا إلى الهيكل .
فركما عند درجاته وعندها استغافا من سكرة غرامهما فقالت اليس :
- إني لا أرى الكاهن الذي سيعقد زواجنا .
أما كاترين فانها ذهبت الى الراهب الواقف في زاوية قرب الهيكل فوضعت
يدها على كتفه وقالت له :
- هوذا الرجل الذي يريد ان يتزوج اليس .
فاضطرب الراهب وكشف عن وجهه وسار إلى الخطيبين .

- ١١ -

بنات الهوى

في الساعة التاسعة من تلك الليلة نفسها كانت لورا تلك المعجوز التي عيبتها الملكة جاسوسة على اليس مقيمة وحدها في ذلك المنزل ذي الباب الأخضر الذي كانت تقيم فيه اليس في شارع لا هاش .

وقد دخلنا باذهان القراء مراراً ، إلى هذا المنزل ، فلندخل اليه هذه المرة الأخيرة .

كان ماريلياك قد واعد اليس على زيارتها في الساعة الثامنة .
وقد جاء في الساعة المعينة فلم يجدها في المنزل .

فسأل عنها لورا فقالت : إن الملكة ستبقى عندها إلى نصف الليل ولكنها أمرتني ان أنتظرك .. ولا أعلم ماذا حدث لأنني ما رأيت اليس مرة على مثل ما رأيتها اليوم من مظاهر السرور .
فابتسم ماريلياك ولم يجب .

فقالت المعجوز : لقد عهدت إلي ان أقول لك .. أصبر إلى أن أتذكر كلامها فإنه أسرار لم أفهم شيئاً منها .. رباة ! ماذا حدث وما هذه السمادة التي كانت مرتسمة على وجهها .

فقال لها ماريلياك بلطف : تذكرني جيداً .

- لقد ذكرت فاعلم انها تنتظرك عند انتصاف الليل بالضبط .

-- حسناً .

فضمت لورا يديها وقالت : إذا أنت عالم بما حدث ... ألا يمكن أن أعلم أنا أيضاً .

-- ستعلمين صباح غد والآن إلى اللقاء فادعي لنا بالتوفيق .

-- بارك الله مقاصدك يا سيدي الكونت ولكن لا تنس .. عند انتصاف الليل بالضبط .

فودعها ماريلياك وانصرف .

وقد شيعته تلك العجوز الساكرة ، إلى باب الحديقة ، وهي تدعو له خير دعاء . ثم أحكمت إقفال الباب ، وعادت إلى المنزل ، وأقامت تنتظر ..

ولبثت على ذلك إلى الساعة العاشرة ، فقالت في نفسها : إنه لا يعود بعد الآن وأما اليس فيستحيل أن تعود .

وقامت عند ذلك فتنهدت تنهد ارتياح ثم ابتسمت وقالت :
-- لقد انتهت هذه الرواية المضحكة ، وقضي الأمر بعد أن كان يقتلني الملل ..

أما وقد أصبحت حرة الآن فلننظر ما يجب أن أصنع .

ولكن الأمر بسيط وهو أن أبحث في باريس عن فندق أقيم فيه ثلاثة أو أربعة أيام دون أن يراني أحد .

ثم أسافر إلى إيطاليا ، وهناك أتمتع بثروتي الجديدة ، فلأحسب الآن هذه الثروة .

وعند ذلك صعدت إلى غرفة اليس .

وكانت اليس قد أقفلت بابها ، وكسرت ودخلت إلى تلك الغرفة دخول المنتصر .

وكانت اليس قد جمعت في الصباح كل ما كانت تريد أخذه معها ،

وكانت عازمة على الرجوع إلى منزلها ، غير ان الملكة أمرتها أن تبقى في اللوفر كما تقدم .

ولم يكن ما تريد أخذه معها غير مجوهراتها ، فوضعتها كلها في صندوق صغير .

أما لورا فانها بدأت بفتح هذا الصندوق ، فرأت فيه مجموعة رسائل كان ماريلياك قد راسل بها اليس .

فأخذت الرسائل والقها في النار .

ثم عادت إلى الصندوق ، فدهشت لما رآته من تلك المجوهرات ، السقي تبهر الأبصار .

فقد كان في ذلك الصندوق عقد من اللؤلؤ ، ومشط من الماس ، واثننا عشر خاتماً من أفخر أنواع الزمرد والياقوت ، وعقدان أيضاً من الماس ونحو ثلاثين سواراً من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة .

فكان مجموع قيمة هذه الحلى يبلغ نصف مليون فرنك .

وفيا كانت لورا تقلب هذه الحلى وقد اصفر وجهها لهذه الثروة العظيمة ، سمعت صوتاً .

فأجفلت وأسرعت إلى المصباح فأطفأته .

ثم اتقدت عينها ببارق من نار ، فجردت خنجرها ووقفت وراء الباب وهي تقول :

- الويل لها إذا كانت هي القادمة فسأقتلها لأن الملكة قالت لي ان الأمر سيقضى في هذه الليلة .

ولبثت هنيئة تصفي وخنجر مجرد بيدها الى ان تتابع هذا الصوت مراراً فتنهدت تنهد ارتياح وقالت :

- إنه الهواء ، يعصف في الخارج ... وقد مثله لي الخوف خطوات إنسان .

ثم عادت فأثارت المصباح ووضعت المجوهرات في موضعها من الصندوق الصغير وأسهرت الى غرفتها فعادت بكيس محشو بالدنانير فوضعت في صندوق الحلى وقالت بلهجة احتقار :

— إن هذا الكيس يحتوي على ألفي دينار ، وهو كل ما أعطيتني إياه الملكة كاترين جزاء خدماتي الجليلة ، غير اني سأستعير عما حرمته من المكافأة بهذه الحلى .

ثم أحسكت إقفال ذلك الصندوق الصغير ووضعت وشاحاً على كتفها وأخذت الصندوق تحت إبطها فخرجت من ذلك المنزل بعد ان أقفلت بابه وألقت مفتاحه الى الحديقة من فوق السور .

وكانت الشوارع مقفرة ، والظلام حالكا ، والغيوم متلبدة ، وقد أقفلت جميع الفنادق والحانات ، لأنها في ذلك العهد كانت تقفل في الساعة الثامنة .

فسارت لورا في تلك الشوارع وهي لا ترى رجلاً يقفوا أثرها .

وكانت قد وضعت الصندوق تحت وشاحها ، وكانت تضغط عليه من حين الى حين كأنها تريد أن تثبت من انه لا يزال معها ، وانها غير حاملة وهي سائرة دون أن تعلم الى أين تسير فانها منذ قدمت الى باريس لم تبح شارع لاهاش .

وما زالت تسير حتى رأت انها تأتمة ، ولم تجد ماراً في تلك الشوارع لتسأل عن فندق تبيت فيه .

ثم شعرت كأنها ترى خيالا ، وسمعت صوتاً يشبه الهمس ، فسكادت تجن رعباً .

وأسرعت الخطى وقد خطر لها في تلك الساعة كل ما سمعته في حياتها من حكايات قطاع الطرق فقالت في نفسها :

— لقد أخطأت خطأ لا يفتقر بخروجه من المنزل وماذا كان علي لو بقيت

فيه ما زالت اليس لا تعود اليه
ولكن كلا فان الملكة قد تكون كاذبة فيما قالت لي ، وقد تعود اليس ،
فانا أحسنت ولم أخطئ .

وكانت تسير خائفة منزعرة ، فتلفت كل حين الى ورائها فلا تجد أحداً
لشدة الظلام .

حتى انتهت الى زقاق ضيق طويل ، رأت في آخره مصباحاً
يضيء ، فأسرعت المسير ، وهي ترجو ان يكون ذلك النور منبعثاً
من فندق .

ثم تقدمت وعيناها محذقتان بذلك المصباح ، فرأت خشبة معلقة فوق
باب ذلك المنزل يرجعها الهواء ، فأيقنت أن المنزل فندق ، وأسرعت
الحطى اليه .

غير أنها لم تكدر تدفع ، حتى شعرت بيد قوية جذبتها ، والفتها
الى الأرض .

ثم زأت رجلاً قد ركع فوق صدرها ، ووضع يده فوق فمها منعاً
لصياحها .

غير ان لورا كانت من أهل العناد والقوة فدافعت عن نفسها وصاحت
تستغيث بلاء صوتها .

فخرج الصوت من فمها متقطعاً مختنقاً ، لأن ذلك اللص رفع يده عن فمها ،
وضغط على عنقها بيديه .

وما زال يضبط وهي تستغيث حتى انقطع ذلك الصوت ، وأيقن اللص
أن روحها الحبيثة قد فارقت جسدها .

فأخذ عند ذلك يفتشها - قى عثر بالصندوق ، فأخذه وترك العجوز حيث
قتلها وهو يقول :

— ما أعجب هذه الحياة ، فقد كنت في صباح اليوم لا أملك دانقاً ، فما

أمسى المساء حتى وبت من الأغنياء .
 بل ما أـعدني بقتل هذه المرأة فقد قتلت قبلها خمسة عشر رجلاً فلم أكن
 أجازي عن قتل الواحد بأكثر من دينارين .

أما هذه المعجوز فقد جوزيت عن قتلها بالفين .
 فهي ، اذا عددت القتلى ، كانت واحداً بمقام الف ، فرحم الله روحها
 الطاهرة .

وجعل يسير وهو يحدث نفسه فيقول :
 - لقد كنت في هذا الصباح ، حسب عادتي ، مقيماً في الحانة . فجاءني
 رجل ملثم الوجه .

ولكنني أعرف الوجوه ، خصوصاً وجوه اولئك الذين يستأجروننا
 لقتل الناس .

وقد عرفت ذلك الرجل ، فهو ريزيه الفلسكي ، فقد جاءني في الصباح
 وقال لي :

- كم تريد أجرة عن قتل امرأة عجوز ؟

فأجبت : دينارين ، حسب العادة ، إذ لا فرق عندي بين المعجوز
 والفتاة .

-- هوذا الديناران فاذهب في الساعة الثامنة مساء الى شارع لاهاش في زاوية
 شارع ترافرسين تجد هناك منزلاً له باب أخضر .

فاكن هناك إلى ان تخرج منه امرأة عجوز فاتبعها ، ولكن لا تقتلها إلا
 متى بعدت عن المنزل

ثم قال لي انك إذا رجفت يدك ولم تضربها ضربة قاضية أي إذا لم تمت تلك
 المرأة قتلتك بدلاً منها .

فقلت له وقد عرفته : كفى يا مولاي وعيداً ، فان المعجوز ستموت .
 - إذا أعلم ان جزاءك لا يكون دينارين فقط بل ستجد مع هذه المعجوز

الفي دينار فتغنمها ولا يطالبك بها أحد .
وعندما قال في نفسه هذه الأقوال ، خشي ان لا يكون أتم خنق
لورا ، فرجع اليها وفحصها فحسباً دقيقاً ، ووجدها جثة باردة لا
حرارة فيها .

ولا نصف ما كان من فرح اللص بهذه الثروة الجديدة ، بل اننا لم نتعرض
لوصف مقتل هذه المعجزة إلا لبيان دهاء الملكة كاترين وشدة حذرهما وعدم
مبالأتهما بسفك الدماء .

أما هذا اللص فانه ذهب إلى خماره (ميت يتكلم) وهي خماره كاتي ،
صديقة بارداليان الأكبر .
فأقام فيها إلى ان شرب زجاجة من الخمر ووجد مكاناً صالحاً لتخبئة
الصندوق وانصرف .

وكانت هذه الخماره يزورها اللصوص وبنات الهوى ، فكانت غاصة تلك
الليلة بين دون اللصوص .
لأن الليلة كثيرة العواصف والصواعق والأمطار وهي خير فرصة يغتنمها
قطاع الطرق لسلب الناس .

فبينما كانت كاتي جالسة في موضعها ، تحاسب الشاربين والشاربات ،
دخلت امرأة فاستقبلتها كاتي بخفاوة ، وقالت لهما : لقد مضى شهر لم أركا
فيه فأين كنتم .

فقال إحداهما ضاحكة : لقد كنا في سجن التامبل .

- ومضى كان سجن التامبل خاصاً بالنساء .

- من يوم تولى إدارته المسيو دي مرليك فهو بأسرنا في الليل ويطلق سراحنا
في النهار .

- وكيف أطلق سراحكم الليلة ؟ العله مل عشرتكم ؟

- كلا ولكنه لم يسكر الليلة غير انه دعانا إلى حفلة لا بد لنا فيها من التأنق

في اللباس وليس لنا من الملابس غير ما تعلمين .

— متى ؟

— يوم الأحد وأنت ترين أن الوقت لا يزال فسيحاً لدينا للتأهب ، بشرط أن تساعدنا .

— وكيف تريدان أن أساعدكما ؟ .. أطمعمان أن البسكما عقود اللؤلؤ ؟

— كلا ، يل كل ما نريده أن نقتدي بالعقائل المومرات ، ونلبس ملابسهن ...

فذهلت كاتي وقالت :

— ولكن أي شأن لكما في تقليد العقائل ؟

— لأنه سيحضر هذه الحفلة قضاة وكهنة ، ولا يريد مرليكم أن يظهر في سجنه بملابس بنات الهوى .

ولا سيما أمام القضاة والكهنة ، لأن سجننا عنده سري ، كما تعلمين ، ولكن عيون القضاة النافذة قد تراقا ، فيعتذر عن ذلك بأننا من أهله .

وقد قضينا كل النهار في فحص ما لدينا من الملابس فلم نجد لها تصلح إلا لمنهتنا بحيث يستحيل علينا ان نحضر بها هذه الحفلة .

ولكن لا بد لنا من الذهاب اليها ، فقد حتم علينا مسير السجن الحضور .

ولا بد لك يا كاتي من ان تحضري لنا ما يلزم من الثياب .

— ولكن ما هذه الحفلة التي يحضرها القضاة والكهنة ؟ .. العلبا حفلة زواج ؟

— كلا بل هي حفلة تعذيب .

فدهشت كاتي وقالت : الملكما تسران بمظاهر التعذيب وسماع صياح ذلك

التعس الذي يعذبونه .
- كلا ، غير ان حاكم السجن يريد أن نحضر ، وإذا لم نتمثل له
خسرناه .

- إذا هو الذي دعاكم إلى حضور التعذيب ؟

- هو بعينه ، حاكم سجن التامبل ، وأنت ترين إنه من كبار
الرجال .
- دون شك فقد ظهر كبره من هذه الدعوة ، ولكن من أين تريات
هذا التعذيب .

- من السجن نفسه لأن حاكمه سيخبطنا في غرفة تشرف نوافذها على غرفة
التعذيب ، إذ لا يجب أن يرانا أحد ، وإذا رأونا ورأوا ملابسنا حسبوا أننا من
أقرباء الحاكم أو من أقرباء المعتدين .
- في لو كنت مكانكما لما حضرت هذه الحفلة الهمجية .

- أتريدين ، يا كاتي ، أن نخسر مثل هذا الحاكم .. وهو قوام
سباقنا الآن ؟

- إذا سأعطيكما ما تطلبان .

- يوم الأحد ؟

- بل مساء السبت

فرقصت المراتان من الفرح ، وطلبتنا زجاجة من أفخر خمر الحانسة ،
لإرضاء لسكاتي .

فقلت لهما كاتي : ولكن من هذا المنكود الذي سيعذبونه .
- إنها اثنان لا واحد .

- وماذا يدعيان ؟

- بارداليان الأكبر وبارداليان الأصغر فهما أب وابنه .

فاصفر وجه كاتي واضطربت أعضاؤها وبذلت جهداً عنيفاً كي لا تبكي ،

فإنها كانت تحب بارداليان الأكبر من عهد بعيد .
ثم توالى الأيام فنسيت ذلك الغرام الى أن تجدد عطفها عليه وعلى ابنه في
حادثة الخسارة .

فأعجبت بشجاعة الابن ومروءة الأب .

فلما علمت من المرأتين أن هذين الرجلين الباسلين سيموتان معذبين ، كبرت
عليها نكبتهم وشعرت بحزن عظيم .
وكانت كاتبي سليمة النية ميالة إلى المعروف على انغماسها بالذائل واختلاطها
مع اللصوص وبنات الهوى .

ولكنها كانت تنفر من المموم وتحتال على طرد الحزن فما حزنت في حياتها
غير مرة حين شوه الجدري وجهها الجميل .
وقد كانت أعجبت ببارداليان الأصغر إعجاباً شديداً حين رآته في حادثة
الخسارة ، ورأت منه ذلك الاستخفاف بالموت ، وتلك الرحمة النادرة في
قلوب الأبطال .

فجعلت بعد ذلك تنهد كلما نظرت إلى مرآتها ، فنوطاً من حب ذلك
البطل النبيل .
ولكنها كانت تتعزى عن ذلك بأنها باقت صديقة له ، وإنها تؤد ان تفديه
بنفسها في مواقف الأخطار .
ولذلك كان اضطرابها عظيماً حين علمت ان هذا البطل العظيم سيموت مع
أبيه بعد التعذيب .

وشعرت ان نور الرجاء قد انطفأ من قلبها .

ولكنها لم تذكر كلمة من ذلك أمام المرأتين ، بل ان حزنها الشديد ظهر
لها من اضطرابها ، فقالت لها احداهما :
.. يظهر أننا أسأنا اليك ، بهذا الخبر ... الملك تعرفين هذين
الرجلين ؟ .

... أنا ؟ كلا .

— إذا نعتد عليك بشأن التوبين ؟

— كل الاعتماد وقد قلنا ان هذا التعذيب سيكون يوم الأحد .

— الساعة العاشرة من الصباح ولكننا سنذهب إلى سجن التاميل مساء السبت لأن حاكمه ينتظرنا للعشاء في الساعة الثامنة .

— حسناً فاذهبنا عني الآن وسيكون لكما ما تريدان

فانصرفت المراتان ، ولبثت كاتي وحدها ، ووضعت رأسها بين يديها وقالت :

— الأحد ... صباح الأحد .

ثم جعلت تبكي بكاء الأطفال .

وقد عرف القراء ، مما تقدم من فصول هذه الرواية ، ان تعذيب بارداليان وابنه ، لم يكن موعده صباح الأحد ، كما توهمت المراتان ، بل كان صباح السبت .

غير أن حاكم السجن وعد هاتين المراتين ، بحضور الحفلة ، وهو في حالة سكر .

ثم ثاب إلى رشده فجأة بعد ذلك الوعد ، فقال لهما . ان موعده التعذيب يوم الأحد ، فإذا حضرتا قال لهما لقد دعت الضرورة إلى جعل التعذيب يوم السبت بدلاً من يوم الأحد ، ووردتنا الأوامر بعد انصرافكما .

فيكون ، بذلك الكذب ، لم يخل بواجباته بالسماح لهما بحضور التعذيب ، ولم يكذب عليهما في عرفها ، لأنه كان يعتقد ان التعذيب يوم الأحد .

ولنعد الآن إلى كاتي ..

فقد عرف القراء من هذه المرأة يوم إحراق الخماره أنها من أهل الشهامة والشدة .

فلما استنزفت دموعها ضربت المائدة بيدها وقالت : لا بد أن أدخل إلى السجن ليلة السبت .

وقد قالت هذا القول وهي لا تعلم ماذا تصنع ، ولكن كان لديها خمسة أيام للبحث ، فكان كل ما خطر لها في تلك الساعة أن تدخل إلى سجن التامبل ليلة السبت ، أي قبل التعذيب الذي سيكون يوم الأحد في عرفها .

وفيا هي تمسح دموعها ، وقد عازمت عزماً أكيداً على الدخول إلى السجن رأت رجلاً وامرأة من زبائن خمارتها قد دخلا إلى الخماره وهما يحبران تينك المراتين خليلتي حاكم السجن .

وكانت المرأة تصيح قائلة : إنها قتلنا امرأة عجوزاً عند باب الخماره ، ولا بد لي من إخبار البوليس .

وكانت المراتان تبكيان وتندسكان هذه التهمة كل الانكار . أما تلك المرأة البغي فلأنها كانت تكره المراتين كرهاً شديداً لجهالهما وفوزهما عليها في مهمتها الشائنة .

فلما رأت العجوز لورا قتيمة عند باب الخماره ، ورأت الفتاتين خارجتين منها قالت في نفسها ، إنها خير فرصة للكيد لهما والانتقام منهما .

فاتفقت مع خليلها على الوشاية بهما فجراهما جراً إلى الخماره كما تقدم . وقد كثر اللغط في الخماره اثر هذه الحادثة ، فوقفت كاتي وقالت لهما بلمهجة الأمر :

— اسكتوا جميعكم إلى أن أعلم الحقيقة .

فسكت الجميع بمثلين ونادت كاتي المرأة التي تتهمها فقالت لها : ماذا تعلمين ؟

-- اني كنت قادمة إلى خمارتك مع جان فرأيت هاتين المرأتين تخفجان
تلك العجوز فلم أدركها إلا ميتة ، اليس كذلك يا جان ؟
فأجاب جان : هو ذاك ويسوءني اني لم استطع انقاذاها من قبضتهما .

فبككت الصبيتان وأقسمتا الايمان المغلظة انها لم تقتلا العجوز ، وان كل
ما تقوله البغي وخليلها أفك وزور .
فقالت البغي : لست من أهل الزور والافك ، وساخر البوليس بأمركا
فيتضح له بعد التحقيق من منا الكاذب .

ثم همت بالخروج فقبضت عليها كاتي وقالت لها : أتعلمين ماذا يكون إذا
جاء البوليس .. انك تكونين أنت القاتلة ، وأكون أنا وكثيرون معي شهوداً
عليك في هذا القتل ، وفي جرائمك الكثيرة التي أعرفها .. ويحك أيتها الخائنة
أهي أول مرة قتل فيها الناس في هذا الزقاق ، ومق تداخل البوليس في
شؤون خمارتي ، أتريدن أن يكون ذلك عن يدك .

فخشيت البغي أن تقع في الشرك الذي نصبت له المرأتين وضحكت ضحكا
عالياً وقالت : والله إني ما أردت غير المزاح وكفاني انني لمجعت بازعاجهما .
فسرت كاتي لانقضاء الأمر بالممازحة وذهبت البغي مع خليلها .
أما كاتي فلإنها أدنت الفتاتين منها وقالت لهما : أبقيا هنا فاني أريد
محادثتكن .

ثم صرفت زبائنها واطفأت الأنوار ، وأقفلت الباب وعادت إلى المرأتين
وقالت لهما : الستانتما القاتلتين ؟

وعادت المرأتان إلى البكاء والانكار .
فقالت لهما كاتي : قد يكون انكما بريئتان ، ولكن كل الظواهر تؤيد
تهمتكما ، بل أظن إنكما القاتلتان .
.. لا تبكيا فلا فائدة من البكاء ، إذ يوجد شهود عليكما ولنتفق إذا
أردتما السلامة .

على ماذا تريد ان الاتفاق ؟
على ان تطيعاني فاذا فعلت انفذتكما ، وإذا أبينا اتفقت مع تلك البغي
على اخبار البوليس بأمرنا .
.. وماذا تريد منا .
.. أريد طاعة خمسة أيام وذلك سهل عليكما .
.. ماذا يجب أن نعمل .
- سأقول لكما عند الاقتضاء ، أما الآن فيجب أن تناما هنا وان لا تبرا
هذه الحجرة مدة خمسة أيام .
.. سنمتثل .
- وهذا كل ما أريده منكما الآن ، ولكن يجب أن تعلمنا انه إذا
برحت إحداكما الحجرة قبل يوم السبت ، أذهب قواً إلى مركز البوليس
وأشفي بكما .
- ويوم السبت ، ماذا يكون ؟
- أطلق سراحكما واعطيكما ما تحتاجان اليه من الملابس فتذهبان إلى
سجن التامبل .

- ١٢ -

آخر العهد بجبل وجيلوت

بينما كانت هذه الحوادث تجري في خماره « ميت يتكلم » كانت حادثة أفضع منها تجري في قصر مسيم .

فلندع الآن هنري دي نافار يهتم في وقاية نفسه ، ولندع فرنسوا دي مونغورانسي يحزن قلقاً لاختفاء بارداليان وابنه ، ولنتنظر في أمرين يهم القراء الوقوف عليهما .

أحدهما ما كان يجري في قصر مسيم .
والثاني ما كان يجري في كنيسة سانت جرمين التي كانت تنتظر فيها اليس عقد زواجها بماريلياك .

كان هنري دي مونغورانسي أدخل قصر مسيم من جميع الجنود والحامية والخدم ، ونقلهم إلى قصر له قرب باب مونمارتر وذلك لسببين .
أولهما انه كان يخشى أن يحمل اليأس أخاه فرنسوا فيحضر برجاله ويهاجمه في قصره ، فتحدث بينهما معركة هائلة لا يعلم لمن يستتب النصر فيها .

ولذلك رأى أن يحصر قوته في محل واحد ، لأن ذلك القصر الذي نقل الحامية اليه كان أمنع من قصر مسيم .
والسبب الثاني ان الملك قد عهد اليه بحراسة أبواب باريس فعين لهذه المهمة فريقاً من رجاله الأمناء .

ثم انه كان يخشى ان تعلم الملكة كاترين انه من المتآمرين مع الدوق دي كيز .

فقد عرف من مورفر أن الشك قد داخل نفسها بهذه المؤامرة .

وفي هذه الحالة يستطيع أن يهرب من باب مونغارتر بسرعة لمجاورة قصره لهذا الباب .

وعلى ذلك كان قصر مسم خالياً خاوياً لا يقيم فيه أحد .
على انه كان فيه تلك الليلة رجلان يتعشيان ، وقد برقت أعينهما بأشعة السرور وهما جيل وجيلوت

فكان جيل و كيل الدوق دامفيل ينظر إلى ابن اخته نظرات الرفق ويقول له : إشرّب أيضاً هذه الكأس يا بني فلا يظهر المستقبل بلون الورد إلا إذا نظرت اليه من خلال أقذاح الخمر .

فيشرب جيلوت ويقول : اني لم أذق مثل هذه الخمرة في حياتي فلماذا لم يخلقني الله من الأمراء فأروي غلي من هذه الخمر .
- إني أجهلك الليلة من أصحاب التيجان إذا شئت كيف ذلك ؟

- ذلك أن تأخذ زجاجة من هذه الخزانة ، وتشرب ما فيها فتصبح فوق الملوك .

فلم يدعه جيلوت يتم حديثه و قام إلى الخزانة فأخذ تلك الزجاجة وشرب منها جرعة كبيرة

وكان جيل يراقبه ويقول في نفسه : إنه لم يسكر بعد .
وما زال يسقيه الكأس بعد الكأس حتى رأى أن الخمرة قد بلغت منه ما أراد فبدأ محادثته فقال :

- إذا ألا تريد أن تعود إلى قصر مونورانسي .
فظهر الخوف على ملامح جيلوت وقال : كيف أعود إلى هذا القصر ؟

ألا تعلم أن أهله لا يبدأ لهم روع بعد احتجاب قاطع الألسنة
- ويحك من هو قاطع الألسنة ؟
- هو بارداليان الأكبر فقد أُنذرتني بقطع لساني إذا خنته ، وأنت تعلم
كيف وفيت بعهده .

ثم ضحكك ضحكا شديداً وقال .
- إن جميع سكان هذا القصر لا يثقون بي بعد احتجاب بارداليان وهم
يعتقدون أن لي يداً في اختفائه ، فهل تريد أن يقطعوا رأسي بعد قطع أذني .
وقد وضع يده على رأسه ، ولا نعلم أكان يريد اقتقاده ، أم كان يريد أن
يودع أذنيه .
فلم يحبه جيل ولكنه ملأ له كأسه .

فشربه جيلوت جرعة واحدة وقال .
- نعم لقد كان هذا الأبله بارداليان يثق بي ثقة شديدة ، فاني حين أكدت
له أنه سيجد الدوق دامفيل وحده في القصر ، فرح فرحاً عظيماً حتى أنه كاد
يমানقني ، والله اني أشفق عليه ، فإنه نبيل كريم .
- كيف تشفق عليه أيها الأخوتي ، أنسيت أنه كان يريد قطع أذنك .
- لقد أصبت فقيح له من خائن ذميم .

- وأنه يريد أيضاً قطع لسانك .
- أين هو هذا الوغد ليحضر الآن .
وقد قال هذا القول بلمهجة المتوعد وقبض على سكين أخذها عن المائدة
وقال . ليحضر هذا الجبان وسأريه كيف يكون قطع الألسنة .
ولكنه سقط على الكرسي لسكوره وجعل يضرب على منطقتة فيسمع رنين
الذهب ويضحك .

فقال له جيل : يظهر أنك سعيد يا جيلوت .
- نعم . ولكنني غير مصدق لهذه السعادة ، فاني أحسب نفسي حالماً

حين أجد منطقتي ملآنة من الذهب بفضل سيدي الدوق
وقد عزمت عزماً أكيداً على أن لا تذهب إلى قصر مونورانسي
- العلك جننت ، أم انك تريد لي قطع اللسان .
- من يقطع لسانك أيها الأبله ما زال بارداليان في السجن .
- ولكنني خنته فهو يقطع لساني لا محالة . . كلا دعني أتمتع بهذه الثروة فاني
أحب الشراب ، وكيف أشرب اذا لم يكن لي لسان .
- أين المال الذي قبضته أهو معك ارني إياه .
فحل جيلوت منطقتة وأفرغ ما فيها على المائدة .
فاتقدت عينا جيل ، وجعل يعبت بالدنانير ويقول :
- ولكني أنا الذي أعطيتك هذا المال وهو في الحقيقة ثروة .
... ذلك فصلاً عما سأقبضه أيضاً ؟
- ما الذي تطمع في قبضه أيضاً ؟
- إنك أعطيتني هذه الدنانير دفعة على الحساب .
- أي حساب هذا وأية بقية تعني .
- أعني إنك أعطيتني الف ريال ، ولكن الدوق أمرك أن تعطيني ثلاثة
آلاف ، وقد سمعته ، فاصعد يا خالي الى صندوقك وهات البقية .
- لا شك انك سكرت ايها الأبله ، امثلك يقبض ثلاثة آلاف ريال .
فعلم جيلوت أن خاله قد طمع بالبقية ، وكان شديد البخل والطمع كخاله
فوجف قلبه لما سمعه وقال له :
... قلت لك اني سمعت الدوق يأمرك ان تعطيني ثلاثة آلاف فما أعطيتني
غير الف هات البقية أو شكوتك للدوق .
وإذا لم أعطك إياها أحقاً تشكوني أيها الشقي ؟ تريد خرابي أيها
المجنون . الا يكفي ما سرقه مني بارداليان . . جيلوت يكفيك ما
قبضته فلا تطمع .
وحاول جيلوت أن يقف وهو يقول :

.. حسناً فسئري ما يقوله الدوق
فضحك جيل ضحكا هائلا وقد طمع بالثلاثة آلاف ريال لا بالألفين .
ولكنه عزم على أن لا يتخلى عن المال وحاول أن يأخذه بالمسألة قبل
العنف فقال :
- انك يا جيلوت لا تعلم ما تصنع بهذا المال ، فإنك تبده من دون
حساب ، فهل تتخلى لي عنه بطيبة خاطر ؟
- لم يبق لدي شك في انك من الجاهلين ، أتريد ان اموت في الحياة لأرثك
بعد الموت ..

ما هذا الجنون ..
ولكن جيل لم يدعه يتم حديثه فإنه انقض عليه ، وأخذ حبلًا كان قد
اعده من قبل فشده به الى الكرسي الجالس عليه .
وقد قيده بسرعة عظيمة حتى ان جيلوت لم ينتبه من دعوته الا وقد رأى
نفسه مقيداً لا يستطيع حراكاً ، فجعل ينظر الى خاله نظرات ملؤها الرعب
كما كان ينظر اليه حين قطع اذنيه في القبو .
واما جيل فانه اخذ تلك الدنانير التي كانت في منطقة جيلوت فوضعها في
صندوق ، حتى اذا احكم اقفاله عاد الى جيلوت فحل وثاقه وقال له :
- لقد تركت لك خمسين ريالاً واخذت الباقي ، فإنك لا تستحق أكثر
بما اعطيتك ايها المجنون الأبله ، ارأيت اني ورثتك قبل ان ترثني .
نعم ، ان هذا المبلغ يكفيك لأن تبحث عن الثروة في غير هذا المكان ،
واحذر ان اجدك في طريقي بعد الآن .
فرأى جيلوت انه لا ينفع معه غير الحيلة فقال له :
- ما زلت تريد يا خسالي ان اقنع بالخمسين ريالاً ، فأنا راض بما ترضاه
وسأسافر ..
- الى اين تسافر ..

- لا اعلم ولكني ابرح باريس .
 - نعم اني واثق من انك تبرح باريس لأنك تخاف ان تقيم فيها معي ،
 ولكن قبل ان تبرحها ترى الدوق .
 نعم انني اعرفك فأنت اشد مني بخلا وطمعاً ، حق انك تخاطر بالحياة في
 سبيل الثلاثة آلاف ريال .
 ويحك ايها الأحق امثلك ينال هذا المبلغ ثم يناله من يدي ..
 كلا لا تطمع بنيله ولا تطمع ان تتمكن من اخبار الدوق .
 - اقسم لك اني لا افوه بحرف .
 .. اما انا فلا يكفيني يمينك ، واريد ان اكون واثقاً من سكوتك ، ولا
 يتيسر لي ذلك الا بقطع لسانك .
 ثم ضحك ضحكا عالياً وقال :
 انت الذي اوحيت الي بهذا الخطر ، فلم يخطر لي قطع لسانك ببال ، كما
 اني لم يخطر لي قطع اذنيك لو لم ترشدني الى قطعهما .
 اما جيلوت فقد ذعر ذعراً شديداً لوثوقه من ان خاله سيقطع لسانه كما
 قطع اذنيه ، وكان السكر قد اضعف اعصابه فأغشي عليه من هول ما سمع .
 واما جيل فانه اسرع الى المطبخ وجاء بسكين .
 ثم اخذ كلابه من درج ودنا من ذلك المنكود .
 وقد لاحظ عندها ان قطع اللسان اصعب من قطع الأذنين فوقف هنيهة
 يتدبر وهو ممسك السكين بيد والكلابة بالآخرى .
 وجمل ينظر اليه ضاحكا وهو يقول : اني سأنتهي بتقطيع كل اعضائه
 اذا بقي معي .
 وفيما هو يتمعن في اختيار الطريقة المثلى لقطع لسانه ، صحا جيلوت
 من انغمائه .
 فبطل تردد جيل وانقض على المنكود انقضاض الصاعقة ، فأدخل الكلابه

في فمه قبل ان يصيح ، او كاد يدخلها .
فاتقدت حيناً جيلوت حتى باقت كاللهب وانتفضت اوداجه واطبق اسنانه
فكان بين الاثنين عراك اليأس .

ثم صاح جيلوت صيحة دوى لها القصر فان الكلابسة دخلت الى فمه
وقطعت قطعة من اللسان .
ولكن جيل ايضاً لم يلبث ان صاح صيحة المحتق ، فان الألم واليأس
اذعبا سكرة جيلوت وزاداه قوة ، فانقض على خساله المفترس وقبض على
عنقه بيد من حديد .

وكان بين الاثنين قتال عنيف والسكين لا تزال بيد جيل ، فكان يطعن
بها جيلوت ، وجيلوت غير مهبال بالطعن والجراح حتى بلغ من خنق خاله ما
اراد ، وبلغ خاله من قتلة بذلك الخنجر ما تمناه .
فلما أصبح الصباح ونفذت أشعة الشمس الى تلك الغرفة التي جرت فيها
المعركة ، كان الاثنان جثتين من غير روح ، وكانت يد جيلوت لا تزال ناشبة
في عنق جيل .

وخنجر جيل لا يزال داخلاً في صدر جيلوت .

- ١٣ -

هذا ما يريد الله

كان المركز أو الراهب بانيكارولا راعماً عند درجات الهيكل في كنيسة سانت جرمين .

وكان يصلي أي انه كان يناجي نفسه بما سوف يصنعه فلا يناجي خالقاً ولا يلتمس شفاعته ولا يرجو عفو الله وكرمه ، بل كان يبحث في نفسه المعذبة عن وميض فتضح له منه الحقيقة .

فبينما كانت الملكة كاترين واقفة على الباب ، تراقب قدوم الكونت دي ماريلياك لتضربه الضربة القاضية مع خطيبته اليس ، وبينما كانت الفتيات الخمسين ينتظرن إشارة الملكة ليمزقن بخناجرهن العاشقين ، كان الراهب بانيكارولا راعماً يصلي .

وهذه هي صلاته وهذا ما كان يقول :

« إن المسيح قد تعذب وسقراط كذلك ، ولكن الاثنين كان لهما غاية نبيلة سامية ومبدأ شريف جليل .

« أما أنا فقد تعذبت مثلها ولي نفس مثل نفسيهما ، ولكن غايتي تختلف عن غايتهم .

« فغايتي منحة سافلة لا يلجأ إليها غير صغار النفوس والأحلام ، إذ أن غايتي هي الانتقام .

« إن المسيح وسقراط كانا رجلين ، وقد أثبتت التواريخ والأدلة وشهادات المعاصرين ، أنها ماثا مطمئنين لتلك الغاية النبيلة ، التي ماثا من أجلها .

« وأما أنا فقد كنت أريد تعميم الإخاء والمساواة ، كما كان يريد المسيح . وأرجو انطباع الحب والسلام في كل القلوب ، ولكفي لا أجد في قلبي غير الكره والانتقام .

« ولماذا اختلفت غايتي وتبدل قصدي ؟ أكل ذلك من أجل امرأة تصدت لي في حياتي فأحببتها .

« ولأبحث الآن في حالتي علي أسترشد ، فماذا أتيت لأعمل هنا ؟ وماذا عملت ؟

« إني عملت عملاً هائلاً ، فقد أردت الانتقام من جمع في سبيل الانتقام من واحد . ففرست الأحقاد في قلوب الذين يسمعون عظامي ، وكنت أكلهم باسم ربهم وهو عندهم مرجع الرفق والرحمة والعدل ، فحشنتهم باسم العدل على ارتكاب أقبح ظلم وقتل الأبرياء من الهوكينوت وحضضتهم باسم الرحمة على إبادة كل من لا يدين بدينهم .

« وكل ذلك لأني أردت الانتقام من ماريلياك .

« نعم إني لم أفعل ما فعلت إرضاء لكاترين وتنفيذاً لما كرب دي كيز بل كان كل ما أريده قتل ماريلياك والاستئثار بتلك المرأة .

« وقد أمسيت اليوم وإذا برسول الملكة يقول إذهب إلى كنيسة سافت جرمين قبل انتصاف الليل بساعة تجد فيها اليس .

« فأتيت ..

« أتيت لأرى الحب وقد نسيت ماريلياك ، فما وجدت غير البغض .. وجدت الملكة كاترين تقول لي ان ماريلياك سيحضر قريباً وإنما قالت لي هذا القول لتثير مني مكان البغض

« وماذا تريد مني أيتها الملكة العاقبة الظالمة المحتالة ؟
 « إنك تريد أن أظلم هذا الرجل ، وأحمله من الشقاء ما لم أحمل
 بعضه . . . إنك تريد أن أطلع على هذا الكتساب ، الذي يقطع
 أحشائه . . . »

« وأنا ماذا أكون قد فعلت ؟ »

« أكون وصلت إلى هذا الانتقام السافل ، الذي لا تقدم عليه
 نفس كريمة . »

« ويح لنفسك ان قومي يضربون المثل بولائي وإخلاصي فهل أكون في هذه
 المنزلة لدى قومي ، ولا أرجو إلا ان تعم الشفقة كي يسود الرفق وتعم المساواة
 ثم أقدم على هذا العمل المنكر الفظيع . »

« ولو أردت قتل الكونت بالسيف وجهاً لوجه كما يقتل الشريف الشريف
 لكان الأمر ، ولكنني أريد قتله بورقة . وأية ورقة هي ، إنها تشبه ان تكون
 مزورة فقد أكرهتها على كتابتها . »

« أفعل كل ذلك لنيل امرأة لا تحبني ؟ أفعل كل ذلك لأفرك بين عاشقين
 بلخ بهما الحب حد العبادة ؟ »

« كلا ان غير بانيكارولا يفعل هذا . والآن قف ايها القلب الخفوق ويا أمانى
 الغرام انقشعي ويا . . . »

وهنا شعر ان يداً وضعت على كتفه فاضطرب وقال :
 - لقد دنت الساعة الرهيبة .

هذه هي صلاة الراهب حين كان جاثياً قرب الهيكل وحين كان ماريلياك
 يسير بخطيبته إلى ذلك الهيكل .

وكان الذي وضع يده على كتفه الملكة ، فأشارت بيدها إلى ماريلياك
 وقالت له : هذا هو العاشق .

ثم دنت من الخطيبين وقالت لهما : هذا هو الكاهن ، الذي سيمقد

زواجهما .

فنظر العاشقان الى ذلك الراهب وأصابت اليس بذعر لا يوصف حين رأت
المركيز يسير اليهما وهو مصفر الوجه مضطرب الأعضاء .

وقد أدركت بلحظة انها وقعت مع خطيبها في كمين
وكانت تنظر نظرات الجنون إلى الراهب والملكة ، وقد بدت عليها
علائم الذعر الشديد ، حتى ان الملكة نفسها ذعرت ليأسها ، وتراجعت
عنها خطواتين .
أما ماريلياك فقد رأى ما كان من ذعر اليس حين رأت الراهب فقال :
ماذا حدث ؟

وهو لم يعلم شيئاً ، ولكنه توقع حدوث أمر هائل ، من مجموع ما
كان يراه .
أما الراهب فلم يكن ينظر إلا إلى اليس .
ودام ذلك خمس ثوان مرت بالراهب مرور الأجيال فقد كانت عينا اليس
تكلمه بلغة فصحة فتقول :

— أقتلني وافعل بي ما تشاء وعذبي بما أردت من أنواع العذاب ، ولكن
إصفر عن خطيبي فإنه لم يسيء اليك بشيء .
فنفذ هذا الرجاء من عيني اليس إلى قلب الراهب نفاذ السهم .
وكان الراهب يضطرب اضطراباً شديداً ، فقد ازدحمت في قلبه عواطف
الحب والبغض والانتقام .

ثم فرت يميلتها من ذلك القلب كما يفر الطائر وقد أحس بخطوات الصياد فلم
يبق في قلبه غير عاطفة الإشفاق .
وعند ذلك رفع يديه إلى السماء كأنه يستشهد الله على تضحية نفسه في سبيل
هناك سواه .

وبينا كانت اليس تنظر اليه ، وقد انقادت عيناها بشمع الأمل ، سقط

ذلك الراهب على درجات الهيكل مغنياً عليه ، فان هذه التضحية قد هدت قواه .

أما ماريلياك فإنه جذب يده من يد اليس ، ومشى إلى الملكة كاترين ، فقال لها :

— ما هذا الذي حدث يا سيدتي ؟ .. ومن هذا الرجل ؟ .. إنه ليس براهب فاني أراه لابساً ملابس الفرسان تحت ملابس الرهبان .

وذلك ان الراهب حين سقوطه انزاح الوشاح فظهرت من تحته ملابس المريكز وكان كتاب اليس لا يزال في يده .

أما اليس فلمها دنت من خطيبها وقالت له :

— هلم نسافر ... هلم نهرب .

فلم يجيبها ماريلياك وقال للملكة :

... من هو هذا الرجل ؟

فأجابته الملكة قائلة :

— لا أعلم ، ولكن هذه الورقة التي في يده قد تنبئنا عما كان يريد .

ثم قالت فجأة :

— نعم ، نعم لقد عرفته فهو المريكز بانيسكارولا .. ماذا أتى يعمل هذا المريكز بدلاً من الكاهن الذي كنت أنتظره .

فأسرع ماريلياك إلى الراهب كي يأخذ الورقة من يده فأخذها منه وفتحها بيد ترتجف وهو يقول :

— المريكز بانيسكارولا .. ماذا يريد مني .

ولكن اليس دنت منه ونظرت إليه نظرة تدل على الجنون ثم أمسكت يده وقالت له :

لا تقرأ !

.. أتعرفين يا اليس ما يوجد في هذه الورقة ؟

– لا تقرأ .. ولنهرب ، إن الموت نعيم علينا .
– اليس ان الحقيقة مطوية في هذه الرسالة .. تلك الحقيقة التي كانت تعرفها
ملكة النافار والتي كتبتها عني أمي ؟

– لا تقرأ أيها الحبيب ، إذا أردت ان تبرهن لي عن صدق حبك .
لا تقرأ وانظر إلي فإني أحبك ... لا تقرأ رسالة هذا الرجل فإنك لا تعلم
مقدار حبي إياك .
– أتعرفين هذا الرجل يا اليس ؟

وكانت اليس تتكلم بلهجة المتوسل المستعطف ، وماريلياك يتكلم
بلهجة المقاتل .
وقد حمل اليأس ، تلك المنكودة ، على أن تحاول اختطاف تلك
الورقة .

ولكن ماريلياك أبعدما عنه بلطف وصعد الى درجات الهيكل كي يدنو
من النور وفتح تلك الورقة .
فركعت اليس وقالت :

– الوداع أيها الحبيب الذي لم أحب سواه ... إنك لن تعلم مقدار حبي إياك
فالوداع إلى الأبد .

ثم أدنت خافتاً ، كان في إصبعها ، من قنفا وهو مسموم ، ومصت ما
فيه من السم . ونظرت الى ماريلياك ، نظرة الحب المفتون ، ينتظر
الموت .

أما ماريلياك فإنه قرأ على ضوء المصباح ما يأتي :

« أنا اليس دي ليكس أعترف أنه إذا مات ولدي الذي ولدته من المراكز
بانيكارولا عشيقتي فأنا الذي قتلته .

« وإذا وجدوا جثة ولدي فلا يجب ان يتهموا سواي » .

فلم يتم ماريلياك قراءة الرسالة ونزل عن درجات الهيكل وقد تغيرت

سحنته حتى ان الملكة لم تعرفه .

فقبضت على خنجرها وجعلت تراقب هذا المنظر الهائل .

ومشى الى اليس ولكنه لم يرها فقد أعمى اليأس بصيرته ، ولم يسمع صوتها وهي جاثية تعالج سكرة الموت وتقول : (أحبك) .

ولكنه كان يمشي اليها دون ان يراها أو يسمع صوتها ، بل دون أن يفتكر بها .

فقد كان كل ما يفكر به تلك الساعة انه يعجب كيف انه لا يزال في قيد الحياة بعد تلك الضربة الهائلة ويقول في نفسه :

— لا بد من الموت ، ولكن كيف يجب أن أموت ؟

ثم رأى الملكة وهي تمشي ، فارتعش واثقت عيناه ، مما يدل على رجوع الصواب اليه

ورأت الملكة انه قادم اليها فاضطربت ..

أما مارييلياك فانه ابتسم ابتساماً هائلاً وقال لها :

. العلك مسرورة يا أماء ؟ ..

لماذا تريدن أن تقتليني على هذا الشكل ؟

فأيقنت كاترين ان ابنها قد علم الحقيقة بحملتها .

فرفعت قبضة خنجرها ، وهي بشكل صليب ، وأخفت نصله تحت

ردائها وقالت :

— أيها الكونت ، لست أنا التي تريد قتلك ، بل هذا الصليب ، وهذه هي

إرادة الله .

ثم رفعت صوتها قائلة :

هذا ما يريد الله !

وعند ذلك حدث ضجيج هائل في تلك الكنيسة يشبه هزيم الرعود ،

وصاحت الفتيات الحسين كلهن بصوت واحد قائلات :

— هذا ما يريد الله !

. وقد هجمت الفتيات هجمة واحدة ، وبرقت الخناجر في أيديهن ، فطاش رأس ماريلياك لهول ما رأى ، ولم يعد يرى في تلك اللحظة غير اليس ولا يسمع غير صوتها يقول : أحبك .

ثم لم يعد يسمع شيئاً ، ولا يشعر بشيء ، سوى ان رأسه قد اهتز ، وأن كل ما كان في ذلك الرأس من القوى العاقلة قد أفلت ، فبات المنكود من غير عقل ، فجعل يكرر قول اليس دون وعي فيقول : أحبك .. هلم بنا نهرب .

فصاحت اليس صيحة سرور وقالت : رباہ ! ما أكثر مراحمك ، فإنه يغفو عني .

وعندها سقط ماريلياك لضربات خناجر اولئك الفتيات .

فزحفت اليس اليه وغطت جسمه بحمها كأنها تريد ان تحميه من تلك الخناجر وهي تقول :

— دعوه . اقتلوني .. اقتلوني أنا ، فهو لا يستحق الموت .

فأجابها صوت الملكة قائلاً :

— هذا ما يريد الله !

فانقضت الفتيات وقد تحمسن بقول الملكة وأجهزن عليه قائلات :

— هكذا يجب ان يموت أعداء الملكة وأعداء الدين .

غير ان اليس تمكنت من رفع رأس ماريلياك ، وتعرض وجهه لنظرات الملكة .

وبينما كان الفتيات يضربنه بالخناجر ، وقد روى دمه بلاظ الهيكل نظرت اليس الى الملكة وقالت :

.... هذا هو ولدك الذي تبغشين عنه أيتها الأقمى ، فانظري الى دمه وليطبع تاريخه على قلبك بأحرف من نار .

ثم سقطت فوق جسم ماريلياك وقد قتلها السم والخناجر ولكنها تمكنت
قبل ان تموت من ضم حبيبها فقبلت فيه وقالت :
- أحبك !

- ١٤ -

مقبرة الأبرياء

ولما تمت تلك المذبحة ، وسكن هياج الفتيات ، قالت لمن الملكة ، بل
تلك الأفعى الهائلة ، بضع كلمات فتفرقن وخرجن من الكنيسة ، وذهبن
الى اللوفر .

ولم يتخلف في الطريق غير واحدة منهن ، فلما مرت بأربعة رجال كانوا
واقفين عند باب الكنيسة يتحدثون بأصوات منخفضة وهمست في آذانهم
بعض الكلمات .

فدخل الأربعة الى الكنيسة ومشوا الى الهيكل فوجدوا امرأة جاثية عند
درجاته وهي بلباس السواد .

فأشارت لهم تلك المرأة إلى جثة ماريلياك
فقال لها أحدهم : وهذه ؟
مشيراً الى جثة اليس .

فأطرقت الملكة برأسها دون ان تجيب
وأخذ الرجال الأربعة جثة ماريلياك وخرجوا بها .

وعندها أطفأت الملكة مصابيح الهيكل الأربعة بحيث لم يبق في الكنيسة
غير مصباح ضعيف معلق بالقبة وذهبت إلى الراهب الذي كان ملقياً تحت
الهيكل مغماً عليه .

فوضعت يدها على قلبه ، فعلت انه حي فأخرجت زجاجة صغيرة
من صدرها وشمته من رائحتها ، ففتح عينيه ونظر إلى ما حوله نظرة من
يستفيق من حلم .

فقال الملكة في نفسها : انه لم ير شيئاً .
ونفض الراهب فخيّل له انه خارج من القبر ، فارت إغماءه كان شديداً ،
حتى انه كاد يصصره ، لو لم تعالجه الملكة بذلك الدواء
فأخذت الملكة عند ذلك بيده ، وذهبت به إلى حيث كانت جثة
اليس وقالت :

إنها ماتت يا مركيز كما ترى ، بل انه قتلها وكنت حاضرة ساعة هذا
القتل الذريع دون أن أستطيع الدفاع .

لأنه رأى ، حين أغمي عليك الرسالة في يدك فأخذها وقرأها .
ولم يأت في حياتي حدة تشبه حدته ، فإنه حين علم ما تضمنته الرسالة
هاج هياج الهانين ، وهجم هجوم الضواري المفترسة على تلك المنكودة فمزق
جسمها بخنجره شر تمزيق كما ترى .
ولكنه مات قتلاً ، فمن أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ .

فإنه حين قتلها وخرج هارباً من الكنيسة رآه حراسي ملوثاً بالدم
والخنجر مشرب بيده فحسبوا انه قتلني ، فقتلوه والقوا جثته في النهر .
إلى اللقاء أيها المركيز فاني أدع جثة هذه المنكودة لعنايتك وأسأل الله أن
يتولاها برحمته ويفسح لها مجال الغفران .

وخرجت الملكة عند ذلك خروج الشبح يعود إلى الظلمات .
فسارت في الشوارع وهي مجردة خنجرها غير خائفة ولا وجلّة ، وعادت

إلى قصرها .
 وبقي الراهب وحده أمام جثة اليس ، فوضع يده على قلبها فوجد أنه
 لا ينبض ، وأيقن أنها ماتت .
 فنظر في جراحها فوجد أنها مصابة بسبع عشرة طعنة في الظهر وبين
 الكتفين والعتق .
 فأخذ مندبله وذهب إلى جرن الماء المقدس ، فغمسه فيه وعاد فغسل
 تلك الجراح ..
 وكرر الغسل مراراً حتى استحال ماء الجرن إلى دم ونظفت الجراح .
 وعاد إلى فحصها فوجد أنه لا يوجد بينها جرح قاتل .
 وحار في أمره إلى أن وجد في أصبعها خاتم له فص كبير تبين له أنه
 مفتوح إذ رآه غير محكم الأقفال .
 ففتحه ووجد تحته حفرة فيها بقية من رشاش أبيض ، فأيقن أنه سم ،
 وإن اليس قتلت نفسها بالسم قبل أن تفتك بها الخناجر .
 فلم يفه بحرف ، ولم يظهر عليه شيء من علائم اليأس والكدر ...
 بل أنه خلع وشاحه العريض ، ولفها به ، ثم حملها وخرج بها من ذلك
 الباب الذي دخل منه ، وسار بها في ظلام الليل ، إلى تربة قريبة تدعى
 تربة الأبرياء .
 وهناك أيقظ الحفار من رقادته ، فدعر حين رأى ذلك الراهب الشهير
 بلباس الفرسان .

فقال له المركيز . أعرفتني ؟
 - من لا يعرفك يا سيدي ومن لم يسمع عظاتك !
 - إذا أريد أن تطيعني .
 كيف لا أطيعك يا سيدي ما زال أهل البلاط يرهبونك وما زلت
 وكيل الخبر الأعظم فينا .

— أريد أن تحفر حفرة تحت هذه الشجرة لأدفن فيها هذه الفتاة

فأسرع الحفار وجاء بمعدات الحفر ..

فلم تمر ساعة حتى حفر الحفرة .

وعند ذلك أنزل اليس في الحفرة وأخرج كيساً ملؤه الذهب ودفعه إلى

الحفار وقال له :

— إذهب وعد بعد ساعة تجد في الحفرة جثتين ، أي جثتي وجثتها فتهيل

التراب عليهما وتنصرف في شأنك .

فدعر الحفار وقال له : جثتك أنت يا سيدي ؟

— نعم ...

— ولماذا أعطيتني هذا المال ، الكي لا أبوح بما رأيت ؟

فهز بانيكارولا رأسه .

فقال الحفار : أم اعطيتني إياه مقابل أجرة الحفر ؟

فقال له المركيز : لا هذا ولا ذاك ، فاذك إذا فزت بكلمة ، أو لم تمتثل

لأمري قتلت شقياً ، إذ يوجد واحد من رجالي يراقبك ، وأما أجرتك فلا

أجرة لك ، لأنك حفار التربة .

— إذاً لماذا أعطيتني المال ؟

— لأنه سيجيئك غلام في السادسة من عمره ويسألك عن موضع قبر أمه

فمن جاءك تدله على هذه الحفرة وتقول له : هذا قبر أمك وأبيك ، فانصرف

الآن وعد بعد ساعة كما قلت لك .

فامتثل الحفار وعاد بعد ساعة ، وكان الفجر قد انبثق فوجد الراهب

بانيكارولا مضطجعا في الحفرة بجانب اليس وهو ميت لا حراك به

فدعر ذعراً هائلاً ، ولكنه أسرع فأهال التراب على الجثتين قبل أن يأتي

أحد من زوار القبور .

أما المركيز فإنه انتحى بنفس السم الذي انتحرت به اليس ، وكان

وجهه بازاء وجهها فمات وبقيت علائم الاشفاق بادية على وجهه كأنها تحدث عنه فتقول :
اني لم أستطع رحمتها في الحياة فرحمتها بالموت .

- ١٥ -

غرام بيبو

ولنذكر الآن في هذا الفصل كلمة عن بيبو كلب بارداليان ، فقد كان له دور خطير في هذه الرواية بحيث لا يليق بنا إغفاله .

كان بيبو هذا ، على أتم حالات الهناء في قصر مونغورانسى ، لا يبخلون عليه بشيء مما تتوق اليه نفسه ، حتى انه كاد ينسى السرقة لعدم احتياجه اليها .

وكان مرجع الفضل في هذا إلى خبثه ودهائه ، فإنه صادق طبابخ القصر ، فكان لا يفارقه لحظة في النهار ، ويظهر أحسن ما يظهره الكلاب من التودد ، حتى خدع الطبابخ بصدق وداده وبات لا يشغله غير إرضاء هذا الكلب الأمين .

كان بيبو يقيم النهار كله في المطبخ حتى إذا أقبل الليل صعد إلى غرفة صاحبه بارداليان ونام عند قدميه .

وقد اتفق ليلة أن بارداليان لم يعد في الليل فجعل بيبو يطوف في الغرفة حائراً قلقاً ، ولم يذق في تلك الليلة طعم الرقاد .

وعند الصباح بحث عنه في جريم القصر فلم يجده ، فخرج إلى الشوارع وعاد إلى غرفة بارداليان فلم يجده فكان تعسا حزينا

وقد امتنع عن الطعام حتى ان الطباخ صاحبه القديم ناداه فلم يلتفت اليه ، واراد أن يقبض عليه فكشر له عن أنيابه بحيث أيقن الطباخ أن صداقة هذا الكلب كانت خبيثا ونفاقا .

وصبر بيبو إلى اليوم التالي ، ولما رأى أن صاحبه لم يعد ، أيقن انه غير عائد .

فخرج من القصر ، وأقام طول تلك الليلة عند بابيه ، وفي الصباح هب من رقاده وانطلق انطلاق السهم كأنه سائر في شأن خطير .

لأنه خطر له أن صاحبه قد فارقه مرة حين ذهب إلى الباستيل ، فلا بد أن يكون هذه المرة أيضاً في الباستيل .

وكان يسير راكضاً كالفرس الجامح لا يلوي على شيء ، فصدم ثلاثة أطفال ، وأوقع امرأة عجوزاً ، وقلب ثلاث سلال من البيض ، فتكسر ما فيها .

وما زال يركض والفلمان يركضون في أثره ويرشقونه بالحجارة ، حتى وصل إلى الباستيل .

ورقف تحت تلك النافذة التي كان فيها بارداليان ، حين رمى اليه الورقة ، وجعل ينظر إلى موضعها ، فلا يجد أثراً لصاحبه ، ولا للنافذة نفسها ، لأن حاكم السجن كان قد أمر بسدها من قبيل الاحتياط بعد حادثة بارداليان .

فطاف نحو ساعة حول الباستيل وهو ينبج نباحاً مختلفاً . حتى إذا قنط من لقاء صاحبه في الباستيل ، هرول بنفس تلك السرعة السابقة إلى فندق دفنير .

وهناك بدأ بالصعود إلى غرفة بارداليان . .

ثم تنقل في غرف الفندق ، فما زال يطوف بها ، حتى رآه صاحب
الفندق ، فاستغاث بالخدم من هذا السارق ، وهرب بيبو مطروداً
بالعصي والمكانس .

وقد علم أن صاحبه غير مقيم في الفندق ، إذ لو كان فيه لما تجاسروا على
إهانته مثل هذه الإهانة .

وركض حتى ابتعد عن الخطر فوقف هنيئة يفكر إلى أن خطرت له
خسارة كاتي فذهب عدواً إليها .

فبلغها وهو يكاد يموت جوعاً وعطشاً وقد اندلع لسانه وانبطح على الأرض
من فرط التعب .

وقد عرفت كاتي أنه كلب بارداليان ، فأحسنّت إليه وأطعمته وسقته
فطاب له المبيت تلك الليلة في الخمارة فبات فيها .

وفي الصباح ودع كاتي شاكرأ وعاد كئيهاً حزيناً إلى قصر مونغورانسي
فأقام كل النهار عند بابيه لا يحسر أن يدنو أحد منه لغضبه .

وفي الليل ذهب إلى زاوية قرب القصر فبات فيها .

وفيما هو على ذلك هب فجأة وجعل يحرك ذنبه تحريكاً لطيفاً إشارة
إلى السرور ..

فهل شم رائحة صاحبه ففرح هذا الفرح ؟
هذا ما يتوقعه القارئ ..

ولكن لا بد لنا من الاعتراف بالحقيقة ، وهي أن بيبو شم رائحة كلبه
فهاجت كوامن غرامه ، ونسي حزنه لبعده صاحبه وأسرع يبحث عن تلك
العشيقّة التي لم يعرفها بعد إلا بالرائحة .

وبعد حين أدركها وهي مع رجلين كانا يرودان حول قصر مونغورانسي
ويتحدثان ..

ولم يحفل الكلب والسكبة وجعلا يتشاكياں الغرام .
وكان هذان الرجلان هنري دي مونفورانسي وصفيه الفيكونت اسبرمونت
وقد قدما لفحص قصر فرنسوا بغية مهاجمته .
وبعد أن علما ما ارادا معرفته ، رجعا إلى قصر هنري وتبعتهما
السكبة .

ولكن بيبو كان قد علق بغرام تلك المشيقة فأنساه الغرام كل ما كان
يحده من الحزن على مولاه وتبع تلك المشيقة .
فلما دخل هنري والكونت إلى القصر واقفلا الباب كان بيبو وعشيقتة قد
سبقهما الى الدخول ..
فبات بيبو ، العاشق المفتون ، ضيفاً لهنري دي مونفورانسي عدو
مولاه بارداليان .

الاميرال كوليني

لندع الآن بيبو منهمكاً بفغرامه ، ولندع كاتي مع البغيتين يشتغلن في أمر سري ولندكر شيئاً عن الأميرال كوليني قبل ان نعود إلى بارداليان وإبنه في سجن التامبل فندخل بالقراء إلى قصر اللوفر .

كانت الحفلات تتوالى في ذلك القصر ، منذ يوم الاثنين الواقع في ١٨ أغسطس .

وكانت علائم الارتياح بل السرور ظاهرة على وجوه الهوكينوت .. فان الملكة كاترين عرفت كيف قطمئنتهم ، وتمحو من نفوسهم آثار المظنة والريب .

ولم يكن بين سكان اللوفر ممن يبدو عليهم الاضطراب غير الملك شارل التاسع ، فكانت منقبض النفس يحول في قاعات المحتفلين وعليه علائم السويدة .

ففي صباح يوم الجمعة برج الأميرال كوليني قصر بيتيهسي وذهب منه إلى اللوفر .

وكان يخفّره حسب العادة ستة من الهوكينوت ، وهو متأبط ملفساً من الأوراق تتضمن خطة الحملة النهائية ، على الدوق البيا ، إذ قد عهد إليه بالقيادة العليا .

وكان سائراً بها إلى الملك كي يقرأها ويوافق نهائياً على تلك الخطة .
وكان الملك قد صحا من رقاذه ودخل كبار رجال البلاط إلى غرفته ،
فكان يستقبلهم باشاً طلق الوجه ، لأنه صحا مرتاح النفس ، ولم يحلم أحلاماً
مزعجة في تلك الليلة .

فلما رأى الملك الأميرال داخلاً حياه بملء الانعطاف وقال له :

- لقد حلت الليلة يا أبي أنك غلبتني .

- أنا يا مولاي ؟

- نعم ، أنت نفسك .

فقلق من سماع هذه الجملة من الهوكينوت ، وقرح لها الكاثوليكيون وتوقع
الفريقان أموراً هائلة بعد هذه المازحة .

ولكن الملك ضحك بعدما رأى ما كان لكلمته من التأثير وقال :

- نعم ، حلت يا أبي أنك غلبتني بلعب الكرة ، وأنا أعظم اللاعبين بها

في فرنسا .

فابتسم هنري دي نافار وقال :

- وفي بلاد النافار أيضاً يا مولاي .

فشكره الملك بنظرة وعاد إلى مخاطبة الأميرال فقال :

- إني أريد أن اثار منك فلا أطيق أن أكون مغلوباً ولو في الحلم فهلم بنا

إلى الحديقة .

فأجابه الأميرال قائلاً :

- ولكن جلالة مولاي يعلم اني لم لعب هذه اللعبة في حياتي .

- ولكنك غلبتني في الحلم ، فما حيلتي بأخذ الثأر .

فتصدى له عند ذلك تاليني وقال :

- إذا أدت مولاي نبت عن الأميرال وأنا واثق اني مغلوب .

- ليكن ذلك ، فأنت والأميرال واحد ، وكل ما أرجوه أن اثار

من خصمي .

ثم التفت إلى الأميرال وقال له ،
- أرجوك أن تعذرني يا أبي فسننظر مساء في هذه الأوراق .. تعال يا
تاليني وأنت أيضاً يا دي كيز .

ثم نزل الملك إلى الحديقة وهو يصفر نشيد صيد ، فتبعه بعض الحاضرين
وبدأ اللعب .

وأما كوليني فقد بقي في الغرفة مع بعض الأعيان .
وكانت الملكة كاترين مع الحاضرين فنظرت إلى كوليني نظرة غيظ وغدر
وذهبت إلى غرفتها .

وقد لقيت عند بابها مورفر فينظرها .
فانحنى أمامها وقال لها : اني أنتظر أمر جلالتك ، وأن تقول
الكلمة الأخيرة .

فقالت الملكة .. إفعل ، وهذه كلمتي الأخيرة .

فانحنى مورفر إشارة إلى الامتثال ، وقد خطر له في تلك اللحظة انه لا
بد له من استئذان دي كيز ، وان دي كيز قال لا تقتل الأميرال بل اجرحه
فقال للملكة :

- وإذا اتفق اني أخطأت المرمى ياسيديتي .
فأجابته بملء السكينة : تعيد الكرة فلا تخطئه .
- وعلى هذا فإن أسيري سجن التامبل يكونان لي سواء قتل الأميرال
أو لم يقتل .

- هو ذاك بشرط أن أحضر تعذيبهما واستنطاقهما .

ثم تركته الملكة ودخلت إلى غرفتها .
وبعد هنيهة كان مورفر خارجاً من اللوفر .

وقد سار توما إلى المنزل الذي ينوي إطلاق الرصاص من نافذته على
الأميرال ..

أما صاحب هذا المنزل فقد كان أقفل أبوابه ونوافذه ، وأخبر الجيران
أنه مسافر إلى بيكارديا لزيارة أهله ، فكان الجيران يحسبون أن البيت
غير مأهول .

فدخل مورفر إلى المنزل من باب سري صغير ، فوجد فيه صاحب المنزل
فقال له : لقد آن الأوان .

فأجابه فلمر صاحب المنزل : لقد عرفت فاتبعني .

فتبعه مورفر ، وسار به فلمر إلى باب ففتحه وأراه جواداً مربوطاً
فقال له . هذا الجواد معد لفرارك ، وهذه الصحراء التي تراها تؤدي إلى
نهر السين .

فقال مورفر . من الذي اهتم بأمر فراري ؟

- الدوق دي كيز ، وهذا الجواد من اصطبله ، فإنك تخطيه وتسير به
إلى باب سانت أنطوان ، فيأذنون لك بالخروج منه وتذهب توما إلى ريمس ،
وهناك تنتظر .

فابتسم مورفر وقال : أتظن ان فراري واجب .

- بل أرى انه لا بد منه أو تعرض نفسك للقتل .

- إذا سأهرب .

وقد قال هذا القول وهو مصمم على البقاء .

ثم دخل الاثنان إلى القاعة فأخذ فلمر بندقية محشوة وقدمها لمورفر .

ففحصها مورفر وقال : إنها صالحة فهل بنا ، لقد تركت الأميرال على وشك

الخروج من اللوفر .

وذهب الاثنان إلى غرفة مشرفة على الشارع ، ووضع مورفر البندقية

على حديد النافذة ولبث ينتظر مرور الأميرال .

وبعد هنيهة رأى الأميرال مقبلاً ومعه ستسة من حراسه يسرون خلفه وأمامه وهو في وسطهم .

ولما اقتربوا من النافذة ، وبلغوا مرمى البندقية صوب مورفر البندقية وأطلق النار .

وصاح كوليني صيحة ألم وأشار بيده الدامية إلى النافذة ، لأن الرصاصة أصابت يده .

فدعر الحراس وأحاطوا بالأميرال .

وفي ذلك الحين ، أطلق مورفر طلقةً ثانية ، فأصاب الأميرال في كتفه الأيسر .

وعندها أسرع الناس مهرولين حتى إذا علموا أن الذي أصيب هو الأميرال كوليني الهيكولوتي تراجعوا غير مكترئين .

وقد كان الأميرال سقط على الأرض بعد الإصابة الثانية .

فقال فلسر : لقد قتلتته .

وابتسم مورفر وقال : هو ذاك فيما أظن .

.. اهرب إذاً وأسرع في الفرار .

— وأنت ؟

— لا تخف علي .

وأسرع مورفر وخرج من الباب الذي كان مربوطاً عنده الجواد فامتطاه

وأمعن في الفرار .

وأما فلسر فإنه نزل إلى قبو منزله ففتح كوة في أرض القبو ونزل منها في

سلم طويل واختفى .

وأما كوليني فإنه لم يقتل كما توهم مورفر ، بل انه جرح بجرحاً بالغاً في

كتفه ، وتهافت بعض حراسه ، وهجم الباقون على باب المنزل الذي أطلقت

البندقية من نافذته ، وجرّد الذين كانوا حول كوليني سيوفهم ، كأنهم

يتأهبون لمركبة .

أما كوليني فإنه نظر إليهم نظرة سكينية وقال لهم : ليمرر أحدكم
بإخبار الملك .

وأسرع واحد من الحراس وانطلق عدواً إلى اللوفر .

وقد حاول كوايني أن يقف ، فلم يستطع ، وجعل حراسه يلتصقون
من الناس المتجمعين أن يأتوهم بكروسي ينقلون عليها الأميرال ، فلم يجب
التماسهم أحد .

وعند ذلك ، شبك إثنان من الحراس أيديهما بأيدي بعض ، وأجلس
الآخرون كـوليني على تلك الأيدي ، بحيث باقت كالكرواسي ، وساروا
به إلى قصره .

ولما ابتعدوا قليلاً جعل الناس يصيحون قائلين :

ليمت الهوكينوت !

وكان الحراس كلما تقدموا بالأميرال التقوا بفريق من الهوكينوت .
وكان بعضهم يبكون إشفافاً على الأميرال ، وبعضهم يهيجون ويطلبون
الانتقام .

ولكن كوليني لم يفقد رشده ، وكان يسكن هياجهم ويسألهم أن يخلدوا
إلى السكون .

ولما وصلوا إلى شارع بيتهيسي ، حيث كان يقيم الأميرال كان عددهم قد
بلغ نحو المائتين .

وقد هاجوا هياج المجانين وشهروا سيوفهم يندرون ويتوعدون .

وكان الكاثوليكيون يرون بهم جماعات وهم ساكتون واجمون .
وقد انتشر خبر جرح الأميرال بسرعة عجيبة ، ولم تقض ساعة حتى عرف
به جميع أهل باريس .

وخرج الرجال مسلحين وجعلوا يطوفون في الحانات فرحين راقصين .

وخرج الرهبان من أديرتهم وجعلوا يقولون للناس .. إن الله ضرب عدو الكنيسة وانتقم للمؤمنين وإنها خير علامة لإبادة الهوكينوت .

فيصيح الناس بعد هذه الأقوال : لتحيى الكنيسة !
وكذلك الهوكينوت فقد تألبوا حول قصر الأميرال حتى بلغوا نحو ألف رجل وعولوا على الدفاع حول ذلك القصر حتى الموت .
ولكنهم لم يلبثوا أن علموا أن جرح الأميرال غير خطر ، وإن الذي أطلق عليه الرصاص رجل من العوام . فردوا السيوف إلى أغمارها وسكن ثأثرهم ، ولكنهم لبثوا واقفين حول القصر .

وبعد هنية حدث لفظ عظيم بين المختشدين ، فانهم رأوا مركبة قادمة إلى قصر الأميرال تتقدمها فرقة من الفرسان .
فصاحوا جميعهم قائلين :
- هوذا الملك .

ورفعوا قبعاتهم إحتراماً .

ومع ذلك فإن الحقد تغلب عند بعضهم على الاحترام فصاحوا عندما رأوا الملك قائلين :

- الانتقام .. الانتقام !

أما المركبة فانها وفقت هنية قبل أن تدخل إلى قصر الأميرال . فرأى الناس فيها الملك وأمه كاترين وأخاه الدوق دالنجو .
وكان الملك مصفر الوجه مضطرب الأعضاء ، فأطل من المركبة وقسمال يخاطب الهوكينوت :

. اني أريد أن انتقم للأميرال ايها السادة فوق ما تريدون .. فان الأميرال ضيفي وهو عندي بمنزلة أبي فاطمئنا فسيقبض على القاتل ويعاقب عقاباً هائلاً تذكره توارينخ الأحقاب .

وتناقلت الأفواه كلمات الملك ، وصاحوا جميعهم بصوت واحد

هاتفين :

ليحيى الملك !

* * *

وكان السبب في قدوم الملك ، انه بينما كان يلعب بالكرة وهو فرح مسرور ، جاءه البارون دي بونت ، أحد حراس الأميرال كوليني وعليه علائم الذعر والدموع تذرف من عينيه .

ولم يصبر إلى أن يسأله الملك حسب الأصول ، بل بدأ الحديث فقال :
— مولاي انهم قتلوا الأميرال .
فجمد الدم في عروق الملك .

وسمع ملك النافار وتاليني وكونديه هذا القول المفجع فأسرعوا بالذهاب إلى قصر الأميرال .
أما الملك فقد كان اضطرابه شديداً لهذا النبأ فأمر البارون أن يخبره بتفاصيل الحادثة .

وبعد أن أخبره البارون بما عرفه القراء عن إصابة الأميرال ، القى الملك عصاه على الأرض مغضباً ، واصفر وجهه وجعل يضحك ضحكاً هائلاً ، أشفق منه المقربون على الملك ، إذ كانوا يعلمون أن هذا الضحك مقدمة النوبة العصبية التي تصيبه ، أو مقدمة غضب هائل يندفع فيه مع تيار الطبع دون تحسب للمواقف .

غير أن النوبة لم تصبه هذه المرة ، بل انه غضب غضباً شديداً وقال :

.. لقد كفى ما يجري إلى الآن ، ففي كل يوم لنا قتيل .. أيها الباريسيون انكم لا تعملون الا بما يخطر لكم ، وانا أريد أن اقتدي بكم ، فلا أعمل الا بما يخطر لي ..

واذا كنتم تتخذون الكنيسة حجة لقتل الهوكينوت ، وسأجمل
الهوكينوت ينتقمون منكم ومن الكنيسة ومن دي كيز .
وهنا توقف فجأة كأنه ذكر وصايا أمه ، أو خشي أن يكون قد طُرف
في القول ، وأسرع بالعودة الى غرفته ، وفادى مستشاره ، ورئيس البوليس
وقال للثاني : اني أمهلك ثلاثة أيام للقبض على قاتل صديقي الأميرال كوليني .

.. ولكن يا مولاي ..

.. اذهب ولا تنس اني أمهلك ثلاثة أيام فاذا لم تقبض في خلالها على
القاتل كنت شريكاً في القتل وأمرت بمحاكمتك

فانصرف رئيس البوليس وقلبه يخفق رعباً .

والتفت عند ذلك الى المستشار وقال له : ماذا جعلنا عقاب من يحمل

الأسلحة ؟

فأجابه المستشار هو الفرامة يا مولاي على نسبة ثروة الفارم ،

والحبس ..

.. اذا أريد اليوم اصدار أمر جديد يتضمن غير هذا العقاب وهو ..

ان كل من يحمل اسلحة على اختلاف انواعها يقبض عليه ويحبس في

الباستيل عشرة أعوام دون محاكمة ..

ومن يحمل اسلحة ويخبئها تحت ثيابه يشنق بعد القبض عليه بيوم واحد .

— مولاي ، اني سأنشر هذا الأمر الآن ، ولكني التمس من مولاي

ابداء ملاحظة .

.. قل .

— هل يشمل هذا الأمر جميع الباريسين على الاطلاق ؟

— دون شك ما خلا النبلاء .

— هو ذاك يا مولاي ، غير انه لا يوجد باريسي يخرج دون سلاح في

هذه الأيام

- وماذا تريد بذلك ، أتعني ان نظام البوليس عندنا مختل ، ثم تقول ذلك بلء السكينة ..

كلا ، يجب ان نضع حداً لهذا الخلل ، ولكل شيء نهاية . ام تقول انه يصعب أن نقبض على جميع الباريسيين لأنهم كلهم مسلحون .. نعم نقبض عليهم جميعهم .
ولكن اطمنن يا حضرة المستشار فاننا اذا شقنا عشرين رجلاً فقط منهم كانوا خير عبرة للآخرين ، فانصرف الآن وانشر هذا الامر .
فانحنى المستشار وخرج .

ثم التفت الى من كان حوله من الاعيان وقال: أريد أن تجاملوا الهوكينوت فانهم ضيوفي ، ومن أراد منكم تجريد حسامه فليجرده في خدمتنا وخدمة المملكة ، لا في سبيل الحروب الدينية . ان الهوكينوت الآن من حلفائنا وأريد ان تعلموا ذلك .

وعند ذلك اشار اشارة فانصرف الجميع وجلس في كرسيه يتحدث نفسه فيقول :

اني اود لو خسفت الارض بقاتل الاميرال ، فقد تأخرت الحملة بذلك ولا راحة لي الا بهذه الحرب التي تبعد جميع الهوكينوت عن المملكة في اثر زعيمهم ، فليبعدوا عني اعش آمناً مطمئناً .

وبعد ، فان امي تقول ان هذا الاميرال يخونني ويخدعني .
وهب انها كانت مصيبة في مزاعمها ، اليس من الحكمة ان أعطيته جيشاً فيسافر به الى هولندا مع قومه واخلص من فتنه .

ومن يبقى بعد بعده غير هنري دي نافار و الدوق دي كيز ؟
اما هنري دي نافار فقد عاهدت الى أختي مرغريت بمراقبته وهي تكفيني شره لانها تحبني .

ومتى امنت جميع أعدائي ولم يبق بينهم غير دي كيز فاني لا أعبأ به .

هذه هي سياستي ، وهي افضل من سياسة البابا وسياسة أمي ، فان
السياستين واحدة كما ارى .
ثم اطرق هنيئة مفكراً وقال :
- نعم ، لا يبقى علي غير دي كيز .. واخي الدوق دالنجو حبيب
امي ! .
واقام الملك في غرفته نحو ساعتين وحده اظهراً لحزنه علي الاميرال .
ثم تغدى علي عجل وابلغ امه واخاه الدوق دالنجو انه يريد ان يصحباه
الى قصر الاميرال .
وبعد هنيئة سار الثلاثة في مركبة ملكية يخفرهم قائد الحرس بحراسه .

* * *

وكانت الملكة وابنها الدوق دالنجو يتحدثان خلال المسير بمعجبة جديدة
حدثت في كنيسة سانت جرمين .
وهي انه منذ ثلاثة ايام دخل الكاهن الى الكنيسة فوجد جرن الماء
المقدس قد تحولت فيه المياه الى دماء .
وهي دماء اليس حين كان الراهب يبل منديله بذلك الماء ويسبح به جراح
تلك المنكودة .
وكانت الملكة تقول : لقد تحول الماء منذ بضعة ايام الى دم في الدير ،
وامس قد تحول الى دم في الكنيسة ، فلا شك ان تكرار هذه المعجائب يدل
علي ان الله يريد سفك الدماء .
فأجابها الدوق : ان الامر جلي واضح ، وكذلك الشعب ، فقد كاد يشور
علينا لرأفتنا بأولئك الهوكينوت .
وكان الملك يسمع حديثها مصغياً ويقول في نفسه :

قد يكون هذا حقيقة إرادة الله ، وإلا فما معنى تكرار هذه المعجائب بشكل واحد .

غير انه حين وقفت المركبة عند باب قصر الأميرال ورأى الملك جموع الهوكينوت ثائرين ثاقبين ، زجع عن الاعتقاد بتلك المعجائب وخاطب الجموع بما تقدم لنا ذكره ..

وصاحوا جميعهم بصوت واحد :
ليحيى الملك !

ودخل الملك وأمه واخوه إلى غرفة كوايني . فبرقت أسيرة كوايني سروراً حين رآه .

ودنا الملك منه فعانقه وقال :

— أرجو أن يشنق هذا المعتدي الأثيم قريباً ، وأن لا تكون في خطر ..

وكان طبيب الملك واقفاً عند سرير الجريح ، فالتحنى أمام الملك وقال :
— إني أضمن يا مولاي شفاء الأميرال في أسبوعين .

وقال الدوق دالنجو :

— لقد ساءني جداً ما أصابك يا حضرة الأميرال وأرجو أن يكون الشفاء قريباً باذن الله .

ومسحت الملكة كاترين دموعها وقالت :

— أسأل الله أن يحرس أشهر أبطالنا وقوادنا ، فإن اعتمادنا عليك وثقتنا بك لا يقفان عند حد .

وظهرت علائم السرور على جميع من كان في الغرفة من الهوكينوت وهتفوا للملك وأمه وأخيه .

وأقام الملك نحو ساعة عند الأميرال ، ثم انصرف على أن يعود أيضاً في الغد ليراه .

- وقد تلقى الهوكينوت هذه الأقوال بمثل الهتاف السابق .
- وقادى الملك عند ذلك كوسيني رئيس حراسه وقال له بصوت مرتفع
يسمعه الجميع :
- كم لديك من الفرسان ؟
 - فرقة كاملة يا مولاي .
 - إذا ... فهي تكفيك للدفاع عن هذا القصر ، إذا أرادوا مهاجمته ..
 - اني أقاول بفرقتي يا مولاي ثلاثة آلاف محارب ..
 - حسناً فابق هنا برجالك ، فقد عهدت اليك حراسة هذا القصر ، وأنت المسؤول عن الأميرال .
 - ولكن ، من يخفر جلالتك إلى اللوفر يا مولاي ؟
 - يخفروني أشرف الهوكينوت ، ويسرني أن يكون لي ولو ، مرة مثل هذا الحرس .
 - وارتفعت أصوات الهوكينوت بالهتاف حتى كادت تطبق القصر .
 - وغمرت الملكة كاترين ابنها الدوق دأنجو وقد فرحت فرحاً عظيماً وقالت للملك :
 - ما هذا الخاطر الجميل يا بني إنه يشبه أن يكون وحيًا !
 - فقال لها : ليس كذلك يا أماء ، ألا يحمل بملك فرنسا أن يدع حراسه عند ضيفه الجريح .
 - أحسنت غاية الاحسان ، يا بني ، فهذا خير مما يعمل في هذا المقام ..
 - وعلى هذا خلا قصر الأميرال من الهوكينوت ..
 - وسار جميع رجال الهوكينوت في حراسة الملك إلى اللوفر .
 - وفي المساء أحيا الملك حفلة باهرة لسلامة الأميرال من الخطر .

وكان فرح الملك أكيداً ، فأعلن أن الحملة على الدوق الباسير بعد أسبوعين ، أي في يوم شفاء الأميرال .

وقد قامر تلك الليلة مع هنري دي نافار ، فربح منه هنري مئتي دينار ، وسار بها إلى امرأته مرغريت وقال :

— إذا دام الأمر على هذا المنوال ، أصبحنا بفضل أخيك من الأغنياء ..

ونظرت مرغريت إلى ما حواليلها نظرة قلق وقالت :

... هنري .. يجب الحذر .

— ومن أحمذر أيتها الحبيبة ، فإن أخاك طاهر القلب ، سليم النية .
— ربما ، ولكن أنظر إلى أمي ، فلاني لم أرها سرت مثل هذا السرور قبل اليوم .

وفي الساعة العاشرة انصرفت الملكة كاترين إلى غرفتها بعد أن ودعت جماعة الهوكينوت وقالت لهم بصوت مرتفع :

— أسعد الله ليلتكم يا أهل الإصلاح وأنا ذاهبة لأصلي من أجلكم .
وعند انتصاف الليل أقفر اللوفر وساد فيه السكون .

الليلة الهائلة

كان الملك قد دخل إلى غرفة رقاد فساعدته خادمه الخاص على تغيير ثيابه ، ثم البسه ملابس النوم ، وانصرف بعد أن أطفأ جميع الأنوار ، ولم يبق غير مصباح زيتي ضعيف النور .

وقد مضى على ذلك ساعة والملك مضطجع لا يستطيع الرقاد . فقد كان يفكر ، ولكنه لم يكن يفكر بأمور السياسة وقدبير المملكة بل كان شأنه في تفكيره ، شأن معظم أهل المزاج العصبي في استرسالهم إلى التصورات الخيالية .

وبدأت تمر به خيالات الهوكينوت ووعيدهم وسيوفهم المشهرة في شارع بيتهيسي ..

ف اضطرب لهذا التصور إلى أن يفكر بما وعد به من الانتقام ، وبما سمعه من أصوات الهتاف والدعاء ، فيخف ما عنده ، وينصرف بأفكاره إلى خليلته ماري توشيت .

وعند ذلك ، جعل يناجي تلك الخليفة وهو يتسم ، حتى نام وهو يحلم بها .

وفيا هو في أعذب أحلامه سمع نقرأ على باب غرفته فصحا وجلس في سريره وهو يصغي

وكان لغرفته المتسعة ثلاثة أبواب، أحدها باب كبير ، وهو الذي يفتحونه حين رقاذه ودخول المربين اليه في الصباح .

وباب كان يخرج منه إلى قاعة الطعام .
وباب ثالث يشرف على رواق ضيق ، فلم يكن يدخل منه غير الملك وأمه .

وقد سمع صوت الطرق على ذلك الباب ، فأيقن أن الطارق أمه فوثب من سريره اليه وقال : أهذا أنت يا أماء ؟
- نعم يا بني ، ويجب أن أحدثك في الحال .

ففتح الباب ، ودخلت أمه فبدأته بالحديث قائلة :
- لقد اجتمع عندي الآن يا بني مستشارك ، والمسيو كونديه ، والدوق دي نافرس ، والمارشال دي تافسان ، وأخوك الدوق دالمجو للمداولة واتخاذ الوسيلة الناجمة لانقاذك وانقاذ المملكة ، وهم ينتظرون الملك للإطلاعه على نتيجة قراراتهم بهذا الشأن .

وجد هنية ثم قال :
- إلى لو لم أكن واثقا من ثبات جأشك ، وقوة عقلك ، لما شككت أنك أصبت بمس من الجنون .. وكيف ذلك يا أماء أتيقظيني من رقادي ، وتأتين إلي بعد انتصاف الليل ، لتخبريني ان هؤلاء الأسياد يتداولون .

وبعد ، فبأي حق يتداولون في شؤون المملكة ومن الذي دعاهم إلى الاجتماع ، وأي خطر يندرني وينذر المملكة ؟
هل عرف الاسبانيون أني جردت حملة على هولندا ، فاغتنموا هذه الفرصة لمهاجمتنا ؟

أم حل وباء الطاعون في باريس .
ثم ما شأن كوندي في المداولة وهو ابن طباطبائي فليتنصرف إلى إدارة

المطابخ وليدع لنا شؤون الملك .
وما شأن دي برياك في هذه المداولة وهو رجل طباع لا يروق له غير
سفك الدماء كي يغتم منها بعض الألقاب ..
بل ما شأن جميع المتداولين ، ولبتداولوا قدر ما يشاؤون وليدعوني
أنا بسلام .
ثم أدار ظهره للملكة وحاول الصعود إلى سريره .
وقالت له أمه بلاء البرود :
- شارل ... لا تصعد الى سريرك ، أو يكون ذلك آخر صعودك اليه .
وعاد الملك اليها وقد احمرت عيناه لذعره مما سمع واصفر وجهه فقال :
ولكن ماذا حدث ؟
وعلمت الملكة ان الرعب قد تولاه وقالت :
- إن لك لحسن الطالع يا بني أصدقاء يسهرون عليك ، فقد حدث انه
لولا يقظتهم لهوجم اللوفر بعد يوم على الأقل ، فقتل الملك ونفيت أمه .
ولكن هؤلاء المخلصين الذين ذكرت لك أسماءهم ، أخبروني فأبيت
لأخبرك ..
والآن عد إلى الرقاد إذا أحببت وأنا أخبر أولئك المخلصين أنه لا فائدة
من اجتماعهم ، فان الملك يريد أن ينام .
ووضع يده فوق جبينه وقال : يهجمون على اللوفر .. يقتلون الملك ما هذا
الحلم ، بل ما هذا الجنون .
فأخذت الملكة ذراعه وضغطت عليه بعنف وقالت :
- شارل .. لست أنت الحالم ، بل أنا الحاملة حين أراك لا تثق بأهلك
وبأخيك وبين محبوبتك ، أولئك الذين يضمن لك صدق ودادهم إتصالهم
بخدمتك .
وأما الجنون ، فهو أن تسلم نفسك مكتوف اليدين والرجلين إلى أولئك

الهو كينوت الذين لا يفتأون يدسون الدسائس وأنت غافل عنهم ، حق يظفروا
بما يريدون ، ولا ينالوا ذلك إلا حين يقتلون ابن الكنيسة الأكبر ، أي
ملك فرنسا ..

وماذا عملت يا شارل ..
إنك غمرت أولئك الأعداء بإحسانك ، وأظهرت لهم من ضروب
العطف والمجاملة ما حسبه ضعفاً فطمعوا فيك وبعرشك .
إنك أرضيت أعداءك وأسخطت أصدقاءك ، بل أرسلت اليأس إلى قلب
الكتلكة ، فقام الطامعون يحاولون الانتصار لها ..

ومبدي كيز ، برئاسة ثلاثة آلاف سيد ، يريد بالرغم عنك إنقضاء
فرنسا والكنيسة .

ولقد أصبحت الآن بين قوتين هائلتين .
إحدهما الهو كينوت ، أولئك المتكبرون الجريشون الذين لا تثنيهم الصعاب
عن تأييد مذهبهم دون مذهبنا .
وقوة الكاثوليكين القانطين الناقمين المتأهبين للثورة العامة .
إن ذلك خطير يا شارل ، حتى اني بت أسألك نفسي إذا كان يجب إنقاذ
حياتنا بالهرب ، قبل إنقاذ عرشنا وشرفنا .

وإن خطتك التي نهجتها اليوم قد نفخت الرماد عن النار ..
بل ألقى النار في البارود ، لأنك حين أقسمت أن تنتقم لذلك الأميرال
المميز عن ذلك الجرح الذي أصيب به ، أثرت الشعب بجهلك ، وحدثت
ههاتان الأعجوبتان ، فكان ذلك دليلاً عندهم ان الله يريد الانتقام من
أعداء دينه .

ثم إنك أصدرت أمرك بمنع حمل السلاح فجاءني رؤساء البوليس ينادون
بالويل ، ويقولون انهم لا يستطيعون مقاومة سخط الشعب .
وقد زدت طينة هذا السخط بلة بأن جعلت حراسك اليوم من الهو كينوت

كأنه لم يبق من اشراف الكاثوليك من يتولى حراسة الملك .
نعم إني اعلم حقيقة قصدك ، وهو إنك لا تريد غير السلم ، وإنك تريد
ان تتخلص من الهوكينوت بارسالهم مع قائدهم الأكبر إلى هولندا لمحاربة
دوق البيا ، فتبقى في بلادك دون منازع .

ولكن الأمر قد التوى علينا الآن ولم يبق لدينا غير ساعات معدودة إذا
لم نعزم بها العزم الأكيد ، ونضرب الضربة القاضية ، دارت الدائرة علينا
وانقلبنا شر منقلب .

ثم رفعت يديها إلى السماء وقالت :

— رباه أوح اليه ان امه صادقة وان الساعة قد دنت ، وانه لم يبق لديه إلا
ان يقتل او يموت .

فاضطرب وقال :

— أنا اقتل .. الا تحذوني إلا بالقتل . ومن تريدون ان اقتل ؟

— كوليني ا .

— محال ا

ثم شعر كأنه قد اصيب بدوار ، ورعب رعباً عظيماً ، ونظر إلى ما
حواليه نظرات المجانين ، إذ كبر لديه ان يقتل هذا الأميرال وهو ضيفه في
بلاده ، بل هو صديقه الحميم ، وهو الذي دعاه إلى باريس ، فكأنه لم يدعه إلا
لاغتتياله وهي خيانة يأنف منها اللصوص .

وكانت أمه قد حدثته مراراً بشأن هذا الأميرال وأكدت له انه ضده ،
حقاً أو شكاً ان يصدقها ولم يعد يموزه إلا البراهين فقال لها :

— لقد قلت لي يا اماه انه لديك براهين تثبت خيانة كوليني والهوكينوت

فأين هي هذه البراهين ؟

— تريد البراهين . إنك ستراها .

— ومتى يكون ذلك .

— غداً صباحاً ..

واصغ إلي ، فلاني تمكنت من القبض على رجلين يعرفان كثيراً من أسرار دي مونجورانسي وكولينني .

وأحد هذين الرجلين هو ذلك الشاب المدعو الشفالييه بارداليان ، وهو ذلك الرجل الجريء الذي جاء مرة إلى اللوفر مع المارشال فرنسوا مونجورانسي ، وكان من أمره ما لا تزال تذكره .

وأما الرجل الآخر فهو أبوه .

وقد قبضت على هذين الرجلين وسأحضر استنطاقهما غداً في سجن التامبل واحضر لك خلاصة اقوالهما فتعلم يقيناً ان كولينني لم يحضر إلى باريس ، إلا لقتلك .

وكانت الملكة تتكلم بلهجة تدل على الاقتناع التام مما تقول .

ومع ذلك فإن الملك لم يتظاهر بالتسليم والوفوق فقال لها :

— حسناً يا اماء فسأقرأ غداً اقوال السجينين وسنرى .

— ليس هذا كل ما جئت لأجمله يا بني ، فقد قلت لك ان المارشال دي نافار مقيم عندي الآن ، فقلت لي انك غير واثق من هذا المارشال .

وأنا كنت مرتابة ريبك غير اني لا اعتمد في اعمالي على الظنون ، بل ابحث عن الحقيقة إلى ان اجدها ، وقد وجدتها .

فسقط شارل على كرسيه وقد خارت قواه فقال :

.. إذا يوجد حقيقة عن هذا المارشال .

— بل حقيقة هائلة ؟

اتعلم لماذا اتى المارشال إلى اللوفر ؟

ان هنري دي كيز قد ارسله .

وغير خاف عليك ان هذا المارشال يحكم على ثلاثة ارباع الحامية في باريس فإذا اشار اشارة واحدة زحف اربعة آلاف جندي إلى اللوفر .

وهذا الرجل من أشياع دي كيز ، وإنما جاء إلى اللوفر كي يستوثق من ملك فرنسا ، فإذا وجد له قوة وحولاً رجع على عقبه منكصاً .

وإذا الفاء ضعيف العزم فاتر الهمة خائر القوى منزعج القلب عاجزاً عن تأييد عرشه عاد إلى مولاه دي كيز وقال له : سر فقد خلا لك الجو وتمهدت سبل العرش .

وأما شرفك وحياتك فيكونان تحت رحمته .
فتشجع يا ابني وانهج مناهج السداد والحكمة وانظر إلى الهوكينوت يزأرون كالأسود حول عرشك ، وإلى دي كيز يراقب كالشعلب ضمفك وانحطاطك ، فيزحف اليك وينقض عليك ، ويعينه الشعب ، لأنك أصبحت بمسألة الهوكينوت من أعداء الشعب .

فوقف شارل وقد تحمس لأقوال أمه وقال :
- نعم .. لقد عرفت كثيراً من خيانات دي كيز فلا يجب السردد في الحكم عليه .

نعم اني أريد أن يقبض على هذا الخائن للفور ، وأريد أن يقبض على المارشال في غرفتك .

ثم حاول أن ينادي حراسه .

فأسرعت أمه ووضعت يدها على فمه كي تمنعه عن النداء .

فأفلت الملك منها بعنف وقال :

- الملك أنت أيضاً معهم .

- ماذا تفعل يا شارل ، وأين هم حراسك فيقبضوا على الدوق دي كيز ؟

ألا فاعلم أن أهل باريس يحملتهم يبيون للدفاع عنه .

ولست أنت الآن في حاجة إلى الشدة والجرأة ، بل أنت أخرج إلى الحكمة .

دع دي كيز ينام مطمئناً فلا بد لنا من القبض عليه حين سنوح الفرصة

وكل ما يجب فعله ، هو أن تغل يده فلا ، يستطيع الليلة ، أو غداً أن يفعل شيئاً ، ولذلك يجب أن يعلم المارشال تافان إنك عازم عزماً أكيداً على إنقاذ الكنيسة .

تعال معي يا ابني
تعال نعمل يدأ واحدة ، لتعزيد تاجك الذي حامت عليه عيون الحساد .

وكانت الملكة ، تسلم بلهجة القادر العزيز ، وقد مثلت لولدها الضعيف الهزيل ان تاجه يتزعزع ، وانها قادرة على توطيده ، فبات معها كالطفل لا إرادة له .

وعند ذلك أخذت أمه بيده وسارت به إلى حيث كانوا مجتمعين في غرفتها ، ففتحت الملكة باب الغرفة وتركت الملك يدخل قبلها .

ووقف الجميع لإجلالاً وقد أطرقوا الرؤوس .
أما الملك فإنه تمكن من ضبط نفسه وعادت إليه سكينته فقال :
— أشكركم أيها السادة لاجابتكم دعوتي فاجلسوا ولنتحدث بما يجب أن نتداول به من الأمور ، وابدأ أنت يا حضرة المستشار .

فبدأ المستشار حديثه قائلاً :
- لقد نشرت يا مولاي اليوم أمر جلالتيكم بمنع جميع الباريسين عن حمل السلاح ، ولم يكذب ينشر هذا الأمر بينهم حتى أقبلوا عصابتهم وجعلوا يطوفون في الشوارع وهم مدججون بالسلاح .

وقد جمع رجال حفظ الأمن جنودهم ، ولكنني أرى انه يصعب علينا مقاومة هذه القوة بالقوة .

والتمس من مولاي أن يأذن لي بالتصريح فأقول .
انه إذا بقي كوليفي يوماً واحداً في قيد الحياة جعل الشعب منازل باريس أنقاضاً والله يعلم ما يكون من ثورتهم .

فقال الملك : إذا .. أنت ترتني ، أن نقبض على الأميرال كوليني
وبجأكمته .

- بل أرتني يا سيدي ، أن يقبض على الأميرال ويقتل في الحال
دون محاكمة .

ولم يظهر الملك دهشة لهذا الرأي ، ولكن وجهه اصفر قليلاً فقال :
وأنت يا موسيو دي نيفرس ماذا ترتني ؟

فقال الدوق دي نيفرس : إني رأيت الليلة ، يا مولاي ، عصابات
من الهوكينوت يتهمون جلاتكم بالمواربة ، وانكم تتظاهرون تظاهراً
بالعطف عليهم .

وقد رأيتمهم فاقمين لما أصيب به الأميرال وقد عولوا على الفرار .

ثم لما علموا الحقيقة ، وهي أن الأميرال لم يقتل ، أظهروا النعمة على
الكاثوليك وعولوا على إبادتهم .

والذي أراه إني أرتني رأي المستشار ، وهو انه إذا بقي حياً إلى الغد ،
فقد قضى علينا جميعنا القضاء المبرم .

وسأل الملك المارشال تافان فأجاب بما أجاب الاثنان .

وأكد الدوق دامجوان المارشال فرنسوا مونغورانسي سينضم مع أحزابه
السياسية إلى الهوكينوت لخلع الملك .

وضم كوندي قبضته وقال غاضباً : إني سأقتل الأميرال بيدي .

أما الملكة كاترين فلم تقل شيئاً ، ولكنها كانت تسمع ما يقال وهي
تبتسم .

غير انها لما رأت الملك قد اصفر وجهه حتى بات كالأموات نظرت
اليه وقالت -

- إننا جميعنا والكاثوليكين ننتظر أن نسمع منك تلك الكلمة التي
تنقذنا وتنقذ الكاثوليك

فقال : ماذا تريدون مني ؟ أتريدون أن يموت الأميرال ؟
 فصاحوا جميعهم بصوت واحد : نعم ، نعم .. ليبت !
 فنهض عن كرسيه وجعل يسير في الغرفة بخطوات مضطربة وهو مسح
 بيده الباردة العرق المنصب من جبينه .
 وكانت كاترين تراقب حركاته وقد وضعت يدها على قبضة خنجرها
 واتفقت عينها باللهب .
 ولا ندرى ما كان يحول تلك الساعة في نفسها الشريرة ، فقد يكون
 خطر لها قتل ولدها لأنه غير كفؤ لها بالشر .
 أما الملك فكان يسير وهو يتمم كلمات لا معنى لها :
 حق وقف أمام تمثال صليب وجعل ينظر إلى المسيح المصلوب .
 فلما رآته أمه وقف هذه الوقفة أسرعت فدنّت من التمثال وقالت :
 - أيها الرب العلي العظيم ، لا ترحمني وصب علي لعناتك ، فإني حمت
 بين أحشائي ولداً يحترق وصاياك ، ولا يحفل بأمرك ، ولا يريد إلا هدم
 هيكل المقدس .

فجعد الدم في عروق الملك وقال ،
 - إنك تجدفين يا أماء ، فما هذا الكفر .
 فضت الملكة في حديثها تخاطب التمثال وقالت :
 - أعني أيها الرب القادر ، إني لم أستطع إقناع ولدي ، على إني أود أن
 تفتسنني الوحوش قبل أن أرى أعداء الدين ينتصرون عاينا بسبب ضعف
 مالك فرنسا .

- كفى .. كفى يا أماء فماذا تريدون ؟
 - قتل الكافر .
 - قتل كولينني ؟

-- نعم ، نعم هو بعينه . وقد عرفت ، كما عرفناه جميعنا فهو الخافر المنافق الخادع وهو الذي قتل إلى الآن ستة آلاف من أبطال الكاثوليك في معارك مختلفة ، وهو الذي جاء باريس كي يفتسك بالملك ، ويضرب فرنسا في دينها الضربة القاضية .

-- ولكنّه ضيفي يا أماء ... وأقم أيها السادة ألا تعلمون ماذا يجب على الشريف من احترام الضيوف . . ألا أصم شرقي برصمة عار لا تمحى إذا قتلت هذا الضيف .

فقال الملكة : بل هو الشيطان الرجيم قدّفته إلينا جهنم .

وقال كوندتي : إني إذا لم يقتل عدت إلى إيطاليا وأقمت يجوار الحبر الأقدس فلا أرى بعيني ما يمس ديني .

وقال المستشار ، وأنا التمس ، من مولاي ، أن يسأذن لي بالعودة إلى أرضي .

وقال الماوشال كافان : وأنا أقدم سيفي لدوق البيا .

فصاحت بهم كلترين قائلة :

-- سافروا جميعكم بأزهره أبناء فرنسا وتحلوا عن الملك ... أما أنا فسأبقى مع ولدي وحدي ، وأموت أمام عينيه وأعطيه بحسبي ينقض عليه الهوكينوت فأموت قبل أن أراه يموت .

ثم دنت من الملك وهمست في أذنه قائلة :

: وقبل أن يغدو هنري دي كيز ملكاً لفرنسا ، مقابل إنقاذه المملكة من الهوكينوت .

فنظر الملك عندها إليهم نظرة القائط وقال :

-- إنكم تريدون جميعكم قتله فاقتلوا .. اقتلوا الأميرال .. اقتلوا ضيفي .. اقتلوا هذا الرجل الشيخ الذي كنت أدعوه أبي ، واقتلوا معه كل هوكينوتي في فرنسا ، كي لا يبقى بينهم من يقول إن ملك فرنسا من الخائنين ،

اقتلوا .. اقتلوا !

ثم جعل يضحك ذلك الضحك الذي يتقدم نوبته العصبية .

فأبرقت أسرة الملكة بأشعة انفرج وقالت :

— لقد نلنا أخيراً ما نريد .

ثم سارت بالجميع إلى غرفة مجاورة ، بينما كان الملك قد سقط صريع النوبة العصبية .

فنظرت إلى المارشال تافان نظرة خاصة وقالت له :

— إني أعهد إليك يا مارشال ان تخبر الدوق دي كيز ان الملك قد عول على إنقاذ الكنيسة والمملكة وإننا معتمدون عليه .

فانحنى المارشال إشارة إلى الامتثال ، وعادت الملكة إلى الحديث فقالت :

— إذهبوا الآن أيها السادة ، إن الساعة قد بلغت الثالثة بعد انتصاف الليل ، وعودوا إلي في الساعة الثامنة من الصباح ، ثم أحب أن تحضروا معكم دي كيز ودي مال ودي مونتبانسيه ودامفيل ، على أن تكونوا جميعكم هنا في الثامنة من الصباح .

لا تفسوا إذ ليس لدينا غير يوم واحد نتأهب فيه لتلك المعركة الكبرى التي نرجو ان ننقذ بعدها المملكة والكنيسة .

إذهبوا وليأخذ الله بيدكم فيما تفعلون .

فانصرفوا جميعهم وهم يدعون الملكة ، ما خلا الدوق دالنجو ، فإنه بقي مع أمه .

فأخذت كاترين يده بين يديها ، ونظرت إليه نظرة حنو وقالت له :

— ستغدو ملكاً يا بني فاذهب الآن واسترح .

ثم تركها وانصرف ، بحيث بقيت الملكة وحدها في تلك الغرفة .

وبعد أن أقامت هنيهة وهي مطرقة تفكر قامت إلى الباب ففتحته ونادت

ريفيه الفلكي .
 فلبى الفلكي نداءها ودخل إلى غرفتها وقد شاب رأسه ، وأنهك الحزن على
 ولده قواء فأصبح وله هيئة الشيوخ .
 فقالت له الملكة : لقد آن الأوان يا ريفيه فأبلغ كريسى وكرفيه وبزوكى
 ليكونوا متأهبين .
 - سأفعل يا سيدتي .
 ... إن الحادثة تجري في ليلة غد ، وستتولى أذن الإشارة في الساعة
 الثالثة بعد انتصاف الليل ، وهي أجدر الساعات بمثل مشروعتنا ،
 فإن الناس يكونون نياماً ، فتعين رجلاً ليقف في قبة الجرس في كنيسة
 سانت جرمين .
 فارتعش ريفيه ، وبدأ عليه علائم الذعر ، لأن ولده ماريلياك قتل في
 هذه الكنيسة .
 فهزت الملكة كتفيها وقالت له :
 - العلك جننت ؟
 - كلا فسأذهب بنفسى إلى تلك القبة ، وأدق جرسها تلك الدقات الخاصة
 بالأموات لأن ولدى لم يدق له جرس .
 فقالت الملكة في نفسها ولده .. وهو ولدى أيضاً .
 ولكنها أرادت أن تنفي عنها هذه الأفكار ، فغيرت الحديث
 وقالت له :
 - ماذا صنعت بلورا يا ريليه ؟
 - إنها ماتت .
 - وباليكارولا ؟
 - لا أعلم ماذا جرى له ؟
 - يجب أن تعلم ، لأن هذا الرجل قد يكون شديد الخطر إذا عاش

بعد حبيبته .

واذهب عني الآن لاني أريد ان أشتغل .

فانصرف رينيه ساكتاً واجماً وقد صبح وجهه بصفرة الموت .

أما الملكة فانها قامت إلى مائدة فأخذت قلماً وبدأت تكتب دون أن يدب النعاس إلى جفניה ، في حين ان الفجر كاد ينبثق .

ولكنها توقفت فجأة عن الكتابة ، وتنهدت تنهداً عميقاً ثم قالت : إنه ولدي .



أما الملك ، فإنه بعد أن زالت عنه أعراض تلك النوبة التي فاجأته ، ذهب إلى غرفته وهو مفكر مهموم ، فانطرح على سريره دون أن يجد الى الرقاد سبيلاً .

ثم وثب من سريره وقد كبرت عليه الجناية .

فجعل يمشي في الغرفة مشية المجانين ، وهو لا يستطيع ان يفكر بمواقب تلك الأمور الهائلة ، التي أكرهوه على إصدارها ، ولا يستطيع طرد هذه الأفكار .

فجعل يقول وأسنانه تصطك : رباه ماذا أصنع ؟ وكيف السبيل إلى طرد هذه الأفكار الهائلة ؟

ثم خطر له خاطر ، فأثار جميع المصابيح الموجودة في غرفته ، وقال في نفسه :

- لأشتغل في كتابي عسى أرتاح بالشغل .

وذهب الى درج فأخذ منه دفترأ ضخماً مكتوباً على ظهره هذا العنوان

« صيد الملك » (١) .

وأخذ يقلب صفحاته بيد تضطرب ، حتى وصل الى آخر صفحة مكتوبة
فقرأ الجملة الأخيرة منها وهي :

« لما أهدقنا بالحيوان وأشرقنا على ذبحه ... »

وهنا اضطرب وقال : رباه .. أية مذبحه أقطع من تلك المذبحة التي
يعدونها الآن ؟ .

ثملقى الدهقن مضطرباً ، وقد عاودته الذوبة بشكل شديد .

وسقط على الأرض ، وغرست أظافره بسجادة الغرفة ، وجعلت
عيناه ، وخرج الزبد من فمه ، وجعل يصيح قائلاً ، دون أن يعلم
ما يقول :

— أمي ، أمي .. هوذا كيز يريد قتلي .. الى القاتل .. ومن هذا الذي
يسير وراءه ؟

إنه كوليني .. هوذا الهوكينوت .. اقتلوه .. اقتلوه .. ضعوا بارداليان
في غرفة التعذيب .. أنت أيها الرجل ، قل ماذا تعلم ؟ أريد كيز
وكوليني قتلي ؟ ..

قل .. هوذا الأعداء قد أتوا .. كوسيني ، إقبض على القتل ، إقبض
على أخي ..

وبح لنفسه . ما هذه الدماء التي أراها ؟ .. رباه من أين آتت هذه الدماء
فهي تجري كالأنهار ؟

(١) هذا الكتاب الفه الملك شارل التاسع عن الصيد ، فقهه فيولوري
وطبعه سنة ١٦٢٥ .

ماري ، هلم بنا نهرب من باريس ، فلإنها جهنم .. هلم نهرب ، فلا أطيق
النظر الى الدماء
ولبت ذلك الملك المنكود نحو ساعة على هذه الحال ، الى أن زالت
النوبة فنام .
ولما صبحا كانت الشمس قد تمالأت ، فشعر بتعب عظيم وقال : أحمد الله ،
ان ما رأيته لم يكن غير حلم .

-- ١٨ --

غرفة التعذيب

بينما كانت هذه الحوادث التاريخية تجري في اللوفر ، وهي تلك الحوادث
الهائلة ، التي قتلت ذلك الملك المنكود غماً وندماً ، ووطدت الملك لأخيه
الدوق دالمجو .
كان بارداليان وابنه نائمين في سجن التامبل ، على كيسي من القش ، جنباً
الى جنب نوماً قلقاً مضطرباً ، ليقينهما أن هذه الليلة كانت آخر لياليهما
في الوجود .
فإن صباح ذلك اليوم ، أي يوم السبت الواقع في ٢٣ أغسطس ،
كان قد تعين موعداً لتعذيبهما ، ومسا وراء ذلك التعذيب ، غير
الموت الشنيع .
وأي موت أقطع من الموت في تلك السجون ، فإن من يقضي عليه نكد

الطالع بالتعذيب ، تسحق عظامه بضغط الآلات وتمزق جملده الكلابيب
الحامية وتشد رجلاه بين آلتين من الحديد حتى تنقطع المفاصل وتنفجر العروق
وتسيل الدماء .

هذا هو الموت الذي كان يتوقعه بارداليان وابنه في الساعة العاشرة من
صباح السبت .

ومع ذلك فقد تمكنا من الرقاد في تلك الليلة .

وقد كان الاثنان منذ اجتماعهما في ذلك السجن أي منذ ستة ايام لم يردهما
شيء من الاخبار .

لان حاكم السجن لم يفتقدهما ، فقد حمله إدمانه السكر ، على
نسيانهما .

حتى أنهما لم يريا السجنان نفسه لانهم كانوا يدخلون اليهما الطعام والشراب
من شق تحت الباب .

ولم يكونا يسمعان ، غير وقع أقدام الخفير ، حين كان يتمشى
قرب بابهما .

وكان بارداليان الاصغر ، في مدة الايام الثلاثة الاولى ، يبحث
عن وسيلة للفرار ، مع ان أباه أخبره أنه بحث قبله ، ووجد الفرار
مستحيلا .

وقد نقر على جدران الغرفة ليعلم مقدار ضخانتها ، فوجد انها لا تقل عن
خمس أقدام بحيث يستحيل نقيبها دون آلات .

ولو وجدت لديه تلك الآلات فانه اذا تمكن بها من نقب الجدار ، فلا يخرج
من سجنه الا الى سجن آخر .

وأما النافذة التي كان يدخل منها النور فقد كانت عالية جداً يستحيل
الوصول اليها .

وليس لديه شيء من معدات التسلق .

وكذلك الباب ، فقد كان من خشب السنديان الغليظ ، وهو مصفح بالحديد .

وقد أدرك بارداليان الاصفر ، أن القوة لا تفيد ، فرأى أن يستعمل الحيلة .

فانبطح على بطنه ، عند ذلك الشق الذي يدخاون اليه الطعام منه ، ونادى الحارس ، وعرض عليه الف ريال ، اذا ساعده على الخروج من السجن .

وهو لم يكن لديه ريال واحد ، ولكنه كان واثقاً ان المارشال فرنسوا يدفع عنه هذه القيمة .

فأجاب الحارس . إن حاكم السجن لا يثق بأحد حتى انه يضم عنده جميع مفاتيح السجون ، التي يسجن فيها من يوصي بالحرس عليهم ، وانه بصفته جندياً ، لا يرتكب خيانة ، ولو أعطي مال الأرض بأسره .

وقد ختم كلامه بقوله : انك اذا عدت الى مباحثي بهذه الشؤون ، تضطرنني ان أبوح بأمرك الى حاكم السجن ، فينقلك الى أعق السجون الكائنة تحت الأرض .

ثم تركه وجعل يتمشى حسب عادته .

فنظر بارداليان الأكبر عند ذلك الى ولده وقال له :

- إحدرك ان تعود بعد ذلك الى مثلها يا بني لان كل ما نغنمه من هذه المساعي هو انهم يفرقون بيننا .

وإذا لم يبق لنا في هذا الوجود غير ثلاثة أيام فلنصرفها معاً .

أواه ، يا بني ... انك لو أصفيت الى نصائحي ، لكنت الآن في أحسن حال .

ان المرء قد فطر على الشر وكان اول نصحي لك ان تحذر الرجال والنساء

فلماذا أردت ان تغير نظام الوجود منذ نشأ الانسان .
ان الرجل الشريف في الارض يشبه في عيون الناس حيواناً هائلاً بين تلك
الذئاب التي لا عد لها والتي يدعونها « الناس » .

فاذا اتفق وجود شريف بين الناس ، فإن هؤلاء الذئاب لا يهدأ
لهم روع ، ولا يرتاح لهم بال ، حتى يفتكوا بهذا الشريف ، بالقوة
أو بالحيلة ، أو بغير ذلك ، مما أعدته تلك الهيئة الجامعة ، من
ضروب الفتك .

فعلى مَ الاسف يا بني ، وهذه حالة الناس ؟ ولماذا التمهيد المملك جزعت
من الموت ؟

فتنهيد الشفالييه أيضاً وقال :
.. الحق يا أبي انا أحب الحياة ، وإذا كان حب الحياة ضعفاً ، فأنا معترف
بهذا الضعف .

وفوق ذلك فقد خطرت لي أن أمثل دوراً بدأت به وهو إلي أحببت ان أحيي
عهد البسالة في زمن شارلمان .

بل أردت أن أشبه أولئك الأبطال ، أبطال العهد القديم . فأسير
والسيف متصلت في يدي ، لا يشغلني غير نصره الضعيف ، وغل
يد الظالم .

فإن شقاء الانسان أكثر من شره .
وهذا المجموع من الناس الذي تشبهه بالذئاب ، لا يريد غير الهناء
والسلام .

نعم ، انه يوجد بينهم ذئاب خاطفة ... ولكن أكثر هذه الذئاب
من الملوك والأمراء وأهل السلطة والجاه ، الذين يستبدون بالانسان لنيل
مطامعهم .

ويكفي بضمعة من أولئك البواسل ، لإيقاف أولئك الظالمين ،

عند حدهم .
وقد كان كل مطعمي يا أبي ان أكون أحد هؤلاء الأبطال الذين يقاومون
هذه الذئاب .
وكانا دائما يتباحثان بهذه الأبحاث ، كي ينشفلا بها عن ذكر لويزا ، فان
الأب كان يجادل ابنه هذه المجادلة كي ينسيه تلك الذكرى المؤلمة .
والابن يشاغل أباه ، بهذه المناقشات ، كي يمنعه عن البكاء ،
إشفاقاً عليه .
ولبشاعلى ذلك الى ليلة الجمعة فناما دون ان يذكر كلمة عما سيلقيانه غداً
من عذاب الموت الهائل .
وفي الصباح ، صبحا الأب قبل الابن ، وكان قد نفذ شمع الصباح
من النافذة .
فنظر الأب الى ابنه ، وهو لا يزال نائماً ، فوجده يبتسم وقد كان يحلم دون
شك بمن يحبها .
فوقف ينظر اليه نظرات ملؤها الحنو والأسف لان تلك الساعة الرهيبة
ساعة التعذيب قد دنت وليس منها مفر .
وعندها صبحا بارداليان وفتح عينيهِ فرأى أباه ينظر اليه .
فارتعش الاثنان ، وحاول كل منهما أن يضبط نفسه ، [إشفاقاً]
على صاحبه .
وأقام كل منهما بجانب الآخر دون أن يتكلما . وماذا عسى ان يقولوا في
تلك الساعة الهائلة .
فكانا ينتظران ساعة التعذيب ، وقدموم الجلاد . وهما ساكتان
واجبان .
ثم وقف الاثنان فجأة ونظر كل منهما الى الآخر نظرة وداع .
ذلك انهما سمعا وقع أقدام في الرواق المؤدي الى غرفتهما .

وكان كل منها يكره نفسه على الصمت إكراهاً كي لا يفجر الحزن في قلب رفيقه .

وبعد بضع دقائق مرت بها مرور الأجيال فتح باب سجنها ودخل منه مونتليك حاكم السجن يحيط به عشرون جندياً .

فأمسك الاسيران كل منها بيد الآخر .

وأشار الحاكم لإشارة فأحاط الجنود بها وقد برقت أعينهما بأشعة الفرح لانهما لم يفصلوهما .

فكانا كلما مشيا بضع خطوات يريان الجنود واقفين في موقف الحرس ، فقد جاءوا بجميع جنود السجن حذراً من فرار الاسيرين .

وما زالا يسيران والجنود محدقة بهما حتى نزلا سلماً في جوف الارض وانتهيا منه إلى غرفة متسعة .

وكانت هذه الغرفة غرفة التمديب .

وكان الجلاد واقفاً فيها ينتظر الضميتين وبالقرب منه رجل رأى بارداليان على نور المشاعل انه مورفر ، لان نور النهار لم يكن ينفذ إلى هذه الغرفة فأثاروا فيها المشاعل .

وكانت تبدو على مورفر علائم الكره الشديد ، فنظر إلى الاسيرين نظرة المنتقم الفائز .

فأجابه بارداليان الأصغر عن هذه النظرة بابتسام الاستخفاف .

وقد خصصوا لحراستها ثلاثين جندياً قسموهم الى خمسة أقسام ولدى كل قسم مشعل ينير هذه الغرفة .

وقد رأى الاسيران في وسط تلك الغرفة آلات التمديب على اختلافها ورأيا ذلك الجلاد الهائل يلقي الاوامر الى رجلين من أعوانه .

ورأيا حاكم السجن يحدث مورفر .

ثم سمعا مونتليك يقول لمورفر : بأيها يجب ان نبدأ ؟

فتقدم الشفالييه باردا لبيان خطوة وقال : سيدي ...
وفي الحال هجم عشرة جنود عليه ، كأنهم خشوا أن يدفعه اليأس الى
عمل منكر .
فقال له حاكم السجن : ماذا تريد ؟
- أريد ان التمس منك التماسا .
- قل .
- التمس ان تبدأوا بي أنا .
فتقدم أبوه واعترضه قائلا :
- إن ما تطلبه يا بني لا ينطبق على العادات المألوفة ، فأنا شيخ ولي حق
التقدم عليك .
فقال حاكم السجن : ذلك سيان عندي .
ثم نظر الى مورفر نظرة السائل المستفهم .
فأجاب مورفر بلمحة تبين منها الحقد الدفين وقال : لقد أصاب الاب
فأبدأوا به .
ولمّا أراد ذلك للمبالغة في تعذيب الشفالييه فإنه أدرك ما يعانيه من الشقاء
حين يرى أباه يعذب أمام عينيه .
ثم ارتد الى باب غرفة وضعت فيها آلات مختلفة ، وهناك امرأة واقفة في
زاوية الغرفة لا يراها أحد وقد لبست ثوبا أسود وعلى وجهها نقابا أسود فكانت
تشبه الشياطين المجسمة .
وكانت هذه المرأة الملكة كاترين .
فأشارت الى مورفر إشارة بيدها .
فعماد الى موقفه ونادى الجلاد فقال له : إبدأ بالعمل .
فقال له الجلاد بلمحة تدل على عدم الاكتراث : أنبدأ بالاب ؟
- نعم ، ويجب الاسراع .

فأشار الجلاد الى الجنود فقبضوا على بارداليان الاكبر .
فهاج بارداليان الاصغر عندها هياج العاصفة ، وزأر زئير الاسود حتى
ارتجف حراسه ووجفت قلوبهم من الخوف .

فجرد حاكم السجن خنجره ، وصاح مورفر قائلاً :
- هاتوا السلاسل .

وعند ذلك ، فتح باب غرفة التعذيب فجأة ، ودخلت منه امرأة
فقالت :

« باسم الملك أوقف التعذيب » .

فوجم الجميع عند ذكر اسم الملك ، وسقطت من يد الجلاد تلك السلاسل
التي كان عازماً ان يقيد بها الشفالييه بارداليان .
وعض مورفر شفته من الغيظ ، حتى كاترين نفسها فإنها لم تتألك من
الارتعاش .

وقد رأى الجميع امرأة صبية رشيقة الحركات متأنقة الملابس ، وقد نظرت
الى الاسيرين نظرة شفت عن سرورها وقالت :

- ليتبارك اسم الله لقد أثبت حين الاوان .

فانحنى الشفالييه وقال :

- ماري توشيت ا

ودعا حاكم السجن منها وقال .

- من أنت يا سيدتي ؟

فأجابته ماري توشيت قائلة :

- إني رسولة ملك فرنسا ، وهذا كل ما يفيدك أن تعلمه .

- وكيف وصلت الى هنا ؟

فلم تجبه ماري ولكنها أعطته ورقة مطوية .

فأخذها الحاكم وقرأ فيها على نور المشعل ما يأتي :

« نأمر حاكم سجن التامبل ، ان يأذن بدخول حامل هذا الامر ، الى غرفة التعذيب » .

شارل - الملك

ولما أتم قراءتها قالت له :

- والآن خذ واقرأ هذه .

ثم تأولته ورقة أخرى فقرأ فيها ما يأتي :
« نأمر بإيقاف تعذيب بارداليان وابنسه ، وعدم استنطاقهما ، إلا بأمر منا » .

شارل - الملك

فالتفت الحاكم عند ذلك الى قائد الجنود وقال له : أعد الاسيرين الى سجنهما .

ثم قال للجلاد :

- وأنت عد الى شأنك ، وسترجع الينا متى أراد الملك .

فقال له مورفر : اصبر هنية فلم يقض الامر بعد .

- بل قضي ، فقد أمر الملك وأمره مقدس ... أيها الحراس إذهبوا

بالاسيرين !

وكان السجينان ، في خلال هذه اللحظة ، قد نظرا الى ماري توشيت نظرة ملؤها الشكر والامتنان ، فعادا الى سجنهما تحفهما الجنود وهما فرحان فرحاً لا يحتمله سواهما .

وكذلك ماري توشيت فلما توارت ايضاً عن الانظار ، كما كانت تتوارى الملائكة في الفهم في قصص الاقدمين .

ولم يبق في تلك القاعة الهائلة غير مورفر ومونتليك .

فقال مورفر : إن الملك سيسر دون شك لاسراعك في الخضوع لامره ، ولكن هذا الامر قد يكون من غير الملك .

فأجابه سيان عندي أن يكون من الملك أو سواء ما زال الختم الملكي موجوداً عليه ، ومع ذلك فسل هذه المرأة للتي جاءت باسم الملكة .

فابتسم مورفر ابتسام قهر حين سمع الحاكم يتكلم عن الملكة كاترين دون احترام وقال له : هات الأوراق .

ثم أخذ منه الأوراق وأخذ مصباحاً ودخل بهما إلى الملكة .
فقال له : لقد سمعت كل شيء وعرفت المرأة التي جاءت بهذا الأمر .
- إذاً هو الملك نفسه الذي أصدر هذا الأمر فماذا يجب أن أصنع .

- يجب أن تمتثل للأمر ، وأنا ذاهبة إلى اللوفر فأرى ما يكون ولا تخف ، لقد وهبتك هذين الأسيرين وهما لك . . واعلم انه يجب أن تعود إلي بعد ثمانية أيام في اللوفر ، وأبعد عن باريس خلال هذه المدة ، فسل أول خطأ ارتكبته ، إنك أخطأت الأميرال ، فإذا ارتكبت خطأ ثانياً قبضوا عليك لأنهم يبحثون الآن عن المعتدي على الأميرال ، فإذا قبضوا عليك فلا حيلة لي في إنقاذك .

فارتعش مورفر إذ بات يعتقد ان بارداليسان قد أفلت من يده وعول على أن يخطر بحياته في سبيل انتقامه .
ثم انه كان واثقاً ان الملكة محتاجة اليه فالتفت اليها وقال :

- أظن يا سيدي ، ان مصلحتي تقضي علي بالبقاء في باريس ، وفوق ذلك فانهم سيبحثون بعد ثمانية أيام أكثر مما يبحثون الآن عن مطلق الرصاص على الأميرال .
فابتسمت وقالت : لا أظن .

ثم قبضت على ذراع مورفر وقالت :
- إني أحبك ، أسمعت ؟ وان خطأك لم يكن لأنك أطلقت الرصاص على الأميرال ، بل لأنك أخطأت .
ولكن ذلك قد أتى بفائدة ، ولذلك أغفر لك هذا الخطأ ولذلك أعددتك

لما هو أشد خطورة من هذه المهمة .
فامتلل لما أمرتك به و ابرح باريس وعد إلي بعد ثمانية أيام تعلم عند ذلك
حقيقة أفكاري .
وأما هذان الأسيران فلا تخف عليها لأنها في قبضتي .

فانحنى مورفر وقال : سأمتثل يا سيدي .
ثم خرج وهو يقول في نفسه :
اني سأقيم في ضواحي التامبل فلا أظهر لأحد قبل ثمانية أيام لأني أحب أن
أرى أنا أيضاً ما يكون .

وكذلك الملكة فإنها انصرفت يخفها جندي واحد ، لأن جميع موظفي
السجن حتى حاكمه كانوا يجهلون ان هذه المرأة المرتدية بالملابس السوداء كانت
الملكة كاترين .

وانصرفت وهي تسأل نفسها فتقول :

— كيف اتفق ان خليفة الملك تهتم لهذين الرجلين ، وكيف نالت منه الأمر
بتأجيل التعذيب .. ذلك أمر لا بد لي من معرفته .
أما بارداليان وابنه فلا ينجوان مني فلا أدع الآن الاهتمام بشأنها ولأنظر في
شأن المهمة الكبرى .

* * *

ولنظهر الآن كيف ان ماري توشيت تمكنت من نيل هذا الأمر من الملك
فانقذت حياة بارداليان وابنه .

ذلك ان خادام غرفة الملك دخل اليه في الساعة السابعة من الصباح فوجده
يخلع ثيابه ويتأهب للنوم .
فقال له الملك :

- إني لم أنم بعد ، لقد أحييت الليل ساهراً أشتغل ، وأريد أن أنام إلى
إلى الساعة الحادية عشرة ، أسمع ؟ فقل لرجال البلاط اني أنتظرهم ساعة
الظهر للعب الكرة ، واذهب الآن فاني أحب أن أكون وحدي .

فانصرف الخادم وبقي الملك وحده .

وعند ذلك عاد إلى لبس ثيابه بدلاً من أن يخلعها ، وخرج من باب سري
في غرفته فمشى في رواق طويل انتهى منه إلى باب ففتحه ونزل في سلم ينتهي
إلى سرداب طويل فاجتازه وبلغ منه إلى باب حديدي ضخيم ففتحه بطريقة
سرية وخرج منه فبات خارج اللوفر .

وكان يخرج دائماً من هذا السرداب حين كان يريد أن يعلم أهل البلاط ،
أنه مقيم في اللوفر .

ولما بلغ ضفة السين تنهد بلاء رثيته تنهد الارتياح ، وانتعشت نفسه
بهواء الصباح المنعش ، وابتسم لأشعة الشمس الذهبية ، بحيث لو رآه ناظر لما
عرف أنه ذلك الملك العظيم الذي بات ليلته عرضة للنوبات العصبية ، لأنه
أصدر أمره بإبادة الهوكينوت .

وذهب توأ إلى منزل عشيقته ماري توشيت .

وذلك انه لم يكن يجد راحة من عنائه إلا في ذلك المنزل ، وكان
حين تشتد هواجسه ، ويخاف تسميم الطعام والشراب والهواء في اللوفر ،
ينذهب إلى منزل عشيقته ، فيأمن من خوفه ، ويشبع من جوعه ويبيت
آمناً مطمئناً .

فلما دخل إلى غرفة ماري توشيت ، وقف عند بابها وقفعة المقتبط
المسرور .

فانه رأى عشيقته جالسة عند نافذة مفتوحة بلباس الصباح وهي محولة
الشعر ، مكشوفة الصدر ، وعلى صدرها طفل يرضع .

ولأنه تتمن من مبتسمة يجهل ذلك الطفل .

ولبت الطفل يرضع حتى شبع فأطبق عينيه ونام وعلى فمه نقطة من لبن أمه ..

فقامت ماري عند ذلك وحملتة بلء السكون إلى مهده ، ووقفت تتفرس في وجهه وهي معجبة به كل الإعجاب

وعند ذلك دخل الملك دون أن تشعر به فوقف وراءها ووضع يده على عينيها وهو يضحك .

وعرفته ماري للحال وقالت على سبيل المازحة .
من هذا الشرير الذي يمنعي عن رؤية ولدي . ان ذلك شديد علي وسأشكوه إلى الملك .

ورفع يديه عن عينيها وقال لها :
- تفضلي يا سيدتي بعرض شكواك على الملك فإنه بمحضرتك .
فما نقته ماري وهي تقول : إن القيلة الأولى يجب أن تكون للأم .
ونظر إلى ولده النائم وخشي ان يقبله حذراً من إيقاظه .

ثم أخذ بيد ماري وذهب بها إلى غرفة الطعام فانطرح على كرسي طويل وقال : لقد أنهكتي التعب والنعاس .

فجلست ماري على ركبتيه وقالت له وهي تعبت بشعره :
حدثني يا شارل بما تعبك والقي علي همومك ... رباه مسا هذا الاصفرار ،
ومن الذي أتعبك هذا التعب ... علي اني أرجو أن لا تكون قد عاودتك
النوبة ... قل كل شيء يا شارل .

- نعم لقد عاودتني النوبة الليلة الفائتة وكانت هائلة .

ومما يزيدني شقاء بها انها اختلفت عما كانت عليه ، فقد كنت قبلاً حين
تصيبني أصحو من إغمائي فأجد نفسي كما كنت .

أما الآن فاني أشعر قبل أن تصيبني ، إن الدنيا قد اسودت في عيني ،
وأجد نفسي قد ملئت حقداً على الناس والانسانية ، فأحب في تلك الساعة

تدمير كل ما يقع عليه نظري ، بل أحب أن أحرق باريس واتفرج عليها
كما فعل الأمباطور برومية ، بل أحب القتل وسفك الدم ، ويتمثل
لي ، أن الملوك لا يرهيبهم الناس ، إلا حين يظلمون ويستبدون
ويهرقون الدماء

— لا بأس ايها الحبيب فكل ذلك يزول حين تفرح .
— نعم إنني محتاج إلى الراحة ولكن أين أجدها إلا عندك فاني محاط في
اللوغر بالمتآمرين .
— لا تفكر الآن بهم يا شارل واخلد إلى السكينة والراحة وخذ حظك
منها ما زلت عندي .

قل لي كل شيء واذكر جميع متاعبك ، ولكن لا تقل لي انك تخاف
المتآمرين ، فذلك لا تضطرب إلا حين يعرض لك هذا الخطر .
ولا تنس انك الملك ، وان زمام السلطة بيدك ، فلا يحسر احد أن يد
يديه اليك بأذى .
وكانت تعزبه بمثل هذه الأقوال ، غير انه لم يكن يريد ان يتعزى في
هذه الساعة .

وقد تجسست الأخطار في غيخته ، ولكنه لم يكن يحسر على إظهارها
فجعل يخبرها ان دي كيز يؤامر على خلعها وقتله ، وان امه قد ظفرت
ببرهان المؤامرة الجلي ، وانها ستذهب بنفسها إلى السجن في هذا الصباح
وتحضر استنطاق. وتعذيب رجلين من اشباع دي كيز .

نعم وهي ستعرف في الساعة العاشرة من هذين الشقيين بارداليان وابنه
كل الحقيقة إذ لا بد لهما من الاقرار بعد التعذيب
فصاحت ماري صيحة دهش وقالت :

— تقول انهم سيعذبون شخصين يدعيان باسم بارداليان ؟
— دون شك فهما من خدام دي كيز ، ولا بد أن يكونا عارفين بكثير

من أسرارہ .

- مولاي ، اني التمس منك العفو عن هذين الشخصين .

- العفو عن هذين الأثيمين ؟ كيف ذلك يا ماري ، العلك فقدت

الصواب .

- كلا ، كلا ... ألم أقل لك مرة ان جياتي كانت معرضة للخطر ،

وان شخصين لا أعرفهما قد أنقذاني ، وقالوا لي انها يدعيان بريسار

وروشيت ؟ إذا ، فاعلم انها يدعوان بارداليان ، وهما اب وابنه ، لقد أكد

لي راميس ذلك .

- وانت ترين انها يؤامران ، وإذا لم يكن ذلك فآية فائدة لهما باخفاء

اسميهما عنك .. إصفي الي يا ماري .. أقريدن ان اموت قتيلا ؟

- شارل ، إني اقسم لك على ان هذين الشخصين لا يمكن أن يكونا من

المجرمين .. إنك تبحث عنهم بحثاً طويلاً كي تكافئهما على انقاذي ، وتغمرهما

باحسانك . أقريد أن يكون جزاؤهما هذا التعذيب الهائل ..

شارل انها انقذاني ، وإذا كنت لا أزال مع ولدك في قيد الحياة فذلك

بفضلهما .

- ماري ؟

- كلا .. إني أكون أثيمة خائنة إذا تفاضيت عن هذين الشريفين

وقررتهم يتعذبان ويموتان بعد أن انقذاني من الموت .

وبعد ، ألا تستطيع ان تأتي بهما إلى اللوفر وتستنطقهما انت دون أن

يكون للجلاد شأن بهما . .

انها يعترفان لك بكل شيء ، وأنا اضمن ذلك .

- لقد اصبت ، فما الذي يمنعني عن ان اتولى استنطاقهما بنفسي .

فاضطربت ماري سروراً وأخذت بيده إلى مائدة عليها ادوات الكتابة

فقال له :

— اكتب ليها الحبيب . اكتب الأمر القاضي بتأجيل التعذيب .. واذا
شئت ليمبقيا في السجن الى ان ترى في امرهما رأيك .

فكتب الملك ذلك الأمر .

فأخذته ماري فرحة وقالت : اين هما الآن ؟

— في سجن النامبل ، وسأبعث رسولاً بهذا الأمر .

— كلا ، بل أنا اذهب بنفسي ، فان الساعة لم تتجاوز التاسعة .

ثم القت مسرعة وشاحاً على كتفها ولبست قبعتها وقالت له :

— اكتب لي أمراً يؤذن لي بالدخول الى السجن .

فكتب ذلك الامر ايضاً وختم الاثنين بخاتمه الملكي ودفعها لماري ،

فأخذتها شاكرة وخرجت مسرعة الى السجن .

وقد عرف القراء ما جرى لها فيه .

أما الملك فانه اقام هنيئة وهو مطرق مفكر مهموم ، ثم قام الى مهد ولده

فنظر اليه نظرة حنوا لا توصف .

وقد غلبه الحنو فقبله قبلة طويلة ، ثم خرج من ذلك المنزل عائداً الى اللوفر

دون ان ينام أو يستريح .

- ١٩ -

الدوق دي كيز

عندما برحت الملكة كاترين سجن التامبل ، رجعت سرّاً إلى اللوفر حيث كان يلتظرها فيه بعض النبلاء ، الذين واعدتهم على اللقاء في الساعة الثامنة كما تقدم .

وقد ساء ما جداً صدور أمر الملك بتأجيل استئطاسق بارداليان وأبيه ، ومنع تعذيبهما .

وذلك لأن هذا التأجيل أفسد خططها ، إذ كانت ترجو ان تقف منها على برهان يثبت خيانة الدوق دي كيز

وقد كانت اعتمدت على هذا البرهان ووضعت مقدماً خطة تستطيع بها أن تعبت بالدوق كما تشاء .

ولكنها اضطرت إلى الرجوع عن هذه الخطة ، وعادت إلى اللوفر ، وهي بأسم الثغر ، طليقة الحيا ، وليس على وجهها شيء مما يدل على ما لقيته من المراقيل .

وقد دخلت إلى غرفتها من رواق سرّي ، فوجدت خادمتها تلتظرها ، فقالت لها :

- من يوجد عندنا من الأسباد ؟

- الدوق دالنجو والدوق دي كيز والدوق أومال والمستشار وكوندي

والمارشال تافان ودامفيل والدوقان نيفرس ومونتبانسيه .

- وأين رئيس الحرس ؟

- إنه في موقفه مع حراسه .

- وماذا يصنع الملك ؟

- إن جيلاته برج اللوفر سراً في هذا الصباح ، وقد عرفت ذلك من لوريون ، مراقب الأبواب ، ولكن جميع الموجودين في اللوفر يعتقدون أن الملك نائم .

فأزاحت الملكة سجعاً ورأت من ورائه نائسي قائد حراسها واقفاً في موقف الحراسة وهو مجرد حسامه .

فظهرت عليها علائم الرضى وجلست حول مائدتها واستوثقت ان خنجرها لا يزال في مكانه ثم قالت للخادمة :
- أبلغني الدوق دي كيز إني أنتظره .

وبعد هنيهة أقبل الدوق دي كيز ، وهو لابس أجمل الملابس ، حسب عادته في التأنق ، فالحنى أمام الملكة ووقف بلاء العظمة والجلال .

فابتسمت الملكة له الطيف ابتسام ، وأشارت اليه ان يجلس فيجلس بجانبها وجعل ينظر اليها نظرات الاكفاء للاكفاء
وساد السكوت دقيقة بينهما ، كانت كاترين تحاول في خلالها ، أن تصرعه بنظراتها .

ولكنها بالرغم عن قوة سلطانها وقوة جنانها ، لم تتمالك عن الارتعاش ، لأن الدوق كان ينظر اليها نظرات من يحسب نفسه في منزلتها ، ولا جرم فقد كان يعتقد انه لا تمضي ليلة او ليلتان حتى ينادي به الباريسيون ملكاً لفرنسا بدلاً من شارل التاسع .

وقد ساء الملكة ما رأت من دلائل كبريائه ، ولكنها كظمت الفیظ وقالت :

— لقد أخبروك دون شك يا حضرة الدوق ان مولاي الملك عزم عزماً باتاً على إنقاذ المملكة من أعدائها الهوكينوت .

— لقد علمت بهذا العزم يا سيدتي وأحسب نفسي سعيداً به ، وإن كان قد تأخر إلى الآن .

— إن الملك هو الحاكم المطلق ، وله وحده ان يختار الزمن الموافق لتنفيذ أغراضه ، بل هو يعرف ان يختار ذلك الزمن أكثر من أولئك المراوغين المحتالين ويعرف أن يجد الساعة الصالحة لضرب أعداء الكنيسة ، وأعداء عرشه الضربة القاضية .

فابتسم الدوق ولم يجب .

فقالت كاترين :

— أيسطيع الملك ان يعتمد عليك في هذه المهمة .

— إنك تعلمين يقيناً يا سيدتي إنني ورثت عن أبي مبدأ الدفاع عن الكنيسة فلا أتأخر لحظة عن قضاء مثل هذه المهام .

— حسناً فأية مهمة خاصة تريد ان تتولاها يا حضرة الدوق .

— مهمة القبض على كوليفي ، لأنني أريد إرسال رأسه إلى أخي الكاردينال .

فأصفر وجه كاترين ، لأنها هي أيضاً وعدت بإرسال رأس هذا الأميرال إلى البابا .

لكنها لم تظهر شيئاً من خاوفها وحقدتها وقالت :

— ليكن، ولكن لا تعمل شيئاً قبل ان تسمع أجراس كنيسة سانت جرمين وهي العلامة المنفق عليها .

— أهذا كل ما تريده سيدتي .

— نعم ، ولكنك ما زلت من أنصار العرش والكنيسة فلا بد لي من أن أظهر لك ما اتخذته من أسباب الاحتياط للدفاع عن اللوفر ، إذا خطر لبعض

المجانين ان ياجوه .
وعند ذلك نادى نانسى ، قائد حراسها ، فأسرع الى تلبية فداها ،
فقال له :

— كم يوجد في اللوفر من حملة البنادق يا نانسى ؟
— الف وخمسمائة .

فابتسم الدوق .
وكانت كاترين تراقبه خلسة فقالت لنانسى :
— وكم لدينا غيرهم .
— ألفا جندي وألف فارس .
فقطب الدوق حاجبيه فقالت :

... ولم لدينا غير ذلك ؟ لا بأس ان تقول كل شيء أمام الدوق يا نانسى لانه
من أوفى خدام جلالته .
فقال نانسى : ولدينا أيضاً اثنا عشر مدفعا .
— أهى من مدافع حفلات الأعياد ؟

— كلا يا سيدتي بل هى من مدافع القتال ، وقد أدخلناها سراً إلى اللوفر
ليلة أمس .

فاصفر وجه الدوق ، ولم يعد يبتسم ، بل زالت عن وجهه علائم العظمة
وعاد الى المبالغة باحترام الملكة .

وأضافت : لا بأس من تطمين الدوق يا نانسى ، فقل ما جاءنا به البريد منذ
ثلاثة أيام

فأجاب نانسى بلمحة المذهل : لقد تضمن هذا البريد يا سيدتي ، أن
أوامر الملك قد نفذت ، وأن كل وال من ولاية الأقاليم أرسل من لديه من الجنود
إلى باريس .

— ألم يرد منهم أحد بعد .

— كلا ، ولكن جاءتنا الأنباء غيرة بقدوم الطلائع ، وانت ستة آلاف فارس سيصلون إلى باريس الليلة ، أو صباح غد . وأنه بعد ثلاثة أيام ، سيكون تحت أسوار باريس عشرون ألف جندي ، يخضعون لأمر الملك .

فصعقت هذه الأنباء الدوق دي كيز ، وقال في نفسه : لقد أحبط المشروع .

ثم انحنى أمام الملكة باحترام عظيم لم يتعوده من قبل .
وعاد نانسي الى الحديث فقال :

— الشيء بالشيء يذكر ، فهل تأذنين لي بهذه المناسبة ان أسألك عن يتولى قيادة هذه الجنود في اللوفر . . العله المسيو دي كوسين ؟

فاتقدت عينها الدوق ببارق من الرجاء لان دي كوسين كان من أشياعه ، كما عرف القراء في الأجزاء السابقة .

ولكن جذوة هذا الرجاء لم تلبث ان انطفأت ، لان كاترين أجابت نانسي فقالت :

— إن الملك عين دي كوسين لحراسة قصر الأميرال ، فليبق في مكانه ، وأما القيادة في اللوفر فستتولاها أنت يا نانسي ، لأنني واثقة من حسن إخلاصك .

وركع نانسي وقال : إني أصدق ، في خدمة بيتكم الكريم ، حتى الموت .

— وأنا واثقة مما تقول فأبدأ منذ الليلة في هذه المهمة وضع الجنود في مواضعها عند الابواب وليكن الفرسان متأهبين في ردهة القصر الكبرى ، وضع حول الملك أربعمئة جندي .

وإذا رأيت بعضاً يحاولون الهجوم على اللوفر ، فأطلق عليهم النار دون استئذان مهما كانت طبقات اولئك الناس ، ولا فرق ان يَكولوا من الكهنة

أو الهوكينوت أو الكاثوليك .
- إني أقتل كل من يتعرض للهجوم دون إشفاق فمن يريد أن أعين الحراسة
جلالتك ؟
- لا حاجة بي الى الحراس لان الله يحميني .

فانصرف نانسي وبقيت الملكة مع الدوق فقال لها :
- إن سيدتي تعلم مقدار إخلاصي في خدمة الملك والكنيسة .
- لا ريب عندي في ذلك يا دوق ، ولو لم تكن قد اخترت لنفسك مهمة
قتل الأميرال لعهدت اليك ان تتولى أنت حماية اللوفر .

فعض الدوق شفته حتى كاد يدميها فقال :
- لم يبق علي يا سيدتي إلا ان التمس منك استقبال رجل القيت اليه بعض
أوامر بشأن الليلة القادمة فإن هذا الرجل مشكك ولا يقدم علي ما عهدت به
اليه إلا بأمر جلالتك .

- ليدخل .
فخرج الدوق ، وأشار إلى رجل هائل الخلقة ، كان واقفاً ينتظر في
آخر الرواق .
فأسرع الرجل إلى تلبيته ودخل به إلى الملكة .

فنظرت اليه معجبة بهذا الجسم الضخم العظيم ، فسر الرجل لهذا الاعجاب
وجعل يقتل شاربيه .

فقالت له : لقد عهد اليك قضاء أمر هذه الليلة .
- نعم وهو قتل الكافر ، فإذا أذنت جلالتك قطعت رأسه .
- نعم إني أذن لك فاذهب وامثل لمولاك .
فبقي الرجل واقفاً في مكانه ولم ينصرف .

فقال له الدوق : ألم تسمع ؟
- نعم ولكنني أحب ان أخرج بعدها واثقاً مطمئناً من باريس وان يصحبني

ثلاثة من أصدقائي إلى رومة. وأنت تعلم يا مولاي ان أبواب باريس مقفلة لا تفتح لأحد إلا بأمر خاص .

فأخذت قلماً وكتبت مسرعة ما يأتي :
« تأمر جميع حراس الأبواب في باريس ان يدعوا حامل هذا الأمر يخرج من باريس مع من يصحبه من الرفاق » .

ثم دفعت الورقة اليه فأخذها وهم بالانصراف .
فأعطته الملكة كيساً ملأ من الذهب وقالت له : لقد نسيت هذا الكيس فهو جائزتك .

فأخذ الرجل الكيس وانصرف ، وهو يعتقد انه أربب الملكة بضخامة جسمه وكبر شاربيه .

فقال الملكة عند ذلك للدوق : هلم بنا الآن إلى قاعة الاجتماع للداولة مع الاسياد .



وطال اجتماع هذا المؤتمر الى الساعة السابعة مساء .
وكانت كاترين قد استدعت الملك مراراً ، ولكنه كان يلعب بالكرة مع الهوكينوت فأبى ان يجيب نداء أمه .

وكان عالماً بعقد المؤتمر ولكنه كان يرجو ان لا يحسروا على تقرير ذلك الامر الخطير في غيابيه .

وفي الساعة الثامنة من المساء عقد اجتماع في قصر الدوق دي كيز حضره كل من كان يعتمد الدوق عليهم في مهماته وكل من كانوا يطمعون بالتقدم في مملكته الجديدة ويأتمرون معه على خلع الملك .

فوقف الدوق بينهم موقف الخطيب وقال :
— أيها السادة إننا سننقذ الكنيسة في هذه الليلة فقد عرف كل منكم ما

يجب ان يفعله

فساد السكوت بين الحاضرين وأتم الدوق حديثه فقال :

— أما مشروعاتنا التي تعلمونها فلا بد من تأخيرها إلى فرصة أخرى لأن كاترين واقفة موقف الحذر ولنتظاهر بالاخلاص لذلك وإننا من خير رعاياه... فاذهبوا أيها السادة واصبروا مثلي فلا بد من الصبر .

وكانت علائم الاضطراب والقلق بادية على وجهه الجميل فلم يحسر أحد أن يسأله عن سبب هذا الانقلاب ونقض أوامره السابقة . فانصرفوا وهم آسفون لتأخير تحقيق مطامعهم .

وبقي الدوق في قصره من الساعة التاسعة الى الحادية عشرة وهو يستقبل رهبان الاديرة ويلقي الاوامر على مشايخ الحارات ويقول لهم : لقد دنت الساعة فارووا ظمأكم من الكفار بأمر الملك فهو أراد .

فيصيحون جميعهم : ليبت الهوكينوت !

ويصيح الدوق في أثرهم وهو يكاد يتميز غيظاً : هذا ما يريده الملك !

وإنما كان يقول هذا القول لان أمانيه بنيلى الملكية في تلك الليلة ، قد ذهبت أدراج الرياح ، فأراد أن يلقي مسؤولية المذبحة الهائلة على عاتق الملك .

وكانت تلك الليلة صافية الاديم وقد تألقت نجومها في السماء كأنها أرادت الإشراف على المذابح الدموية التي يرتكبها الانسان لجهله .

ثلاث حوادث

كانت تجري في تلك الليلة ثلاث حوادث مختلفة وهائلة .
 إحداها في سجن التامبل حيث سجن بارداليان وابنه .
 والثانية في قصر الدوق دامفيل الكائن بقرب باب مونغارتر .
 والثالثة في خمار « ميت يتكلم » وهي خمار كاتي .
 ففي الساعة التاسعة ، من تلك الليلة ، دخلت إمرأتان سرا ، إلى
 سجن التامبل .
 وسار بهما ، الذي أدخلهما ، إلى البناية الخاصة بمونتليك ، حاكم
 السجن .
 وهاتان المرأتان هما البقيتان ، اللتان تقدم لنا وصفهما في الفصول
 السابقة .
 وكان مونتليك ينتظرهما وهو جالس حول مائدة وضعت عليها صحنون
 الطعام الشهوي وقناني الخمر المعتقة .
 وقد أطلق سراح خدمه ، تلك الليلة ، كي يبقى وحده مع
 عشيقته .
 فلما جاءت البقيتان ، كان قد أشرف على السكر ، لانه شرب
 الزجاجة الرابعة .

وقد دهش للملابسها ، ولما كان عليهما من الحلى بفضل كاتي ، ولقب
إحداهما بالملكة مرغريت ، والثانية بملكة اسبانيا . وجلس بينهما وهما تملآن
كأسه كلما فرغ .

وما زالوا على ذلك ، إلى أن بلغت الساعة الثانية بعد انتصاف
الليل ، وبلغ السكر من الحاكم أقصى مبالغه ، وانطرح على الأرض نائماً
وهو لا يعي .
وعند ذلك ، أخذت البغيتان تصفيان ، وقد بدت عليهما علائم
الرعب .



ولنذهب الآن الى قصر الدوق دامفيل قرب مونغارتر .

فإن هنري عاد إلى قصره بعد انتصاف الليل بساعة ، وكان مقطب
الجبين ، عابس الوجه ، لأن رئيس المؤامرة ، وهو الدوق دي كيز أمر أن
لا يهاجوا اللوفر .
وفي ذاك ما يؤخره عن الوصول لأمانيه .

ولكنه كان قد تعزى عن ذلك بفرح وحشي ، لأن أخاه كان
معدوداً من أنصار الهوكينوت ، وهو رئيس الأحزاب السياسية أيضاً ،
فتعبد اسمه في جملة الذين حكم عليهم بالقتل ، وعهد إلى هنري مهاجمة
قصره وقتله .

فكان فرح هذا الأخ المفترس مزدوجاً ، لاعتقاده أنه سيدشفي غله بالانتقام
من أخيه ويظفر بزوجه حنة بعد قتله .

وأما بقية أمانيه فسينالها بعد أن تسنح له فرصة تؤذن للدوق دي كيز
بإدراك مقاصده من الهجوم على اللوفر .

وعندما دخل هنري إلى قصره جعل يتفقد الحامية ، فكانت القاعات غاصة بالجنود وجميعهم مدججون بالسلاح متساهبون للقتال ، وفي مقدمتهم الفيكونت اسبرمونت عدو برداليان الأكبر .



وأما الخمار « ميت يتكلم » فقد كانت صاحبته كاتي صرفت جميع زبائنها في الساعة التاسعة من المساء وأقفلت الباب .

وعند انتصاف الليل فتحت ذلك الباب ، فجعلت النساء قنوارد اليه ، فما مضى نصف ساعة حتى غصت الخمار بأولئك النساء على اختلافهن ، من راقصة ومتسولة ومستكشفة الطوالع والمتشوهات من عرجاء وكتعاء وحدباء إلى آخر ضروب العاهات .

فكانت كاتي تحسن استقبالهن .

ثم لما انتظم عقدهن جاءت بكل ما كان عندها من الخمر والنقود فجعلت تسقيهن وتنفعهن بالنقود .

ثم نهضن فجأة بعد أن قالت لهن كاتي بضع كلمات وخرجن من تلك الخمار بحيث لم يبق فيها أحد .

وبعد ذهابهن قامت كاتي إلى خزانة فأخرجت منها كيساً يحتوي على ثلاثمائة ريال وتنهدت قائلة :

.. هذا آخر ما بقي لي

ثم وضعت الكيس على مائدة ووقفت تصغي .

وفي الساعة الأولى بعد انتصاف الليل عادت الخمار إلى الامتلاء بعد فراغها وكان كل زائراتها من النساء .

ولكنهن لم يكن هذه المرة من أهل العاهات ، بل كن من أهل الظرف

والكياسة أكثرهن جميلات وكلهن بغيات

فجلسن في الخمارة يشربن ويغنين ، حتى أفرغن كل ما كان عند كاتي من الخمر .

وبعد ذلك أخذت كاتي توزع عليهن ما كان في الكيس من النقود حتى لم يبق فيه شيء .

فأخذ البغيات بالانصراف وخرجن من الخمارة إلى تلك الشوارع المأدبة الساكنة .

وبعد انصرافهن أخذت كاتي مصباحاً ونزلت إلى القبو فافتقدته ، فلم تجد فيه زجاجة خمر . فصعدت إلى المطبخ فلم تجد فيه قطعة من اللحم القديد ، فدخلت إلى غرفتها وفتحت خزانها فلم تجد فيها قطعة حلي لأنها باعت منذ يومين كل ما كان لديها في سبيل الحصول على المال ، بحيث باتت فقيرة لا تملك شروى نقير .

ولكنها لم تحفل بما دامها من الفقر ، وأخذت خنجرأ ووضعته في حزامها وأقفلت باب خمارتها وخرجت فعملت تسير متاهلة كأنها سائرة لغرض سري ، وقد دهشت لهذا السكوت الخيم على باريس .

- ٢١ -

ما وراء هذا السكوت

وجعلت كاتي تسير وهي معجبة لهذا السكوت ، تفتكر بأسبابه فلا تهتدي اليها ، إذ لم تكن رأت قبل الآن شوارع باريس خالية مثل هذا الخلو حتى من اللصوص .

وفيا هي تسير رأت باب منزل جميل قد فتح وخرج منه نحو عشرين رجلاً عليهم ظواهر النعمة .

وكانوا جميعهم مسلحين بأسلحة مختلفة .

وفي مقدمتهم رجل يحمل مصباحاً وآخر يحمل ورقة وجميعهم واضعون على صدورهم صليباً ذات لون أبيض .

وسار أولئك الرجال يتقدمهم حامل الورقة يجانب حامل المصباح .

فهاج منظرم فضول كاتي وأرادت ان تعلم إلى أين يذهبون .

فتبعتهم حتى وقف حامل الورقة عند باب منزل ووقف الجميع .

ففتح الرجل الورقة وقرأ فيها ، ثم دنا من ذلك المنزل ، ورسم علامة على بابه .

ثم استأنفوا فدنت كاتي من ذلك المنزل بعد انصرافهم ونظرت الى العلامة فرأت انها صليب أبيض رسم بالطباشير .

فسارت في أثرهم ورأت أنهم وقفوا أيضاً عند منزل آخر ورسموا على بابه

العلامة نفسها

ثم انصرفوا إلى شارع آخر ومضت كاتي في سبيلها .

ولكنها لم تسر بضع خطوات حتى لقيت عصابة أخرى كالعصابة السابقة يتقدمها رجل يحمل ورقة وهم يقفون عند بعض الأبواب ويرسمون عليها تلك العلامة .

ثم رأت عصابة ثالثة فرايعة وكانوا جميعهم يسرون ساكتين فلا ينبسرون بحرف كأنهم يخشون ان يوقظوا النيام .

وكانت كلما التقت عصابة بأخرى ، تقدم الرجلان اللذان يحملان الورقة فتبادلا بضع كلمات مسمرا ، وذهبت كل عصابة في شأنها ، كأنها كانت تتبادل كلمة السر .

وقد رأت كاتي أن هذه العصابات كثيرة ، فحاولت أن تعد الأبواب التي رسمت عليها العلامات ، ولكنها رجعت عن ذلك القصد ، لكثرتها .

ولبثت على ذلك إلى ان سمعت الساعة الكبرى تدق ، فارتعشت وقالت : ماذا أصنع هنا ، إن الساعة قد بلغت الثانية ، وقد تأخرت عن الميعاد

* * *

في تلك الساعة ، أي في الساعة الثانية بعد انتصاف الليل ، كان الدوق هنري دي كيز بمتطياً جواده ، في ردهة قصره الكبرى ، وهي خاصة بالجند

وكان الدوق دي اومال واقفاً بالقرب من قصر الأميرال كوليني يصحبه مائة رجل من حملة البنادق .

وكان مستشار الملك واقفاً قرب كنيسة سانت جرمين وهو يصدر الأوامر
 بصوت منخفض على شيخ حارة يصحبه خمسون رجلاً
 وكان هنري دي مونمورانسي خارج قصره ينتفض من الجزع إذ ضاق صبره
 عن انتظار الساعة المعينة .
 وكان ممتطياً جواده يحيط به ثلاثمائة فارس من أعوانه .
 وكان كرسي شيخ الجزارين واقفاً قرب قصر أحد مشاهير الهوكينوت
 يجامعة من أبناء حرفته .
 وهكذا جميع من تولى زعامة في تلك المذبحة التاريخية الهائلة فقد كان في تلك
 الساعة واقفاً مع أعوانه في موضع من المواضع التي يقيم فيها الهوكينوت وغيرهم
 من المتهمين التي رسمت العلامة على منازلهم
 وكانت الرسل تسير كل حين ، من عضابة الى عضابة ، فتوصل أوامر
 الرؤساء .
 وهذه العضابات التي كانت تنتظر بلاء الجزع ان تسمع جرس كنيسة سانت
 جرمين لتفتك بعباد الله الفتك الذريع كانت مؤلفة من أعيان باريس وصفوة
 نبلائها ورجالها .
 وقد ساد بينهم ذلك السكون وحلت عليهم رهبة الموت .

- ٢٢ -

أعلم أم جنون ؟

فبين الساعة الثانية والثالثة من تلك الليلة ، حدث حادث هائل في سجن التامبل .
وكان بطلا هذا الحادث هما بطلا هذه الرواية ، بارداليان الاكبر وبارداليان الاصغر .
وهي حادثة تفوق حد التصور ، حتى أن قلم الكاتب قد يقف عند سردها من الرعب .
ولكننا لا نجد بدأ من ذكرها ، لأنها خاصة ببارداليان . وإنما نذكر الآن مقدمتها الخاصة برينيه الفلسفي ، فقد كان هذا الرجل صاحب ذاك الفعل المنكر .
كان رينيه هذا من المشتغلين بالعلم ، وأخص ما كان يشتغل به رصد الكواكب والكيمياء .
فلم يفز من الكيمياء إلا بآثاره تركيب السموم ، واختراعه آلات الموت الرهيبة .
فهو قاتل ملكة النافار بذلك الصندوق المسموم ، كما تقدم .
ولم يستفد من علم الفلك غير الهوس والتطرف ، لاعتقاده بإمكان مخاطبة الارواح .

وكان مما يمتقده ان لكل إنسان جسمين ، واحداً في الارض وآخر في الكواكب ، كما انه كان يعتقد اعتقاداً راسخاً بالخلود ، وإمكان إحياء الموتى .

وله في ذلك آراء لا متسع لذكرها في هذا المقام الضعيف . فنكتفي بالقول انه كان يعتقد اعتقاداً مكيناً بمناجاة الارواح ، وإحياء الاموات وإمكان خلود النفوس .

فلا تعجب لاعتقاد مثله ، في مثل ذلك العهد ، عهد الخرافة والسحر والشعوذة والتدجيل ، فإننا نرى في هذا العصر عصر النور والحضارة والعلم والعرفان ، بعض كبار الاطباء يشتغلون بما كان يشتغل به ربيذه ويحاولون إحياء الموتى .

ولما اغتالت كاترين ابنها ولده ماريلياك ، كان واقفاً خارج الكنيسة . حتى إذا خرج الرجال الاربعة يبحثون ذلك الرجل المنكود أمرهم ان يسيروا بها إلى قصر حصده الذي بنته له كاترين .

وبعد ساعة كانت جثة ماريلياك ممددة على مائدة ريفيه ، ينظر اليها باكية .

حتى اذا فضبت دموعه أقفل باب غرفته وفتح النافذة فأخذ نظارتيه إذ تبين له من الكواكب انه يستطيع إحياء ولده من الموت واستحضار نفسه الثانية من النجوم .

فبدأ يقسل جراح ولده ثم تفقدها جرحاً جرحاً فرأى ان أكثرها كانت قاتلاً وقد أصاب بعض الخناجر القلب . ولكنه لم يبال لاعتقاده ان القلب آلة الحياة وان دورة الدم تحرك الآلة وان النفس تحرك الدم .

أما النفس فيستحضرها من الكواكب وأما الدم فيمستخرجه من الناس فتعود الحياة الى ولده ويهرب به فيبلغ من نكايه المملكة ما أراد .

هذا ما كان يمتقده ذلك الرجل على فشله في كل تجربة ، ولكن موت ولده هاج به ذلك الاعتقاد ، بل ذاك الجنون .

غير ان جنونه كان منحصراً بهذا المعتقد دون سواه .
وكان لا بد له في تلك الساعة من مناجاة الأرواح لأمرين .
أحدهما التفطيش عن نفس ولده ، الهائمة في تلك العوالم لتحريك الدم ..

والثاني سؤال تلك الأرواح عن الدم الصالح لإدخاله في جسم ولده لتحريك القلب

فترك ولده في موضعه وذهب إلى غرفة الرصد ، وأقام يرصدها إلى الصباح وهو قائم في مهامه الخيال .
وقد تجرد عن المادة وشخصت عيناه إلى اللانهاية حتى مثلت له كثرة التفكير ان روح ولده تتناحيه .

ولعله كان في هذه الساعة من الحالمين .
غير انه وقف وقفة المجانين في الغرفة وجعل يقول :
ولدي ماذا تريد .. من أين أتيت ، اطمئني أيتها الروح فستلبسين جسمك الجليل في هذه الأرض ..

ديودات ان امك قد انتزعت كل دمائك .. ولم يبق في جسمك قطرة دم ..

ديودات قل . أي دم تريد أن أدخله إلى جسمك ..
ثم تمثل له كأنما هذه الروح تكلمه همساً فوضع يديه وراء أذنيه شأن المصغى وقال : من . دم من .. صديقك الحميم ؟ . من هو هذا الصديق ؟
تقول انه في السجن ، لا أستطيع الوصول اليه ، وأي سجن لا أستطيع دخوله ؟ قل ما اسم هذا الصديق ؟ بارداليان ؟
نعم نعم عرفته .. إطمئن يا بني وارجمي أيتها الروح الهائمة إلى مقرك ،

فسيكون لك هذا الدم

ولا نعمل كيف خطر لرئيسه أن يذكر بارداليان ، فقد كان شأنه في تلك الساعة شأن الحالم ، بل ربما كان حالماً ، وقد تمثل له خيال ولده لكثرة التفكير به ولاعتقاده السابق بإمكان المناجاة فخيّل له أنه يكلمه ، وكان يعتقد أن دم الأصدقاء ألحج لولده .

فمثلت له الذاكرة المضطربة بارداليان ، إذ كان يعلم أنه من أصدقاء ولده .

ولما كان يناجي الروح في تلك الساعة إلا لسؤالها عن الدم الصالح لادخاله في جسم ولده ، خيل له أن الروح تطلب إليه دم بارداليان ، أي دم ذلك الصديق .

وهو جنون غريب ، ولكنه غير مستغرب من أولئك المشتغلين بعلوم الخيال .

وقد روى عنهم الراويون ما لا تذكر معه هذه الحادثة في شيء . ولما صعدا رئيسه من سكرة خياله ، عاد إلى جثة ولده ، وقد أشرق الصباح ، فوضع عليها بعض مواد تقيها من الفساد ، وذهب إلى غرفة أخرى وهناك فتح درجاً وأخرج منه ورقتين ختمتا بختم الملك ولا كتابة عليهما . ولا ندرى أقال الورقتين بواسطة الملكة كاترين أم سرقتها ، أم كان ذلك الختم مزوراً .

فإن ذلك الرجل كان قادراً على نيل ما يريد في ذلك البلاط الذي لا تسود فيه غير الملكة كاترين وهي تلميذته وأم ولده . ولما افتقد الورقتين أخذ أحدهما وافتكر هنيئة .

ثم كتب على تلك الورقة بضعة أسطر فوق الختم الملكي ، وذهب تواً إلى سجن التامبل .

وهناك قابل الحاكم مونتيك ، وأراه الورقة المكتوبة والختمومة

بجتم الملك

ولما قرأها مونتليك نظر إلى ربنيه ، وقد ظهرت على وجه ذلك الحاكم
علائم الذعر الشديد ..

وكان ربنيه يتوقع أن يرى منه هذا الرعب فقال له :
ماذا أصابك ؟

- لا شيء ، ولكني لا أعلم إذا كانت هذه الآلة الهائلة تصلح للعمل
الآن ، لأنها هجرت منذ عهد بعيد ، وقد بطلت هذه الفطاعة ، فبطل
استعمال هذه الآلة .

فأجابه ربنيه قائلاً : لا تخف تعطيلها ، فأنا أتولى إصلاحها إنما أرجو أن
تجمنني بالذي يتولى إدارتها .
- إذاً تعال معي

وسار مونتليك وإياه في رواق طويل انتهيا منه إلى غرفة ضيقة
فقال له :

- إن الرجل في هذه الغرفة فادخل اليه ، أما أنا فاني ذاهب للإزالة
الأسيرين إلى المكان المعين ، فهل يجب أن أكون حاضراً ساعة العمل .
- كلا . .

فانصرف الحاكم مسرعاً ، كأنه يريد الإسراع في الهرب من هذا الرجل
أو أنه يسرع كي يتأهب لاستقبال البقيتين اللتين واعدما على اللقضاء في
هذه الليلة .

أما ربنيه ، فإنه دخل إلى الغرفة ، ولقي فيها رجلاً كان يشتغل
بإصلاح نعله .

وكان هذا الرجل ضخيم الجثة ، هائل الحلقة ، عريض المنكبين ،
شديد المضل .

وقد كان من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة فأطلقوا سراحه

- مشرطين عليه أن يعمل في سجن التامبل أعمالاً خاصة .
فأراه رينيه ورقة مختومة بختم الملك .
فأشار الرجل دون أن يضطرب إشارة تدل على الامتثال .
فألقى إليه رينيه عند ذلك أوامره بصوت منخفض .
فأجابه الرجل قائلاً :
- حسناً فهذا أنا ذاهب الآن .
- كلا ، ليس الآن .
- متى ؟
- في الليل ، فلاني لا أستطيع أن أكون هنا قبل الساعة الثالثة والنصف
بعد افتتاح الليل ، وأريد أن أشاهد العملية .
- حسناً وسأبدأ بإدارة الآلة في الساعة الثالثة ، أي قبل حضورك
بنصف ساعة .
فأشار رينيه برأسه إشارة المصادقة وانصرف .
ولكنه حين وصل إلى باب السجن الخارجي خطر له خاطر فقال :
ولكن يجب أن أراه ولا بد من أقرأ في يده .

- ٢٣ -

الالة

بعد أن خرجت ماري توشيت من السجن وأُنقذت بارداليان وابنه من ذلك المذاب الهائل الذي كانا ينتظرانه ويتوقعان بعده الموت ، أعاد السجنان الأسيرين إلى سجنهما .

وقد تولد في نفسيهما رجاء عظيم ، ولكن كلا منهما كان يبالغ في إخفاء سروره عن الآخر كما كانا يبالغان في إخفاء خوفهما من العذاب . غير إن بارداليان الأكبر نظر إلى ولده وقال :

- اني اغفر لك يا شفالبيه ذنب إنفاذك هذه المرأة الصالحة ، ولكن اغفره لك هذه المرة فقط ، فهذه أول مرة ، رأيت امرأة تعرف الامتنان .

... بل قد رأيت رجلاً أيضاً يا أبي .

- ومن هو هذا الرجل ؟ العله مارشالك مونغورانسي الذي يدعنا نموت في هذا السجن ، في حين انه كان يجب ان يحرق باريس وينسف التامبل لانقاذنا ، فانا نموت من أجله وفي سبيله .

- ولكنه إذا نسف التامبل يا أبي يكون قد نسفنا أيضاً .

غير اني لا أريد بذلك الرجل مونغورانسي ، بل أريد به العالم راميس الذي أنقذنا مرة في شارع مونمارتر ، ألا تذكر ذلك يا أبي .

— نعم لقد أصبت وقد صاروا اثنين ، فهل غيرت عهدي بالإنسان
والإنسانية .

ثم عاد إلى الحديث عن مساري توشيت ، هذه المرأة التي ظهرت لهما في
السجن كالملائكة ، فاعتقد إعتقاداً راسخاً ان حالتهما قد تحسنت ، وان
المرأة لا بد أن تنقذهما من السجن .

وقد مضى بهما النهار وهما يتحدثان بهذه الشؤون .

ولما أقبل الليل فتح باب غرفتهما فجأة .

فاضطرب قلباهما سروراً وقد حسبا أن ساعة الانقاذ قد دنت .

ولكن الداخل لم يكن رسول النجاة والسلامة ، بل كان رسول العذاب
والموت وهو رينيه الفلبي .

وقد دخل إلى الغرفة وحده وبيده مصباح ، وبقي الجنود الذين جساموا
معه في الرواق خارج السجن ، وهم متأهبون للدخول عند أول إشارة
تصدر من رينيه .

أما رينيه فإنه رفع مصباحه كي يرى الأسيرين وذهب توا إلى الشفالييه
وقال له : أتعرفني ؟

فقال بارداليان الأكبر في نفسه : ما هذا اليوم الذي جاءنا في هذه الساعة
فلإني موجس منه شراً .

أما بارداليان الأصغر فإنه تفرس في وجهه هنيئة وقد بدت على وجهه
علائم القعدة وابتسم إبتسامة احتقار وقال :

— نعم لقد عرفتك وإن كنت قد تغيرت تغيراً عظيماً ، فأنت الذي
زرتني مرة في الفندق الذي كنت فيه .

وأنت هو ذلك الرجل الذي سألتني أسئلة غريبة عن تاريخ ولادتي وعما
إذا كنت مطلق الحرية .

وأنت الذي أعطيتني ذلك الكيس المملوء بالدنانير .

وأنت الذي فتحت لي باب ذلك المنزل الكائن عند الجسر الخشبي حيث
واعدتني فيه على اللقاء .

ثم التفت إلى أبيه وقال :

- انظر يا أبي إلى هذا الرجل فهو أسفل إنسان عرفته ، وانظر إلى وجهه
تر كيف طبعت عليه الخيانة والآثام بحروف ظاهرة .

أتعلم لماذا أعطاني يا أبي ذلك الكيس المملوء بالدنانير ؟ أتعلم لماذا ذهب بي
إلى كاترين الهائلة ؟

انه كان يريد ، وكانت تريد ، أن أقتل صديقي وضيفي الكونت دي
ماريلياك .

فاهتز رينيه لذكر اسم ولده وسرت إليه عاطفة إنسانية ، حتى انه
كاد يبكي .

ولكنه لم يبك بل ضحك ضحكاً هائلاً وقال :

- وأأأ أريد قتل ديودات .. أواء إن ديودات لو لم يمت ، ولو لم أسجن
نفسه في عالم الخيال ..

ولم يدعه بارداليان يتم حديثه ، فانه انقض عليه فهز ذراعه هزاً عنيفاً
وقال له :

- ويحك ماذا تقول . أتقول ان الكونت مات .

فأجابه رينيه وقد ظهرت في عينيه علائم الجنون :

- نعم انه مات واسفاه ، ولكنني لحسن الحظ تمكنت من الاستيلاء على
جسمه المادي والخيالي .. أيها الرجل إني أثبت اليك لهذا الشأن فأرجوك
أن تبسط لي يدك فانظر فيها .

فوضع بارداليان يديه على صدره وقال والدمع يسيل من عينيه :

- لقد كنت زين الشباب يا ديودات ببسالتك وجراءتك واقدامك ..
أسفي عليك ، لقد فاجأك القدر المحتوم بما كنت أتوقعه لك فلم يقتلك غير

هذه الأفعى ..

لقد أصبت يا ابي فان الناس يجهلهم قطعيع كبير من الذناب ..

— ولكن بينهم من يسبه اليوم بشؤمه كهذا الرجل .

فقال رينيه مخاطباً الشفالييه :

— أتريد يا سيدي أن تبسط لي يدك .

وقد قال له هذا القول بلمهجة المتأثر الحزين بحيث لم يسمع بارداليان غير الامتثال فمد له يده وقال :

— لم تبق لي حيلة بمنعك عما تريد فاني أراك تجهش بالبكاء

فهز أبوه رأسه وقال :

— لا شيء يغير أخلاقه ، فلو طلب إلي أنا هذا الطلب لما مدت له يدي ، بل رفضته برجلي . وبعد ، فماذا يريد هذا الرجل العله ممن يستكشفون الطوالع .

فأخذ رينيه يده وبارداليان يحسب انه يريد مصافحته

ولكنه فتح يد بارداليان وأدناها من النور وجعل ينظر في عروق باطن الكف ، فلسي عواطفه الأبوية ، وزال حزنه على ولده ، ولم يعد يفكر إلا بمحنونه العلمي ، وقد ظهرت عليه علائم الفرح العظيم ، بعد أن تمنع في الكف وفحص العروق وقال :

.. هوذا البرهان ، أنظر إلى خط الحياة في كفك فسانه سيمتزج بذلك الخط الذي رأيته في كف ديودات

وقد انتمشت آماله وابرقت أسرته بفرح لا يوصف وبات واثقاً أن دماء بارداليان تحيي ولده .

أما بارداليان الأكبر فانه سمع كلامه وفهم منه ما يدل على نخطر محقق بولده فهجم عليه وحمله بين يديه ، ثم القاه بعيداً كما يلقي الكرة .

فنهض رينيه ونظر إلى الشفالييه نظرة غريبة ، ثم فتح الباب وخرج منه

دون أن يفوه بكلمة .
فقال أبوه بعد خروج رينيه وقد اصفر وجهه ، أرأيت هذه النظرات التي
تشبه نظرات الأفعى .

فلم يحبه الشفالييه وقد هاجت مكاناً أحزانه على صديقه ديودات وجعل
يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً بخطوات مضطربة .
وقد كان اضطرابه شديداً ، بحيث أن أباه لم يره مرة على هذه الحالة
قبل الآن .

وعند ذلك فتح باب السجن ودخل منه ضابط فقال لهما : تفضلا
يا سيدي واقيعاني .

فارتعش بارداليان الأكبر سروراً وأيقن أن ماري توشيت قد استصدرت
الأمر باطلاق سراحهما ، وإذا لم يطلقوا سراحهما ، فانهن ينقلونهما على الأقل
إلى غرفة ينفذ اليها النور .
فتأبط ذراع ولده وقال له : هلم بنا فسنأثر لصاحبك بعد خروجنا من
هذا السجن .

— نعم ، وسيكون انتقامي شديداً فاني أعرف قاتله .
ومشى الاثنان وأمامهما الضابط ووراءهما الجنود .

فقال بارداليان الأكبر للضابط : الملك ذاهب بنا يا سيدي إلى سجن آخر؟
— هو ذلك وقد نظر اليه نظرة المنذهل .
وما زال سائراً بهما حتى انتهى من الرواق إلى سلم مستدير الدرجات يشبه
ذلك السلم الذي نزل منه حين أرسل إلى غرفة التعذيب .

فقال بارداليان الأكبر : لقد كنت احسب إننا سنصعد ولكن أرائنا نزل
إلى جوف الأرض .

فابتسم الضابط ابتسام المشفق دون أن يحيب .
وانتهوا من ذلك السلم إلى رواق كثير التماريج والمنعطفات ، وكانوا دائماً

ينزلون في جوف الأرض .
وكان بارداليان ينظر الى الجدران فيرى العشب قد نبت عليها والحشرات
تعد بالآلاف لكثرة رطوبة المكان .

وما زالوا يسرون حتى وصلوا الى سرداب يبلغ طوله عشرين قدماً .
فاضطرب بارداليان الاكبر في البدء ، ولكنه اطمأن حين رأى سُلماً في
آخر ذلك السرداب يصعدون فيه بدلاً من النزول .
فلما وصلوا إلى ذلك السلم أمر الضابط الاسيرين ان يصعدا فيه وصعد في
أمرهما مع الجنود .

وكان بارداليان يصعد وهو يمد الدرجات فعد منها تسعاً .
وعندما بلغ الدرجة التاسعة وجد باباً قد فتح من نفسه فوجه بأمر الضابط
وبعد ان دخل الجميع سمعوا صوت باب حديدي قد اقفل ، وكان الظلام
حالِكاً ، ولا أثر لصوت فقال بارداليان الاكبر مخاطباً ولده .

– أين أنت ؟

– هنا بجانبك .

– هات يدك .

فمد الشفاليه يده لأبيه وهو لا يراه .

وضغط الأب على يد ولده وسارا خطوة ، فشعر بارداليان انه لا يمشي على
أرض عادية ، فانحنى وفحص الأرض فوجدها من صفائح الحديد .

فدعر وسأل : ما هذا ، إننا نسير على الحديد يا بني .

ثم واصل السير معه ، فلم يسر ثلاث خطوات حتى اصطدم بالجدار .
وفحص بارداليان الاكبر ذلك الجدار فوجده من الحديد ايضاً ، فقال
لولده : لا أدري في أية هوة سقطنا ، فلا تهرج مكانك حتى افحص هذا
السجن .

وعند ذلك جعل يسير وهو يسترشد بالجدار ويمد خطواته فطاف جدران

ذلك المكان ووصل إلى ولده بعد أن خطا أربعاً وعشرين خطوة .
 فقال له إنه قفص من الحديد ولكنه عرين متسع .
 ولم يجد بارداليان في طوافه مائدة أو كرسيًا ، بل علم أن الجدران
 متصلة وكلها من الحديد .
 فخطر له تلك السجون الهائلة التي كانوا يستعملونها قبل ذلك العهد
 وأيقن أنهم سجنوهما في هذا القفص ليقتلوهما جوعاً وعطشاً .
 وقد خامر الخوف نفسه وهي لا تعرف الخوف .
 ولكن كلا منهما رأى أن لا يزيد شقاء صاحبه باظهار مثل هذه المخاوف
 فسكتا .
 وبعد هنيهة أخذ بارداليان الأكبر يد ولده وقال :
 - أرى انه قد انتهى دورنا في هذه الحياة .
 فأجابته ولده قائلاً : من يعلم ؟
 - حبذا ، فإني أتمنى أن أعيش أيضاً معك ، ولكنني أكاد أجن توقاً إلى
 معرفة حقيقة هذا السجن ، بل هذا القفص ولماذا صنع كله من الحديد ، وكيف
 ان أرضه منهجرة من جميع جهاتها إلى الوسط .
 - ربما كان ذلك من ثقل الحديد فانحنى من تلقاء نفسه
 - ربما ، فلننتظر .
 - لننتظر وبعد فما تخاف من الموت جوعاً ؟ لا أنكر انه موت ذريع ،
 ولكننا نستطيع النجاة منه حين نشق انه لم يبق بد من الموت .
 - كيف ننجو من الموت جوعاً وبأية طريقة
 - بالانتحار .
 - لقد حاولت مرة الانتحار فراراً من الجوع في قبو دامفيل ، ولكن
 كان خنجرى معي في ذاك القبو ، أما الآن ، فلا سلاح معنا فكيف نتنحّر ،
 الملك ترجو أن تضرب رأسينا بهذا الجدار الحديدي .

— لقد سمعت ان بعض الأسرى كانوا ينتحرون بهذه الطريقة تخلصاً من
هذاب هائل ، وهي طريقة صالحة ولكن لدينا أحسن منها .
— ما هي ؟
— هي أن تموت بمهراز الجواد فان في كل نعل من نعلي مهراز وهو محدد
الرأس كالخنجر .

— بورك فيك يا بني ، فإنها خير طريقة للانتحار فاخلعها .
وأخرج الشفالييه المهازين ، واعطى أباه واحداً وأبقى له الآخر .
وبعد ذلك سككت الاثنان وقد انبطحا على الأرض الحديدية في وسط
الظلام الحالك ، وهما يحاولان أن يريا ويسمعا فلا يريان غير السواد ، ولا
يسمعان حساً .
فكان مثلها مثل أسدين حبسوهما في قفص فإذا ثار ثائرها وحاولا
الانقضاض وجدا سداً من ذلك القفص .

ولم يعلما كم أقاما في ذلك السجن .
وفيا هما على ذلك قال بارداليان الأكبر مخاطباً ولده .. أسمعت ؟
— نعم .. لنصبر ولنسكت ..
وكان الذي سمعاه صوت يشبه صوت آلة تبدأ بالعمل .
وفي الوقت نفسه استنارت الغرفة ، بل ذاك القفص الحديدي فجأة
بنور أصفر .

ثم زاد تألق هذا النور . كأن مصباحاً سرياً قد انققد ، ثم تضاعف أيضاً
بحيث بات الأسيران يستطيعان أن يريا كل ما كان في سجنهما الهائل لأن
هذين المنكودين كافا لا يزالان يعتقدان انهما في سجن ..

وكان أول فائدتهم من هذا النور ان كلا منهما رأى وجه صاحبه فعلم
ما يخالج قلبه من الرعب المرتسم على وجهه
فقال بارداليان الأكبر : لأنهم سيهاجوننا

فأجابته ولده وقد هز المهماز بيده لنتأهب .
 - أرى، إنهم لا يريدون قتلنا جوعاً .
 . كلا ، ولو أرادوا ذلك لما أرسلوا إلينا هذا النور .
 - إذاً انهم يريدون القتال .
 - وحياتنا فيه .
 فتنهّد البطلان تنهّد الارتياح فقد كانا يطعمان بحدوث معركة يموتان فيهما
 موت الأبطال ، ولكن هذا الهجوم المنتظر لم يحدث
 وعندها فحصا الغرفة بنظر سريع فجمدت الدماء في عزوقهما من
 الرعب وهذا ما نظراه .
 إنهما بحثا في البدء عن الباب الذي دخلا منه .
 ولكنهما لم يجدوا باباً ولا أثراً لذلك الباب ولقفل ، فأيقنوا ان الباب
 سري ، وأنه قطعة من الجدار يفتح ويغلق بطريقة سرية ميكانيكية .
 ثم بحثا في الغرفة فلم يجدوا غير الحديد في كل جهاتها .
 ثم نظرا في أرض الغرفة التي شعروا قبل نفاذ النور انها منحنية من جميع
 جهاتها الى الوسط .
 فرأيا الأرض محدودة من الجهات الأربع وفي وسط الغرفة عند منتهى
 المنحدر حفرة .
 ولو مشوا في الظلام في أرض الغرفة واتبعوا ذلك المنحدر لسقطوا
 في الحفرة .
 ولكن أين يقعان ، أفي حفرة أم هاوية أم في بئر عميقة ؟ .
 فدنا الأسيران من الحفرة ونظروا فيها فندعروا ذعراً شديداً لم يتألفا عن
 اظهاره ، فقال بارداً ليسان الأكبر : لقد خفت ، وأنت يا شغاليمة .
 - لنبتعد عن هذه الحفرة يا أبي
 وعادا إلى حيث كانا .

ولم تكن تلك الحفرة بشراً عميقة ، أو هاوية لا حد لها ، بل كانت حفرة بسيطة ولكنها هائلة .

فقد كانت كلها من الحديد يبلغ عمقها خمسة أقدام فقط .

وقد حفر فيها ما يشبه الخندق ، وهو يمتد في أطرافها ، وهذا الخندق ينتهي إلى ميزاب لم يعمل منتهاه .

وقد كان ذعرهما لأنهما توقعا أموراً هائلة ، ولكنهما لم يعملوا السبب في جعل هذه الغرفة من الحديد ، وكيف ان أرضها محدودة ينتهي تحدرها إلى الحفرة ، وأي غرض من هذه الحفرة ، وما شأن هذا الخندق فيها وذلك الميزاب .

ثم جملاً ينظرون إلى منافذ النور ، فرأوا انه ينفذ من أربع جهات . ولكنهما لم يعملوا مكان نفاذه ، إذ لم يجدوا مصابيح ولا ثقوباً ينبعث منها النور .

فنظروا إلى السقف فوجدوا انه من الحديد أيضاً ، وانه مصنوع بنفس رسم الأرض .

غير ان الفرق بينهما أن الأرض كانت محدودة والسقف فافراً بحيث لو انطبق السقف على الأرض لباقت قطعة واحدة .

ثم رأوا أيضاً انه يوجد في وسط السقف قطعة بارزة من الحديد يبلغ طولها خمسة أقدام ، أي قدر عمق الحفرة .

وكانت تلك القطعة موضوعة في السقف في مكان يناسب تماماً مكان الحفرة من الأرض ، بحيث لو قدرنا انطباق السقف أيضاً لنزلات القطعة البارزة في الحفرة ، فكانت منها كالفدام من فم الزجاج .

وقد فحص الشفالييه بارداليان جميع ما رآه فحسباً دقيقاً فوجف قلبه وعلم الحقيقة قبل أبيه ، وقال بصوت يتهدج من الرعب :

— إنها الآلة . .

تلك الآلة الميكانيكية الهائلة التي اخترعها ديوان التفتيش وكانت تستعمل

في السجون في القرن الخامس عشر والسادس عشر .
أما بارداليان الأكبر فلم يفهم شيئاً من ذلك فقال له : ما هذه الآلة
يا بني ؟
ولكن الشفالييه ، لم يجد متسعاً من الوقت للإجابة ، فقد تكلم
القفس عنه .

ذلك انها سمما دويًا يشبه دوي أبواب تلك المخازن الحديدية في عهدنا
الحاضر حين إقفالها .
وكان هذا الدوي صادراً من السقف فنظروا اليه ووجد الدم في عروقهما
وصاحا بلمهجة رعب لا تصفها الأقلام قائلين :
يا للهول ! .

ذلك انهما رأيا السقف الحديدي يهبط عليهما .
وكان يهبط يحملته هبوطاً بطيئاً متناسباً متصلًا .
ورأيا تلك القطعة البارزة من الحديد تهبط أيضاً لتدخل في الحفرة ،
وهما ؟ .

انهما سيدشعران قريباً بذلك الجبل الحديدي فوق رأسيهما .
فخطر لهما أن يفنئا أيضاً دقيقة من الحياة بنزولهما إلى الحفرة .
وإنما قلنا دقيقة ، لأن تلك القطعة البارزة من الحديد ستهبط عليهما فتسد
الحفرة وتمصرهما عصر الزيتون .
وذلك الخندق في أسفل الحفرة معد لاستقبال دمائهما وستنزف الآلة كل
دمائهما ، فلا تبقي منها قطرة .

فنزلا إلى الحفرة وقد جذبتهما اليها كما تجذب الرياح الثائرة في المحيط السفن
الجانحة إلى البر .

وكانت حركة الآلة مستمرة ولها دوي شديد .
والسقف يهبط هبوطاً متصلًا ، حق لم يبق بينه وبين رأسيهما غدير

ذراع : . ثم شبر . . ثم قبضة . ثم اصبع . .
 ثم مس ذلك السقف الرهيب شعورهما فأحنيا رأسيهما .
 ثم انطبق السقف على الأرض وبقيت القطعة البارزة فنزلت إلى الحفرة
 وبلغت اكتافهما .
 وهي مستمرة في نزولها إلى أن تبلغ أرض الحفرة فتستقر فوق الجنتين .
 وقد جمعت عينا ذينك المشكودين ونفرت عروقهما وضغطت القطعة على
 كتفيهما ضغطاً أعدهما الرشاد .
 وخطر لبارداليان الأكبر إجراء المستحيل ، وهو ان يوقف حركة الآلة
 بقوة كتفيه .
 فثبت رجله في أرض الحفرة وتشدد كي يوقف انزال الآلة .
 ففاز بما أراد ووقفت حركة الآلة .
 ولكن ذلك لم يدم غير بضع ثوان ، لأن الشيخ الشديد خارت قواه وسقط
 على ركبتيه ، وعادت الآلة إلى الحركة والحديد إلى النزول .
 وحاول الشفالييه أن يفعل فعل أبيه فأوقف النزول هنيهة وهو يقول :
 ان المهمازين لا يزالان معنا فتى سقطت بجانبك تنتهر .
 وبعد لحظة سقط بجانب والده .
 وقد دنت الساعة الرهيبة الهائلة . . ساعة الموت المحتم الذريع ، فرفع كل
 منهما مهمازه كي ينتهر .

- ٢٤ -

دق الجرس

في الساعة الثانية بعد منتصف تلك الليلة ، أي قبل أن تدور تلك الآلة الرهيبية ويسقط الهرم الحديدي على بارداليان وأبيه ، خرج رينيه الفلبي من القصر الجديد الذي بنته له الملكة ، وسار مطرق الرأس إلى كنيسة سانت جرمين .

وقد دخل إليها من الباب الذي دخل منه ليلة الاثنين الماضي ماريلياك وخطيبته اليس .

وقد وجد رجلاً ينتظره عند الباب ، وهو الرجل المنوط به دق الجرس . فدفع إليه الرجل مفتاح القبة وقال له :

— ألا تريد ، يا سيدي أن أساعدك فإن الجرس كبير يصعب عليك أن قدقه وحده .

— كلا .. دعني وحدي وانصرف .

فامتثل الرجل ودخل رينيه إلى الكنيسة فأقفل بابها وصعد إلى قبة الجرس .

ووصل إلى غرفة معرضة لجميع مهاب الهواء وفي سقفها عدة ثقوب تتدلى منها الحبال المربوطة بالجرس .

وبينها حبل غليظ معد المطرقة الكبرى التي لا يستعملونها ، إلا في

الحفلات النادرة .

فأخذ رينيه الحبل وهزه ، فسمع حركته سرب من البوم كانت فوق السقف وطارت هاربة .

ونظر إليها رينيه وجعل يخاطبها فيقول :

— من أنت أيتها الأرواح الهائمة في الفضاء .

الملك أرواح تلك التماثيل التي شاهدها عند مدخل الكنيسة .

أبينك روح ذلك الملك الذي بنى هذه الكنيسة منذ ألف عام ؟

ولماذا أراك هائمة في الظلمات ، الملك آتية لمساعدتي ؟

نعم يجب أن يحضر الليلة جيش كثيف من الأرواح المقيمة في عظام الكواكب فيمنع روح ولدي عن الفرار .

وقد أخذ العرق البارد يسيل من جبينه ، وجعل يسير في أرض الغرفة

ويقول :

— لقد دنت الساعة التي يجب أن أدق فيها تلك الدقات الهائلة التي

ستفتك بالآلوف من بني الإنسان ولكنها تحمي ابن الملكة وترد إليه تلك

الروح ..

ثم أخذ ذلك الحبل الفليظ ، وجعل يهزه بملء قوته ، فما لبث صوت

ذلك الجرس أن رن في الفضاء ، فدوى صدهاء في ذلك السكون يحمل

القتل والموت ..



كان قصر اللوفر يشرف على تلك الكنيسة .

وكان في تلك الساعة الهائلة اثنتان واقفين في أحد مشارف اللوفر

المشرفة على تلك الكنيسة ينتظران بملء الجزع دوي ذاك الجرس .

وهما كاترين دي مدسيس بلباس السواد وابنها العزيز الدوق دالنجو .
وقد أخذت الأم بيد ولدها وشمرت ان تلك اليد ترجف .
وكلاهما شاخصان بنظرهما إلى الكنيسة .
وقد اضطربت أعصابهما ، وجسدت دماؤهما ، وكافا كالواقف أمام لغم
يلتظر انفجاره .
ثم سمعا أول دقة من دقات الجرس الهائلة .
فاهتز الدوق دالنجو وأفلت من يد أمه فتراجع منذراً حتى بلغ إلى كرسي
فانطرح عليه خائر القوى .
وقد سد أذنيه كي لا يسمع صوت الجرس ، وأطبق عينيه .
وأما كاترين فانها تنهدت تنهد المنفرج بعد ضيق وضغطت بيديها على سواعد
المشرف كأنها تحمست بتلك الدقات .
ثم توالى دقات الجرس فتلتها أصوات جرس آخر ، ثم ثالث فرباع ،
حتى تناوالت جميع كمناس بارس ، ودوى الفضاء بأصوات الأجراس في
كل مكان .
وبعد هنيئة رأت كاترين من مشرفها أشباحاً تركض وسيوفاً تلمع ومشاعل
تضيء وهي تعد بالألوف .
وقد باتت بارس يحملتها شعلة من نار كأنما جهنم قد انتقلت إليها .
ثم سمعت تلك العاتية دوي غدارة من ورائها في اللوفر تلاها دوي آخر .
وتوالى دوي البنادق في اللوفر وفي بارس ، فلم تكن تسمع غير دق الأجراس
ودوي الرصاص وصياح القتلى .
وقد تقطب وجه السماء الصافية بدخان البارود ، وبدأت المذبحة الهائلة ،
مذبحة الهوكينوت الكبرى .



وكان الباريسيون قد تفجروا حين سمعوا أول دقة كما ينفجر اللغم .
فقال الدوق دي كيز : لقد دنت الساعة .
وقال قوله الرهبان والقسس وكل كاثوليكي كان يعتقد انه ينقذ الكنيسة
بهذه المذبحة .
وأما الدوق دامفيل فإنه حين سمع الدقة الأولى زار زئير الوحوش الضواري
وصاح برجاله قائلاً :
— هلموا إلى قصر مونمورانسي لقد دنت الساعة... هلموا إلى القتل ولا تبقوا
على أحد .

- ٢٥ -

الملك الصالحك

أما الملك شارل التاسع فقد كان في غرفة رقاذه .
ولم يكن قد خلع ملابسه بعد بل كان جالساً في كرسي كبير تزیده صفراً
على صفره في العيون لاتساعها .
وأمامه كلبان كبيران كانا نائمين عند قدميه نوماً قلفاً مضطرباً ، فإنهما
كانا يصحوان من فترة إلى أخرى ويصفيان ثم يعودان إلى النوم حين يريان
صاحبهما جالساً في كرسيه دون حراك ، وهو مطبق العينين ولكنه غير نائم
فقد كان ينتظر .
فعندما سمع دقة الجرس الأولى ارتعدت فرائصه وفتح عينيه ، لكنه لم يقم

ولبت جالساً في كرسيه .
ثم توالى دق الأجراس فوقف الكلبان ، وجعلتا ينبهان نباحاً شديداً ، من
الخوف والغضب .

فناداهما الملك ، فأسرعا إلى كرسيه ، وجلس كل منهما في جانب .
فضم الملك رأسيهما إلى صدره ، كأنه يريد أن يشمر بوجود
أصدقائه .

وجعلت الأجراس يجابوب بعضها بعضاً ، كأنما قد حدثت معركة هائلة بين
رياح الجو ، وكل هذه الأصوات تدعو إلى الموت .

وقد اصفر وجه الملك ، وامتعق لونه ، وخسارت قواه ، وتثقل له
أنه يقتل الألوف من الناس ، في باريس ، وفي فرنسا ، بكلمة خرجت
من فمه .

فخاف خوفاً شديداً وقام إلى سريره ، فوضع رأسه بين مخدتين ، كي
لا يسمع .

ولكن الدوي كان يزداد ، في كل لحظة ، حتى اهتزت له نوافذ
غرفته .

فقام الملك ومشى في غرفته وهو ضائع الرشد ، وقد أضل صوابه اتصال
دق الأجراس .

فجمل يخاطب تلك الأجراس وهو لا يفقه ما يقول .

ثم يثوب إلى رشده وتتمثل له تلك الفظائع الهائلة ، فيعض أصابعه من
الندم ويقول :

- رباه ! أين أذهب ؟ وأين أفر ؟ .

وقد مضى به ساعة على ذلك وهو في حالة تشبه النزع وقد تمكن منه اليأس
حتى لم يعد يدري ماذا يصنع .

فذهب إلى نافذة وأزاح ستارها ونظر إلى الخارج فتراجع منذعراً .

وكان الفجر قد انبثق ، ولكن المشاعل كانت لا تزال في الشوارع ،
فسمع الملك ورأى ما تشيب لهوله الأطفال ، من سفك الدماء ، وصياح
الجرحى .

وقد رجع إلى وسط غرفته فراراً من هذا المنظر الهائل المفجع وهو ينتف
شعر رأسه بيديه ويقول :

— رباه ! ماذا صنعت ؟ .. أنا أصدرت الأمر بارتكاب الفظائع .. رباه !
أين أهرب ؟

ثم فتح باب غرفته ، وقد ضل صوابه وملاً اليأس والذعر قلبه ، فخرج
إلى رواق ومشى فيه بضع خطوات ، فأحس ان شعر رأسه قد وقف ، وان
ركبتيه لا تستطيعان حمله .

ذلك انه رأى في ذلك الرواق ، قرب غرفته ، خمس جثث ،
مضرجة بالدم .

فشى خطوة فرأى فتى من الهوكينوت يدافع عن نفسه ضد عشرة من
الكاثوليك وقد انقضوا عليه انقضاض العقبان .

فسقط مضرجاً بدمه قبل ان يصل اليه وكان هذا الفتى كليرمون دي بيل
من الذين كان يلاهبهم بالكرة .

ثم تقدم أيضاً ، فرأى إمرأتين من الهوكينوت ، مزقت الخناجر
جسديهما .

فسار في منعطف آخر ، فكان يسمع وقع الخناجر ، يتلوها الشتائم
فأنين الجرعى ، حتى خيل لهذا الملك الضعيف ان جهنم قد انفتحت ،
وجعل يقول :

— ويح لنفسى أنا الأمر بهذه الفظائع .. أأكون ملك فرنسا ثم أأمر بقتل
النساء والبنات والأطفال ؟ ..

كفى ، كفى .. لا أريد القتل ... ولكن ، أين من يسمع ؟ .. بل

أين المفر ؟ .
ثم ترك ذلك الرواق الذي كان فيه ، ونزل في سلم . فارتعدت فرائصه إذ رأى نحو عشرين جثة من أولئك المنكودين .
فرجع ومشى في رواق آخر فسمع دوي البنادق يقرع الأسماع ، وقد فرش ذلك الرواق يبحث القتلى .
ورأى ثلاثة يطاردون رجلاً فصاح بهم قائلاً :
- كفى كفى لا تقتلوه .
ولكنهم لم يسمعوه ، أو تظاهروا بعدم سماعه فسقط الرجل قتيلاً ، وسار الثلاثة للتفتيش عن سواه .
فدنا الملك من ذلك الرجل الذي قتلوه وعرفه فذعر ذعراً شديداً إذ عرف أنه البارون دي بونت وكان يلعبه في النهار .
وما زال يسير من رواق إلى رواق ، وهو كلما رأى مثل تلك الفظائع في رواق ، هرب إلى آخر ، فرأى أفضح منها . حتى انتهى إلى ردهة متسعة .
وهناك رأى ما كاد يذهب بعقله ، فقد رأى نحو عشرين شخصاً من الهوكينوت بين نساء ورجال بلباس النوم وهم راكعون يحيط بهم نحو مائة رجل مدججين بالسلاح .
ولما رأى الهوكينوت الملك ، انتعشت أرواحهم ، وصاح بعضهم يقولون : رحماك ! . إننا كنا ضيوفك . وقد كنا أصحابك .. إننا أكلنا على مائدة واحدة .
فعاجلهم الكاثوليك بالخنجر والبندق ، فقتلهم قبل أن يتمكن الملك من الدنو منهم .
فلم يستطع إجابتهم إلا بذلك الضحك الهائل ، الذي كان يتقدم نوبته العصبية .

وقد طال ضحكك إلى ان تفرق الكاثوليك ، ولم يبق أمامه غير جثث أولئك الضيوف .

فلم يطق النظر اليهم ، فوضع يديه على رأسه وفر هارباً راکضاً وهو لا يعلم أين يسير .

وما زال يركض حتى وصل إلى غرفة ففتح بابها ودخل اليها .

وكانت الأسلحة على اختلافها معلقة فوق جدران هذه القاعة وهي قاعة السلاح التي دخل اليها بارداليان مع مونمورانسي وجرت فيها الحادثة مع الملك كما يذكر القراء .

فوقف هنيهة في هذه القاعة وتنهّد كأنه آمن من خوفه .

ثم رأى فجأة ان الباب قد فتح وان رجلين قد دخلا منه وهما ممزقا الملابس وفي أثرهما نحو خمسين رجلاً بالخناجر المجرّدة .

فجمد الدم في عروق الملك ، لأن هذين الرجلين ، اللذين كانوا يطاردونها ، إنما كانا زعيمى الهوكينوت ، وهما ملك النافار والبرنس دي كوندية .

وقد هجم عليهما المطاردون في وسط تلك الغرفة كأنهم لم يروا الملك ، أو كأنهم أرادوا إرضاءه بقتلها أمامه .

ولكن الملك صاح بهم صيحة منكّرة وقال :
- إلى الوراء ..

فدنا أشدهم تعصباً وتحمّساً وقال :

- إنهما من الهوكينوت ، يا مولاي ، فهل يريد جلالتم حمايتهما ؟

- إلى الوراء . من هذا الذي يحسر ان يقول أمامي هذا القول ؟ ..

اخرجوا جميعكم .

فخرج الجميع مطرقي الرؤوس .

وذهب الملك في أثرهم ، فأقفل باب القاعة ، ورجع إلى الملك

هنري والبرنس دي كونديه ، وهو يتوهج غضباً ، وقد بدت في عينيه دلائل الجنون ، فقال :

— أوجد هنا سلطة فوق سلطة الملك ؟

فأجابه البرنس دي كونديه :

— نعم يا مولاي وهي سلطة ..

فقاطعه ملك النافار قائلاً : أصمت !

وقد صبغ وجهه بصفرة الموت .

غير ان ذلك الأميرال الشاب ، لم يزعج ، فوضع يديه على صدره وقال :

— إني ما أتيت بك يا ملك النافار إلى ملك فرنسا لنطلب رحمة وعفواً بل جئت بك اليه لتسأله عن دماء إخوانك .. فتكلم يا مولاي أو أوب عنك في الكلام .

فابتسم ملك النافار وقال :

— إنك لا تزال من أهل العناد ، فاشكر معي ابن عمي الذي أنقذنا .

فأدار البرنس ظهره دون ان يحيب .

فجعل شارل ينظر اليهما نظرات منكرة ، وقد عاوده ذلك الجنون الذي حمله على الفرار من أروقة اللوفر ، ولكنه عاوده بشكل آخر فأتقدت عيناه وهاجت به عوامل الشر .

وكان صياح الباريسيين وشكوى الخائفين وأنين الجرحى ودق الأجراس كل ذلك يصل إلى غرفة الملك مزيجاً مختلطاً .

فأدمعت عينا البرنس دي كونديه من الإشفاق ، واقترب من الملك فقال :

— اليس بين جنبيك قلب ؟.. اليس في هذا القلب ذرة من الرحمة ؟..

أجشت بنا إلى اللوفر لتذبحنا ذبيح الأغنام ونحن ضيوفك ؟ ..
إسمع إسمع تلك الأصوات الرهيبة .
فاصطكت أسنان شارل وقال :
- كفى ، إنهم يقتلون الذين كانوا يريدون قتلي ..
وكل الذنب ذنبكم بما اقترعتموه وابتدعتموه في الدين بخداعكم ونفاقكم ،
وإنما نحن ننقد الكنيسة ونحافظ على دين آبائنا .
- وما يجري في تلك الكنيسة ، التي تريد إنقاذها ، غير تمثيل
روايات .
فارتعد الملك ، وخرج الغضب من عينيه برقاً ، ثم قال : إصبر
فسوف ترى .
ثم أسرع إلى الجدار ، فأخذ بندقية وصوبها على ملك النافار ،
وقال له :
- إرجع إلى الدين القويم أو أطلعت النار عليك .
فأجابه دي نافار : ماذا تريد ؟
- أريد ان تذهب إلى الكنيسة كما يذهب اليها كل كاثوليكي ، ولا أريد
أن أرى في بلادى مذهبين .
- سأذهب إلى الكنيسة .
- نعم ولك ان تختار بين الكنيسة والموت .
- لقد اخترت ، وسأذهب اليها حين تشاء ، بل أذهب اليها الآن
إذا أردت .
فصوب بندقيته على البرنس دي كوندية وقال له :
- وأنت ؟ ..
- أما أنا فقد اخترت الموت
فأطلق النار عليه وصاح ملك النافار صيحة منكزة .

لكنه ، حين انقشع دخان البندقية ، رأى صديقه البرنس واقفاً على السكينة ، لان يد الملك كانت تضطرب اضطراباً شديداً ، حتى أنه أخطأ المرمى .

فدنا ملك النافار من شارل التاسع وقال له :

— سكن روعك يا مولاي ، فأنا أضمن ان أعيده إلى الكنائس على ان تمنحني مهلة ثلاثة أيام .

ولكن شارل لم يسمعه ، فقد عارده الضحك ، وهاج به الجنون ، فأخذ بندقيته وهجم بها فجعل يكسر النوافذ والأبواب والأثاث وكل ما تصيبه البندقية .

ثم القاهما من يده وأطل من النافذة ، فرأى عصابة يطاردون أولئك المساكين . وبينهم كاهن رفع صليبه وجعل يصيح بهم قائلاً :

— أقتلواهم !

اقتلوا الكفار ولا تبقوا على أحد .

ثم رأى جماعة من الرهبان يطاردون امرأتين ، وقد قتل أحدهم امرأة بصليبه .

وقبض الآخرون على شعر الثانية ، فقتلوا بالخنجر وهم يصيحون :

لتحیی الكنيسة .

ثم رأى غلمان صغاراً يربون كالأياثل ، وأولئك القساة يضربونهم بالبنادق ويعملون بهم القتل الذريع .

فجعل الملك يصيح صياحهم وقد ذهب صوابه ويقول .

— إذبجوا .. إذبجوا !

ثم أسرع عائداً إلى القاعة ، وكان فيها نحو عشرين بندقية محشوة ، فجعل يأخذ البندقية فيطلقها من النافذة على الهاربين ، ثم يعود فيأخذ الأخرى حتى أطلقها جميعها ، وهو لا يعلم ما يصنع ويصيح قائلاً

– اقتلوا !

وعندما أطلق آخر بندقية سقط على الأرض صريع النوبة ، وخرج الزبد من فمه .

فرأى ملك النافار والبرنس دي كونديه عذابه الهائل .

وخرج ملك النافار وهو مطرق مفكر مهموم ، فتبعه البرنس دي كونديه وهويبيكي لنكبة قومه بكاء الأطفال .

– ٢٦ –

مجد كاتي

في الساعة التي كانت كاترين دي مديس واقفة في مشرف اللوفر تنتظر دقة الجرس الأولى المؤذنة بالمذبحة ، كانت كاتي صاحبة خمار « ميت يتكلم » تسير في الليل ، كما تقدم ، وهي ترى تلك العلامات التي رسموها على منازل الهوكينوت .

وكانت تسير آمنة مطمئنة لا تتوقع خطراً ولا تخاف كارثة مع ان الغاية التي تسعى اليها كانت مخوفة بالأخطار .
وما زالت تسير حتى وصلت إلى زقاق لامنفذ له فوقفت عند مدخله وجعلت تغني بصوت مرتفع نشيداً مشهوراً .

فحدث عندها ضجيج في ذلك الزقاق .
وعادت كاتي إلى المسير ، ولكنها لم تكن تسير وحدها في هذه المرة بل

كان يتبعها جمهور عظيم من النساء يبلغ عددهن ثلاثمائة امرأة
وكان هذا الجيش مؤلفاً من البغيات والمتسولات على اختلافهن بين الصبية
والمعجوز والسليمة والمشوهة من أولئك النساء اللواتي تقدم لنا وصفهن حين زرن
كاتي في خمارتها .

وكانت كاتي تسير في مقدمتهن ، كما يسير القائد الأكبر في مقدمة
الجيش .

وكان جميع هؤلاء النسوة مسلحات بمضهن بغدارات قديمة الطراز وبعضهن
بالخناجر وأخريات بقضبان حديدية .

ومن لم تكن يمينهن ذات سلاح فقد كانت معتمدة في سلاحها على أظافرها
وأسنانها .

وكن يسرن غير مكترفات ، لتعودن هذه الرحلات الليلية ، فكان
يلتقين من حين إلى حين ، بتلك العصائب التي ترسم العلامات ، على منازل
الهوكينوت .

فإذا حاول رئيس العصاية ان يسأل كاتي ، رئيسة هذا الجيش اللسائي ،
نظرت اليه نظرة ملؤها الوعيد فيتركها وينصرف ، وهو يحسب أنها
سائرة بمهمة في المذبحة الكبرى .

وما زلن على ذلك حتى وصلن إلى مسجن التامبل .

فوقفت كاتي ووقف جيشها وراءها
وكن جميعاً متحمسات متشوقات إلى المعركة ، حتى ان فتاة منهن لا تبلغ
السادسة عشرة من عمرها هزت غدارتها بيدها وقالت :
-- ليلسوه بأذى إذا استطاعوا لان أمي كانت يوماً مريضة ، فجاءنا بخبز
وخر ودجاجة وأعطانا ثلاثة ريالات .

وقالت أخرى : وأنا أنقذني مرة من يد البوليس
وقالت غيرها وقد هزت حسامها :

— أمثل هذا الفارس الجميل يعذب ؟
فانتهرتهن كاتي وأمرتهن بالسكوت .
فامتلن كما يمثل الجندي لأمر قائده .

ولكنهن كن متعمسات إلى القتال لانقاذ بارداليان وجعلت من عرفته منهن
تحدث رفيقاتها بأعماله بصوت منخفض .
وأخذت كاتي عند ذلك بترتيب صفوف جيشها ، فوضعت في الصف
الأول من كان سلاحهن البنادق ، يتبعهن المتسلحات بالخنجر ، فغضب
الحديد فالعصي .

وفي الصف الأخير من لم يكن لديهن سلاح .

ثم قالت لمن : يجب الانتباه الشديد والطاعة العمياء ، فتمنى فتح باب السجن
ودخلت فادخلن في أثري .

فلبثن ساكنات ينظرن إلى سجن التامبل المظلم الرهيب .

وفيما هن على ذلك ، دق جرس كنيسة سانت جرمين ، ثم تلاه
جرس آخر .

فقالت إحداهن : ما هذه الأجراس ؟

وقالت كاتي في نفسها : العلهما تدق لأجلنا ؟

وقالت غيرها : إنهم سيقبضون علينا .

فسمعتها كاتي ودنت منها ، فأشهرت خنجرها وقالت لها : إذا لم
تسكقي قتلتك .

ثم زاد دق الأجراس ، وتلاه دوي البنادق في ذلك الليل الساكن ،
فارتعش النساء وتمكن منهن الخوف حتى أوشكن ان يهربن .

ولكن الباب فتح في تلك اللحظة ، وظهرت منه عشيقتهما حاكم
السجن .

فصاحت كاتي يمحيشها تقول :

- إلى الأمام !!
ثم دخلت أمامهن فدخل الجميع في أروها .
فقال إحدى البقيتين : إن المفاتيح معي .
وقالت الثانية : لقد أقفلنا الأبواب على الجنود .
فقال كاتي .
- لنسر إذأ إلى سجن بارداليان ، فأين الطريق ؟
- من هنا .
فقال كاتي : إلى الأمام !!
وسارت البقي أمامها لترشدها إلى الطريق ، وسارت كاتي وراءها
يتبعها النساء .
فلم يتقدمن بضع خطوات ، حتى سمعن صوتا يقول : من هذا ؟ ..
إلى الراء .
فصاحت كاتي يمشيها تقول إلى الأمام !
فأمر صاحب الصوت بإطلاق النار .
فأطلق الجنود إثني عشرة رصاصة سقط على أروها خمس نساء ، بين
قتيلة وجريحة .
وجرت عند ذلك معركة هائلة بين أولئك النساء وبين اثني عشر جندياً
برئاسة قائدهم .
وهذا بيان ما حدث :
إنه كان يوجد في سجن التامبل حامية مؤلفة من ستين جندياً .
وكانوا منقسمين إلى قسمين يقيم كل قسم منهما في مركز .
وكانت البقيتان ، حين رأتا حاكم السجن قد سقط صريعاً سكره ،
قيدتا يديه ورجليه ، وأخذتا منه المفاتيح وذهبتا بهما مسرعتين إلى حيث
يقيم الجنود .

وكان مكان المركز الاول ، في قاعة متسعة ، قرب باب السجن الاكبر .

وفي هذه القاعة أربعون جندياً ، وجميعهم نيام . فأقفلنا عليهم باب تلك القاعة ، بحيث لم يعد الجنود يستطيعون الخروج إلا بكسر ذلك الباب الضخم .

وعند ذلك أسرعنا إلى باب السجن الذي كانت تنتظرها عنده كاتي يمحشها وفتحناه .

ولكنه كان يوجد في ذلك السجن مركز آخر للجنود ، عدا عن السجناء والخبراء .

وقد كان أحد الضباط يطوف يحنده في أروقة السجن فعثر بذلك الجيش النسائي وأمر بإطلاق النار عليهم كما تقدم .

فلما دوى صوت البنادق تنبه جنود المركز الثاني الذين لم يقفل باهم وأسرعوا إلى لمجة رفاقهم .

وكذلك السجناء والخبراء فلأنهم هبوا من رقادهم منذرين ، وأسرعوا إلى مكان المعركة .

فضحكوا في البدء حين رأوا أعداءهم من النساء .

ولكن ضحكهم لم يطل لأن رصاص هؤلاء النساء كان يشوي أبدانهم ، وكانت سخاجرهن تفعل بهم فعل الرصاص ، فقتل وجرح بلحظة نحو أربعين من الجانبين .

وكن ثلاثمائة ولم يكن الجنود والخبراء يزدون عن خمسين فتغلبن عليهم ، وفزن فوزاً باهراً .

ومن بقي حياً منهم هربوا مسرعين منذرين لهول ما رأوا ودخلوا إلى قاعة فاخترأوا فيها وسكروا بابها الضخم من الداخل . ولم يبق في أسر النساء غير ضابط وجنديين .

فصاحت كاتي بنسائها : إلى الامام !!
وكانت قد أصيبت بثلاثة جراح ، وهي تزار زئير اللبوة ، تبحث
عن فريسة .

وقد بحثت عن البقيتين عشيقتي حاكم السجن ، فرأتهما طريحتين وقد
أصابتا يجرحين قاتلين .
فأخذت المفاتيح وقد ذعرت لاصابتهما لأنها لم تكن تعرف طريق السجن
الذي يقيم فيه بارداليان .
ولكنها فطنت للجنود الاسرى ، فذهبت اليهم ، وسألت أحد
الجنديين قائلة :

— أين الشفالييه بارداليان ؟

فأجاب : لا أعلم .

فطعنته بخنجرها طعنة قضت عليه .

ثم التفتت إلى الضابط وقالت له :

— سر بنا الى سجن الشفالييه ..

فأجاب الضابط قائلاً :

— أتحسبن أيتها المومس البغي إني ..

ولكن كاتي لم تدعه يتم حديثه فطعنته بخنجرها طعنة هائلة ذهبت بروحه

والتفتت إلى الجندي الباقي وقالت له :

— وأنت ؟

فأصفر وجه الجندي جزعاً من الموت وأجاب :

— أما أنا فأطيع .

— سر أمامي .

— إقبعيني .

وسار الجندي فسارت كاتي في أثره يتبعها جيشها وهن منبوشات الشعور

داميات الوجوه والايدي .
 وجعل الجندي يسير بهن من رواق الى رواق حتى انتهى الى سلم مستدير
 الدرجات ينزل منه الى جوف الارض .
 فنزل الجندي في ذلك السلم المظلم .
 فوضعت كاتي يدها على كتفه وقالت له : اذك اذا خدعتني ، تموت
 في الحال .
 - تعالي ، لا فائدة لي من خداعك .
 فقالت احدي النساء : أنسير من غير نور ؟
 فأجاب الجندي :
 - لا حاجة الى النور لان الآلة الميكانيكية مستديرة .
 فارتعدت فرائص كاتي وسألته : الآلة ؟
 - نعم وهناك الاسيران .
 - أسرع أيها الرجل لان خنيجري لم يعد يطيق الصبر .
 فأسرع الجندي وهو يقول في نفسه . إنك ستجدينهما ولكنهما يكونان
 سائلا من دم .
 وتبعها جميع النساء ، ما خلا ثلاثين منهن ، بقين عند مدخل السلم
 للحراسة .
 وكانت أصوات الثائرين في باريس خارج ذلك السجن ، تصل الى السرداب
 الذي دخل النساء اليه كهزيم الرعد البعيد .
 فلما وصلت كاتي الى ذلك القفص الحديدي ، الذي تركناه وسقفه
 يهبط على بارداليان وابنه ، رأت رجلا قصير القامة ، هائل الخلق ، كبير
 الرأس ضخيم الساعدين .
 وكان هذا الرجل جالسا على كرسي ، وهو يدير دولابا كبيرا
 من الحديد .

فسألت كاتي الجندي قائلة :
 - من هذا الرجل ؟ وماذا يصنع ؟
 - إنه مأمور الآلة الميكانيكية وهو يديرها الآن .
 ورعبت كاتي وقالت :
 - أين هما الآن .
 - إنهما داخل القفص الذي ترينه والسقف يهبط عليهما .
 ولم تجب كاتي بحرف ولكنها انقضت انقضا على المقبان على الرجل الذي
 يدير الآلة وقبضت على عنقه .
 وأسرع النساء إلى نجبتها ، فآلقوا الجلاذ على الأرض ، وركمت كاتي فوق
 صدره والخنجر مشر بيدا .
 فكاد الرجل يخن رعباً وصاح قائلاً :
 - رحماك يا سيدي ، ماذا تريدني ؟
 - أين الأسيران ؟
 - داخل القفص .
 - افتح .. افتح الباب ، أو أغمد هذا الخنجر في قلبك .
 فد الجلاذ يده ، وقد ملء قلبه رعباً وأشار إلى لولب فقال : أديري هذا
 اللولب يفتح الباب في الحال
 فوثبت كاتي إلى ذلك اللولب وأدارته ..
 ففتح الباب للحال ..
 وعند ذلك ظهر لها رجلان ... بل خيالان ، تبدوا عليهما مظاهر
 رعب لا يوصف .
 وضحكت كاتي ضحكة عصبية وقالت : لقد نجوا ..
 ثم استحال ضحكها فجأة إلى بكاء ، فاستندت إلى الجدار وجعلت
 تبكي وتقول :

— لقد خلصا ..

وصاح بارداليان وابنه بصوت واحد قائلين :
— كاتي ..



وبعد هنية ، خرجا من الحفرة ورأيا النساء المجتمععات في الرواق أقبلن عليهما يهنئنهما بالنجاة ، وعلمتا أن كاتي جمعت جيشا من الفواجر واغتصبت بهن أبواب السجن ، وكذلك علما السبب في وقوف هبوط السقف حين كاد يسحقهما .

وعند ذلك وثب الاثنان إلى كاتي ، وجعل كل منهما يقبلها في خد من خديها .

وساد السكوت هنية بين الجميع .
إلى أن قال بارداليان الأكبر :

— هلموا بنا الآن والويل لمن يعترضنا .
فأجابه ابنه : نعم . فإن الأسود قد خرجت من مرابضها فلتنحدر الذئاب .

وسارت كاتي مع بارداليان وابنه في طليعة النساء .
ولكنها لم تسر بضع خطوات ، حتى وهت قواها وسقطت على الأرض .

فنظر اليها الشفالييه نظرة حنو وتمم : إنها جريحة .

فابتسمت كاتي وأشارت بيدها إلى ثديها الأيمن .

فأسرع بارداليان ومزق ثوبها ..

فظهر جرح بليغ وجعل الدم يتدفق منه .

فقلت كاتي :

- اذهبوا ودعوني هنا .

فقال بارداليان :

- أنذهب وندعك ؟. كلا إن هذا محال ..

- دعوني واذهبوا فلا مطمع لي بالحياة .

ثم ابتسمت. وجعلت تنظر إلى الأب وابنه نظرات المودع. شعر بدلو الأجل .

فأسرع الأب وابنه فحملها وسارا بها .

ولكنهما لم يتوغلا بها في الرواق حتى رأيا أنها فارقت الحياة وأثر الابتسام لا يزال على شفيتها .

فتنهد الشفالييه تنهداً عميقاً وقال : وأسفاه إنها ماتت !

وأجابه بارداليان الأكبر لقد أتوا .

وذلك انه رأى رينيه مقبلاً من آخر الرواق يصحبه عشرون جندياً ، وهو آت ليأخذ ما استنزفته الآلة من دماء بارداليان ، كي يحمي بها ولده ماريلياك .

خروج الأسود من مرابضها

وعرف المومسات موت كاتي فصحن جميعهن بصوت واحد :
 - الانتقام .. الانتقام .. لننتقم لكاتي .
 فلم تمض هنيهة حتى احتدم القتال بين الجنود وبارداليان وأبييه
 ومعهم النساء .
 وكان سلاح الأب وابنه المهمازان في البدء ..
 ثم أخذوا حسامي جنديين قتلاهما بهذا السلاح الغريب وانقضا على الجنود
 انقضا الصواعق .
 وكان النساء يساعدهما خير مساعدة بالخنجر والعصي ، وكان بارداليان
 وابنه يشبان بين أولئك الجنود ومما يصيحان صياحاً هائلاً وكل وثبة
 بقتيل أو قتيلين .
 حتى وصلا إلى باحة السجن الكبرى ، فشببت هناك معركة هائلة مع
 الجنود .
 وكان رينيه الفلكي يركض من مكان إلى آخر كالهجانين وينتف شعره
 ويصبح مستنجداً .
 ثم رأى ان بارداليان وأباه قد فازا فوزاً باهراً على الجنود وباتا عند
 باب السجن بحيث أصبحت نجاتهما أكيدة مضمونة .

فخرج إلى الشارع والناس هائجون يعملون القتل الذريع بالهوكينوت
وكان النهار قد طلع وبدأت المذبحة الكبرى .

وكان يستوقف الثائرين ويقول لهم: تعالوا إلى نجدتنا على اثنين من شياطين
الهوكينوت ، فلا يجيب نداءه أحد .

كل ذلك وباردالبيان وابنه يفتكان ويثوران كما لو هيجت أسداً غضوباً .
وعاد رينيه إلى السجن ، بعد أن يئس من أن ينجده الثائرون فجعل
يسير في أروقة السجن على غير هدى .
إلى أن وصل إلى مركز الجنود الذين أقفل البقيتان عليهما الباب .

وكلوا قد صعدوا من رقاهم لما سمعوه من الصياح والضوضاء في السجن ،
فهبوا إلى أسلحتهم ، وحاولوا الخروج لنجدة إخوانهم فوجدوا الباب مقفلاً .
وفياهم هائجون يحاولون كسر الباب مرهم رينيه ، وعلم بأمرهم فاتقدت
عيناه ببارق من الرجاء فقال :

— صبراً فسأعينسكم على فتح الباب .

فقال له الضابط : ولكن قل لنا بريك ماذا حدث .

— إن جديشاً من بنات الهوى هاجن السجن وأخرجن سجينين منه ...
اصبروا فسأجد وسيلة لفتح الباب .

لكن الجنود لم يسمعوا كلامه ، فاندفعوا يحملتهم على النوافذ يلتمسون
منفذاً منها بكسر حديدتها .

وأما رينيه فإنه أسرع إلى الباب الأكبر ، وقبل أن يبلغه رأى باردالبيان
رأباه يسيران إلى ذلك الباب سير الأسود العائدة إلى غاباتها .

وهالة ما رآه ووجد أنه لم يبق بينهما وبين الباب الأكبر غير بضعة
خطوات فزين له الجنون أن يتصدى لهما ويمنهما عن التقدم .

ولا ندري كيف أن باردالبيان تحلى عن قتله ، فإنه بدلاً من أن يخرق
صدره بحسامه حمله بين يديه وقذف به كما يقذف الكرة فسقط بعيداً ورخص

جسمه وأغمي عليه ، فلم يعد يرى شيئاً .
 وتمكن الجنود من كسر حديد النوافذ فأسرع القائد الى حسام السجين ،
 فوجده مكتوف اليدين مقيد الرجلين .
 ففعل وثاقه وأسرع معه إلى مكان الحادثة فلم يجد في طريقهما غير الجثث
 الباردة والجرحى من الجنود والنساء .
 ولما وصلا إلى الباب الأكبر علما أن الأسدين قد خرجا من القفص ولم يبق
 في السجين أحد من بنات الهوى .



عندما خرج بارداليان وأبوه من السجين واستنشقا هواء الحرية ، كان الفجر
 قد انبثق ، ولكن الثائرين في باريس كانوا لا يزالون يحملون مشاعلهم .
 ولم يبقوها مشعلة للاستنارة بنورها فقد كان نور الصباح مغنياً لهم عنهما
 ولكنهم كانوا يستمعون بلهيبها على إحراق المنازل التي وضعت عليها العلامات
 وهي منازل الهوكينوت .
 فنظر بارداليان الأكبر الى ما حوله بيمينين تتقدان ناراً وقال :
 .. اننا طليقان .
 فأجابه ابنه نعم ، ولكن كاتي مسجونة في هوة الموت .
 فنظر كل منهما الى الآخر نظرة الفاحص .
 وكان كل منهما قد استولى على حسام وخنجر وهما يقطران دماً ، وزالت
 من عيونهما آثار الرعب .
 فقال الأب لابنه : الست مجروحاً
 - كلا ، رأنت ؟
 اني لم أخدش خدشاً .. ولكن ماذا حدث في باريس وما هذه الدماء ،
 وما هذه الأصوات .. الا تسمع دوي البنادق .. العله يوجد معركة .

- كلا يا أبي ، بل هي مذبحة .. هلم بنا ولنسرع .
 - الى أين . الى قصر مونغورانسى ؟
 - كلا ، فلا نظن أنهم يحسرون على مهاجمته ، وفوق ذلك فهو من
 الكاثوليك . هلم بنا ولنسرع .
 -- ولكن ، الى أين ؟
 - الى قصر كوليفي يا أبي ، فانهم يقتلون الهوكينوت .. وهناك سيقتلون
 صديقي .
 -- أهو ماريلياك ؟
 . نعم ..
 - ولكنه مات ، ألم تسمع ما قاله الساحر ؟
 - إنه قد يكون كاذباً فلم بنا .
 وكأنا يتكلمان بأصوات منخفضة وهما يسيران .
 وقد لقيا عصابات كثيرة في طريقهما ، فكان رجالها ينظرون اليهما
 نظرات الريب ، ولكنهم يجتنبونهما خوفاً من نظراتهما النارية ، وسيفهما
 الداميين .
 وكأنا كلما توغلا في باريس زاد تألب الناس عليهما .
 الى أن تصدت لهما عصابة فقال زعيمها لهما :
 قولاً لتحيى الكنيسة
 وكان رجالها ستة وقد تخضبت أيديهم بالدم ، وحاولوا دوت مرور
 الأب وابنه .
 فتوقف الاثنان ، فقال الزعيم اهتفا للبابا .
 فضم بارداليان الأصغر قبضة يده وصدم بها صدغ الرجل صدمة هائلة ،
 فانقلب يهوي على الأرض .
 فذعرت العصابة .

ولكن رجالها لم يهربوا ، بل جعلوا يسرون في أثر الاب وابنه وهم يستحثون الثائرين ويقولون : هوذا اثنان من الهوكينوت .

فلم يجدا بداً من الفرار واخذوا يركضان وهما يدوسان على الجثث ويطعنان بخنجرهما كل من تعرض لهما .

وما زالا على ذلك حتى بلغا قصر كوليني في الساعة الرابعة من الصباح .

وكان شارع بيتهيسي غاصاً بالناس حول القصر .

فشق الاب وابنه صفوف الناس ولم يعترضهما أحد لكثرة الزحام ، ولأنهم حسبوهما من الكاثوليكين المتحمسين ، ولأنهما كانا ابتعدا عن تلك العصابة التي كانت تطاردهما .

وكان باب القصر عظيماً وردته غاصة بالناس .

وقد القى بارداليان الاصغر نفسه في هذه الداهية لطمعه بانقاذ صديقه ماريلياك ، اذ لم يكن واثقاً من موته ، ولم يجد أبوه بداً من المسير معه ، خوفاً عليه .

فلما اختلطوا بالناس في تلك الردهة سمعا صوت رجل ينادي رجلاً آخر في القصر ويقول له . ألم تفرغ بعد ؟

فالتفت بارداليان الى صاحب هذا الصوت فعرف انه الدوق دي كيز وراه يشير بيده الى نافذة من نوافذ القصر .

- ٢٨ -

هنا يقتلون

كان دي كيز قد تأخر بالوصول إلى قصر الأميرال .
فانه لم يبرح قصره برجاله إلا في الساعة الثالثة فطاف في الشوارع وأذن
لرجالہ بالقتل كي يشغلهم عن هذا التأخر لأنهم كانوا غير صابرين .
ولمّا تأخر لمأرب خفي ، فانه كان لا يزال طامعاً بمهاجمة اللوفر ، ولكنه
أراد أن يستوثق من صدق ما قالته الملكة .
وفيا هو يأمر بالقتل والناس من حوله يتفقون :
ليجى الدوق دي كيز . . ليجى منقذ الكنيسة ، أقبل عليه فارس
ودفا منه وقال له بصوت منخفض :
لا سبيل إلى نيل ما تريد يا مولاي ، فان اللوفر محصن أتم التحصين ،
وجنود الملكة في الطريق .
فعض دي كيز شفته من النميط والتفت إلى رجاله فقال لهم :
- هلموا بنا
ثم اندفع بجواده في طلبهم ، فأخذ رجاله يصيحون صياحاً يطبق الفضاء
قائلين : ليجى دي كيز !
وكان كثيرون من الهوكينوت يقيمون في شارع بيتييسي ، حيث يقيم
قائدهم الأكبر

فلما مر دي كيز برجاله ، وجد أن الثائرين قد قضوا القضاء المبهر
على أولئك المنكودين ، ورأى نحو مائتي جثة ملقاة على الأرض . وقد روت
دماؤها التراب .

حق إذا وصل إلى قصر الأميرال وقف ، إذ رأى مكتوباً على بابه الأكبر
هذه الجملة :

« هنا يقتلون » .

فالتفت إلى رجل هائل الخلقة كان يجانبه وقال له : رأيت ؟
.. نعم ..

وكان هذا الرجل ذلك الذي عهد اليه الدوق بقطع رأس الأميرال وأذنت
له الملكة بقطع ذلك الرأس وإرساله إلى رومة .
وفي ذلك الحين وصل الدوق دي أومال يخفّره حاكم الهافر ، ومائة فارس
فحسبى الدوق دي كيز وقال له : أقضي الأمر ؟

.. سوف يقضى ..

فترجل الدوقان عن جواديهما ودنا الدوق دي كيز من الباب الكبير
فطرقه بقبضة حسامه .

ففتح الباب في الحال وظهر منه كوسيني قائد حراس الملك .

ويذكر القراء أن الملك كان قد أبقاه مع رجاله ، في قصر الأميرال
لحواسته .

فقال له كوسيني : أيجب أن نبداً يا مولاي .

.. إبدأوا فإن غيركم قد انتهى .

فهمجم الجنود هجمة واحدة على ذلك القصر يحملون المشاعل والسيوف
بجردة في أيديهم .

وذهب ذلك الرجل الضخم تواً إلى غرفة الأميرال ، يصحبه إثنا
عشر حارساً .

وبعد لحظة علت أصوات أولئك المشكوكين ، وكان صياحهم يشبه صياح
الجهانين . ثم ساد سكوت عميق وهو سكوت الموت .

أما الرجل الذي عهد اليه بقتل الاميرال ، فإنه وصل إلى غرفته بمن معه
من الرجال وكوسيني قائد حراس الملك يخفرون .
ففتح الباب واستقبلهم تاليني صهر الاميرال وسيفه مجرد بيده فقال لهم :
- ماذا تريدون ؟

فأجابه الرجل الضخم قائلاً : نريد الشافر .
فانقض تاليني عليه بحسامه ، ولكنه قبل أن يصل اليه انقلب على الأرض
صرعاً ، وقد أصيب بطعنات من عشرة خنجر .
فدنا منه كوسيني وفحصه ثم قال بلاء البرود : انه مات .
ولم يكن تاليني قد مات ، بل كان لا يزال في حالة النزع ففتح عينييه
ونظر إلى كوسيني فقال له :
قبحت من خائن سافل .
ثم بصق في وجهه .

فارتد كوسيني مضطرب الوجه خجلاً وهو يمسح البصاق عن وجهه .
وعند ذلك دخل الرجل بعصابته إلى غرفة الاميرال .
وكان الاميرال جريحاً نائماً في سريره وفي تلك الغرفة مصباحان كبيران
ينيران ظلامها

وكانت أنوارهما تسطع فوق وجه الاميرال فتظهر ما له من المهابة والجلال
حتى إن علائم التردد قد ظهرت على رجوه أولئك الحراس .
وكانت قرب الاميرال رجل واقفاً وهو يقرأ في كتاب صلاة .
أما كوايني فقد كان يسمع هذا اللغظ منذ ساعة وقد عرف الحقيقة
الهائلة بتامها ..

ولكنه لم يحاول الفرار

على ان كل فرار كان مستحيلاً ، فإن كوسيني توقع ذلك ، فأقام الحراس في كل مكان من قبيل الاحتياط والحذر .

ولما رأى الأميرال ذلك الرجل الضخم داخل عليه ، التفت إلى الرجل الواقف يقرأ بقربه وقال له : لقد آن الأوان فصل صلاة الموت .

فأشار الرجل برأسه إشارة مصادقة ، وقلب بضع ورقات من الكتاب . ولكن الموت كان أسرع اليه من كلماته ، فإن أحد رجال العصابة انقض عليه وطعنه بخنجره طعنة هائلة كانت القاضية .

وأما ذلك الرجل الضخم فقد دنا من الأميرال ، وهو يحمل بيد خنجرأ وبالأخرى حربة مسنونة من حراب الصيد .

فنظر الأميرال إلى ذلك الرجل وقال له :

- من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ .

فأجابته الرجل قائلاً : لن تقتل بالسيف .

ثم القى الخنجر من يديه وقبض على تلك الحربة ، وهي من الحراب الهائلة التي يقتلونها بها الوحوش الضارية .

وهجم عليه ، ولكنه توقف وقد ارتجفت يده ، وهاله ما كان يراه من ظواهر السكينة والجلال على وجه ذلك الشيخ

فقال له الأميرال : اضرب أيها الجلال فانك لا تقصر حياتي كثيراً .

فصاح الجميع من حوله صارخين : اضرب !

فطعنه الجلال طعنة هائلة نفذت من عنقه ، وتفجر الدم من ذلك العنق .

وقد سكر هذا الوحش بما رآه من الدماء ، وجعل يطعن ذلك الشيخ النبيل كيفما اتفق ، دون رشاد ، وكلما طعن طعنة ففتح في ذلك الجسم باباً عريضاً للدماء ، وزاده تحمساً ، أصوات الصائحين من حوله يحضونه على القتل .

ثم سمع صوتاً من تحت النافذة يناديه قائلاً : أقضي الأمر ؟

فأجفل الرجل لهذا الصوت ، وقد صحا من سكرته الدموية ، وجعل
يفحص تلك الجثة كما يفحص النمر الفريسة .

ثم حمل تلك الجثة من السرير وجرها جرأ إلى النافذة ، فأطل منها واجاب
الدوق دي كيز قائلا :

— نعم لقد قضي الأمر .

ورفع الجثة وأظهر رأس ذلك الأميرال النبيل ، فرآه الناس على نور
المشاعل وصاحوا جميعهم بصوت واحد :

— ليحيى الدوق دي كيز .. ليحيى منقذ الكنيسة !

وكان بارداليان وابنه قد رأيا هذا المنظر المفجع فجمد الدم في عروقها
وأنفت نفساهما تلك الصبيحات الوحشية .

وبعد أن سكنت الهاتقون نظر الدوق دي كيز إلى ذلك الوحش وقال له :

لقد أحسنت فالتق الجثة من النافذة ليراها الجميع .

فامتثل الرجل وألقى الجثة من النافذة .

فدنا دي كيز منها وتبين ذلك الوجه فقال :

— نعم انه هو بعينه .. نعم فلقد طالما حدثني قلبي أني سأدوس
رأسك بقدمي .

وعند ذلك سمع صوتاً يقول :

— تباً لك من جبان !

فدعر الجميع لهذا الصوت والتفتوا مندهلين ليرا من يجسر على إهانة
الدوق دي كيز هذه الإهانة بين رهظه وجنوده .

فرأوا الشفالييه بارداليان قد اخترق الصفوف ، ودنا من ذلك الدوق
فقال له :

— إن أباك كان يلقب بالمشجوج ، وأما أنت فستلقب بالمصفوع .

ثم رفع يده وصفعه على وجهه صفعة شديدة فسقط الدوق بين أيدي جنوده .

وقد جرى ذلك بسرعة عجيبة ، ووقعت تلك الإهانة وقع الصاعقة ، فهاج رجال الدوق هياج العواصف وانفجروا لانفجار اللغوم ، وجردت في لحظة مئات الخناجر والسيوف وصاحوا قائلين :

اقتلوه .. اقتلوه !

فأيقن بارداليان ان الموت لم يعد بد منه وجرد حسامه كي يموت موت الأبطال بين الوف الناقمين .

ولكنه قبل ان يطعن طعنة بذلك الحسام شعر أن يدا قوية حملته ودفعته إلى جهة مظلمة من باب مفتوح .

ثم أغلق الباب فاحتجبت أنوار المشاعل ، ولم يعد يرى غير الظلام . أما هذه اليد التي حملته فقد كانت يد أبيه فسانه حمله حين رأى هذا الخطر المحدق به وأدخله من ذلك الباب ثم أغلقه بسرعة التصور .

فانهال الناس كالبحر الزاخر على هذا الباب يكسرونه .

ولكن بارداليان وابنه صعدا في سلم وهما لا يعلمان أين يسيران .

وأما هنري دي كيز فانه قال لأحد القواد :

- إصعد إلى القصر بخمسين رجلا ، وابحثوا عن الرجلين وأقوني برأسيهما .

ثم التفت إلى الآخرين فقال لهم :

- اتبعوني وهم بنا إلى مونتككون .

- ٢٩ -

تشهير الجثة

وقبل أن يذهب الدوق برجاله دنا منه فاقبل الأميرال فقال له : كلمة
يا سيدي .

- ماذا تريد ؟

- هل عزمت على شق الكافر .

- نعم ، فباذا تريد .. أسرع بالقول .

- أريد رأسه فهو لي وثمنه الف ريال .

وضحك دي كيز فقال :

- لقد أصبت .. فخذ الرأس وسنشق هذا الكافر من رجله بعد

أن تقطع الرأس .

فانحنى القاتل بخنجره على رأس الأميرال ، وما زال يحزه حتى فصله

عن الجثة .

فأشار دي كيز عند ذلك إشارة إلى اثنين من رجاله .

فاخذوا الجثة من الرجلين ، وجعلوا يجرانها على الأرض ، وهما سائران

في مقدمة الموكب .

ومشى جميع الناس وراءهما ..

وفي طليعتهم دي كيز .

وهذا أقبح ما حدث في تلك المذبحة التي شوهت وجه الانسانية .
 فقد كانوا يحرون تلك الجثة فوق الوحول بأبشع مظاهر التشنيع ،
 ووراءها نحو عشرين ألفاً من الباريسيين يضحكون ويلعبون وينشدون
 الأناشيد الحماسية ، كأنهم سائرون إلى حرب مجيدة ، يدافعون بها
 عن اوطانهم .
 كل ذلك وجثة الأميرال المنكود تجر في طليعتهم ، قارة على الظهر ،
 وطوراً على البطن .
 وكل ما ظفروا به كينوتي قتلوه القتل الذريع ، لا فرق بين أن يكون
 رجلاً أو امرأة أو غلاماً .
 وما زالوا على ذلك حتى وصلوا الى ساحة الشنق ، فأمر دي كيز فربطوا
 رجلي الجثة بحبل وعلقوها في الفضاء .
 وعند ذلك صاحبت تلك الجماهير ، عندما رأت جثة الأميرال تتمرجع
 في الفضاء صياحاً يشبه هزيم الرعود سمعه جميع سكان المدينة .

- ٣٠ -

من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ

أما قاتل الأميرال فقد بقي في قصر الأميرال مع الرجال الحسنيين الذين أبقاهم الدوق دي كيز للبحث عن بارداليان وابنه وقتلها .
وأما أولئك الرجال فإنهم تمكنوا من كسر ذلك الباب الذي دخل منه بارداليان واندفعوا جميعهم إلى ذلك السلم المظلم .

فكان قاتل الأميرال يسمع أصواتهم ، كلما انتقلوا من مكان إلى مكان .

ثم جعل ينظر إلى رأس الأميرال فيضحك ويقول :

إنهم سيقبضون على هذين الشقيين ويقطعون رأسيهما كما أمر الدوق ولكنهم لا يكسبون دانقاً من هذين الرأسين .

أما أنا فسأكسب ألف ريال برأس واحد ، وهو رأس جميل ، لا بد لي من غسله وتنظيفه .

وعند ذلك دخل إلى غرفة في الدور الأسفل ، وجاء منها بآنية ماء وجعل يغسل بملء السكينة ذلك الرأس وهو ينفخ كأنه جالس على مائدة مدام .

وكان يسمع ضجيج الباريسييين من الخارج ، ولكنه لم يكن يحفل بما يسمع لأنه صرف اهتمامه إلى الغناء وتنظيف الرأس .

وفسحاً هو على ذلك ، رأى رجلاً دخل إلى القصر ، وجعل
يبحث فيه .

فعرّفه القاتل انه مورفر وتاداه فقال له :

- عما تبحث في هذا القصر ، يا مورفر ؟ .. الملك تفتش فيه
عن كنز ؟ ..

فأجابه مورفر : بل أبحث عما هو عندي أجل من كنز . أبحث عن رجلين
من الهوكينوت كنت أراقبهما من سجن التامبل ، ثم أضعت أثرهما ولا بد أن
يكونا دخلا إلى هذا القصر .

- أبينهما رجل كهل طويل القامة ؟

- هو ذاك .

- وآخر في مقتبل الشباب تبدو عليه علائم الجراة والاقدام ؟

- هو بعينه .

- إنهما دخلا إلى القصر والجنود في أثرهما ، فاسمع حكايتهما ...

ولكن مورفر لم يمنح اليه ، ولم يدعه يتم حديثه ، فاندفع في السلم
وتوارى عن الأنظار . فشيعة قاتل الأميرال بقمقهة ، وعاد إلى الفناء
والتنظيف .

أما بارداليان وابنه فإنهما صعدا في ذلك السلم ، وهما لا يعلمان أين يسيران
لاشدة الظلام .

فجملا يخبطان خبط عشواء في تلك الظلمات ويسيران من مكان إلى مكان
دون أن يجدا منفذاً .

وقد سمعا صوت كسر الباب وعلموا ان الجنود دخلوا في أثرهما .

فقال الأب : لقد وقعنا في الفخ ولم يبق سبيل إلى النجاة .

فأجابه الابن : لا تنس يا أبي أين كنا منذ ساعتين ... لقد كنا
في قفص ، وكنا نموت عسراً ... فنحن الآن في نعم ، بالقياس إلى

ذلك الموقف .

وكانت تلك الساعة في غرفة يخزنون فيها الحبوب ، وليس فيها غير نافذة واحدة .

ويوجد مقابل هذه النافذة نافذة كائنة في بناية أخرى من بنايات القصر وبين النافذتين ممر ضيق يؤدي إلى الحديقة .

فوقف بارداليان الأكبر في تلك النافذة وقال : هذه هي الطريق ، فأنتني بلوج من الخشب .

وعند ذلك أخذ الاثنان يبحثان عن لوح قلم يجدا ، بل لم يجدا في ذلك المخزن شيئاً صالحاً لجعله جسراً بين النافذتين ، حق ولا حبلاً يستعينان به على النزول .

وكانا لا يستطيعان النزول من السلم ، لأن الجنود كانوا يصعدون منه .

وبعد لحظة سمعا أصوات الجند وعلمو أنهم دنوا منهما .

فقال الشفالييه لأبيه بلاء السكينة :

– لنشب وثوباً من هذه النافذة إلى الأخرى فليس بين النافذتين غير مسافة قصيرة لا تتجاوز ستة أقدام .

فأجابيه أبوه بمثل لهجته : لنشب .

وصعد الاثنان إلى النافذة ، فقال الأب وقد خطر له خاطر سريع : لا تشب واصبر .

ثم أمسك بخشب النافذة وقال لولده : أمسك بيدي .

فأمسك ابنه يديه وهو لا يدري ما يريد ان يصنع .

وكانت المسافة بين النافذتين لا تبلغ طول الانسان .

فد بارداليان الأكبر رجله وابنه ممسك به حتى التصقتا بتلك النافذة فقال لولده هوذا الجسر قمر عليه .

لا تخف لأن رجلي فوق نافذة البناية ويدي فوق هذه النافذة ، فلا خوف

عليك وعلي .
 فمشى عند ذلك الشفالييه على ظهر أبيه وبلغ غرفة البناية .
 وعند ذلك أسرع فقبض على رجلي أبيه ، وجذبه إلى الغرفة التي كان قد
 وصل وهو يتنفس الصعداء لنجاة أبيه من هذا الخطر .
 وبعد لحظة سمع الاثنان صياح الجنود في مستودع القمح فانبطحا على الأرض
 كي لا يروهما .
 ثم سمعا الضابط يقول : إنهما وثبا من هذه النافذة دون شك حين كنا نصعد
 السلم إذ لا منفذ في هذه الغرفة سواها .
 فأجابته آخر : هو ذاك وقد تمكنا من النجاة لان هذا الممر يؤدي إلى الحديقة
 فهلم بنا نعد إلى الدوق .
 ثم سمعا صوت نزول الجنود من السلم فأطلا من النافذة .
 وبعد حين رأوا أولئك الجنود يكلمون قاتل الاميرال ، ورأوا ذلك القاتل
 يهز كتفيه .
 فتركوه وانصرفوا مسرعين ، كأنهم يريدون أن يأخذوا نصيبهم
 من المذبحة .
 أما قاتل الاميرال ، فقد كان فرغ من غسل الرأس ، وأخذ يلفه
 بالقماش .
 وبعد ان انتهى من مهمته جاء بماء نظيف فغسل يديه ولم يبق عليه إلا أن
 يأخذ هذا الرأس ويسافر به مع رفاقه إلى رومة .
 ولكنه لما خرج من تلك الغرفة التي غسل فيها يديه وعاد إلى حيث كان
 وجد باب القصر الكبير مقفلا .
 فدهش وقال في نفسه :
 -- من أقفله ؟ ولماذا ؟
 وفيما هو منذهلا ، يسائل نفسه هذه الاسئلة ، ظهر له فجأة

بارداليان وابنه .

فزاد انذهاله ولكنه كان انذهالا مقرونا بالخوف .

فدنا منه الشفالييه بارداليان ، وقال له بلمهجة لطيفة ، سكنت روعه ،

وزادت قبحته :

— أأنت الذي القيت جثة الاميرال كوليني من النافذة ؟

— نعم أنا هو أيها الهوكينوتي ماذا تريد ؟

— وهل أنت الذي قتلته ؟

— نعم أنا هو أيها الكافر ماذا تبغي ؟

— بماذا قتلته ؟

فأشار إلى حربة مصبوغة بالدم كان قد القاهها على الارض وأجابه : إني

قتلته بهذه الحربة .

ثم ضحك ضحك الساخر وقال : وسنقتلكا بمثلها أيها الكافران .

واندفع إلى الباب كي يستنجد عليهما الثائرين .

ولكن بارداليان الاكبر وثب إلى عنقه ، فضغط عليه حتى كاد يخنقه

وهو يقول :

— لا تفه بكلمة قبل ان نناقشك الحساب .

فحاول القاتل ان يفلت من بارداليان ، ولكن يديه كانتا ناشبتين به

كالكلاليب .

ثم أفلت بارداليان عنقه كي يدعه يتنفس ، فقال لهما بلمهجة تدل على الرعب

العظيم بمد تلك القصة :

— ماذا تريدون مني ؟

فأجابه الشفالييه قائلا :

— إننا لا نريد منك شيئا ، ولكننا نريد إنقاذ البشر من وحش

مفترس .

— إذا تريدان قتلي ا
فهز الشفالييه كتفيه وقال :
— أتعرف المبارزة ؟

فترجع القاتل إلى الوراء وسجد سيفه بيده اليمنى وخنجره بيده اليسرى
ووقف في موقف الدفاع .
أما بارداليان فإنه حل منطقته والقى سيفه إلى الأرض .
فدعر أبوه وقال له :
— ماذا تفعل ؟

فأجابه . إني لا أريد قتل هذا الوحش بالسيف بل بهذه الحربة .
ثم التقط الحربة عن الأرض .
فابتسم القاتل ابتسام الاستخفاف ، لأن سيفه كان أطول من الحربة
مرتين .
ولكنه حين رأى بارداليان ماشياً إليه ، اصفر وجهه ، وذهب
ذلك الابتسام .

أما بارداليان الأكبر ، فقد شبك يديه فوق صدره ، ووقف بالقرب
منهما ينتظر .
وكانت هيئة بارداليان ، وهو يمشي إلى ذلك القاتل ، تدعو إلى الرعب .
فحمل عليه الرجل حملة منكرة ، وجعل يضربه الضربة تلو الضربة ،
بحسامه الطويل .

ولكن بارداليان كان أمهر رجل في ذلك العصر بالمبارزة ، فكان يرد
ضربات بحريته ويزحف إليه فيضطر الرجل إلى الارتداد .

وما زال بارداليان يهجم عليه بملء المهارة والحدق ، والرجل يرتد بملء
الحذر والذعر ، حتى التصق بالباب الأكبر . ولم يبق بينهما وبين حربة
بارداليان غير شبر .

فعلم انه لا قبل له بهذا الخصم العنيد ، وأيقن من الموت .
فاكفهر وجهه ، وجزع جزعاً شديداً ، وذكر كلمات الاميرال
الاخيرة وهي :
... من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ .

وكان هذا آخر ما ذكره لان بارداليان انقض عليه عند ذلك انقضاض
الاجل المحتوم وطمعنه بتلك الحربة التي كانت لا تزال مصبوغة بدم الاميرال
طمعنة واحدة .

وقد اخترقت الحربة صدره ونفذت من الصدر إلى الباب فاخرقته بحيث
بات مسمراً في باب الاميرال .
وقد مات لفوره دون ان يفوه بكلمة .

وعاد بارداليان إلى حسامه فتقلده ، ثم تأبط ذراع أبيه وخرج وإياه من
باب الحديقة .

ولكن بارداليان الاكبر ، رأى ورقة سقطت من جيب قاتل
الاميرال ، فأسرع إلى التقاطها ، ووضعها في جيبه ، بينما كان ولده
يتقلد حسامه .

* * *

وبعد خروجهما بدقيقتين أقبل مورفر إلى ردهة القصر ، حيث كان
بارداليان .

وكان قد تبع رجال دي كيز ، الذين كانوا يبحثون عن بارداليان
وابيه ... ثم لم يكتشف بتفتيشهم ، فبحث بنفسه في جميع أنحاء
القصر .

ولما قنط من لقاها عاد إلى الردهة لاغناً شائماً .

وكان أول ما رآه قاتل الاميرال ، فذعر ذعراً شديداً حين رآه مسمراً بالحربة في ذلك الباب .
وأيقن ان ذلك من صنع بارداليان .
وقد بات واثقاً أنهما برحا القصر ، وان هذا القصر لم يبق فيه غير الجثث .
وعول على أن يبحث عنهما حتى يظفر بهما .
وفيا هو بهم بالخروج ، رأى رأس الاميرال ملقى على الارض ، وهو ملفوف بالقماش .
فقال في نفسه : لا بأس من أخذ هذا الرأس فهو مفيد .
ولكن لمن أعطيه ؟ .. فان الملكة ودي كيز يتنازعانه ... والذي أراه ، انه يجب إعطاؤه الى الملكة ... لان دي كيز قد فشل هذه المرة .
ثم حمل الرأس ، وخرج به من القصر ، وهو يعض شفته غيظاً ، لهرب بارداليان .

* * *

وأما بارداليان وابنه فلأنهما حين باقا في الشارع قال الاب لابنه : هلم بنا الآن نخرج من باريس .
فأجابه ولده : كلا بل يجب ان نذهب إلى قصر مونمورانسي .
— ولكنك أنت قلت .. أن المارشال لا خطر عليه ، لأنه من الكاثوليك .
— من يعلم ما يكون فہم بنا اليه .
فاستاء الاب لهذا العناد وقال له :

- العلك اشتقت الى لويزا ؟ .
 فاصفر وجه الشفالييه وقال : هلم بنا يا أبي ، لانتنا قد نفيد الاميرال
 إذا هاجموا .
 ثم تمثل له ان عصابات الشائرين محدقة بلويزا ، فكاد يحن قلقاً ،
 وأسرع الخطى ..
 فتبعه أبوه وهو يقول : ولكنك قد تلقى هذا المارشال مع جماعة القاتلين
 لانه من الكاثوليك .
 فوقف الشفالييه ، وقد اصفر وجهه ، فقال : إذا كان ذلك كان
 أمراً هائلاً . . إني أريد ان أستوثق يا أبي ... وأحب ان أعلم إذا
 كانت لويزا ابنة رجل يقتل الابرياء ، من عباد الله ، باسم الله ... هلم
 يا أبي الى قصره .
 - هلم ولكن ذلك صعب ..

- ٣١ -

عيد القديس برتلماس

هو يوم تلك المذبحة الكبرى التي لم يرو التاريخ أفظع منها ، فإنها شوهت
 وجه التاريخ والدين والانسانية والمدنية .
 وقد أفاض مؤلف هذه الرواية في وصف فظائعها الهائلة ومثلها للاذهان
 تمثيلاً ترتعد له الفرائص

وخلاصة أقواله ان هذا الشعب المتحمس أسكرته الدماء فارتكب من فظائع القتل والتشنيع ما لا يخطر في بال إنسان .

وقد دامت هذه المذبحة ستة أيام في باريس وفي الريف ، فكانوا يقتلون الرجال أقبح قتل ويمثلون بالنساء أقبح تمثيل ، ولا يعفون عن الاطفال ، فقد كانوا يقتلونهم ويلقونهم في النهر .

ولكننا لا نبحث في ذلك إلا بما كانت له علاقة ببارداليان .

فقد خرجا من قصر الاميرال ، وهما ينويان الذهاب الى قصر مونجورانسي .

فوافق الاب ابنه على الذهاب اليه ، ولكنه توقع بنظره الشائب ما سيلقى من المصاعب قبل الوصول الى هذه الغاية .

وإنما توقع تلك الصعاب لما يعلمه من طباع ولده ، فإنه لا يحفل بالسياسة ، ولا يراعي موقفاً ولا يصبر على الجور ولا يهرب الموت .

وفوق ذلك فإن كل كاثوليكي يسير في شوارع باريس في ذلك اليوم كان قد وضع على ثوبه رقعة بيضاء تمثل الصليب .

وذلك كي يتميز بها عن الهوكينوت فلا يقتلونه .

ولم يكن بارداليان وابنه قد وضعوا هذه العلامة .

وقد خطر لابيه ان يضع هذه العلامة ، فأبى عليه ولده كل الاباء ، فإنه لم يكن من الهوكينوت ، ولكنه كان يكره التعصب الديني ، ويأنف من القتل بسبب الدين ، ويرى في وضع العلامة معنى الخوف ، فلا يطبق النظر اليها .

غير ان الشوارع كانت غاصة بالقتلة ولا سبيل إلى إدراك قصر مونجورانسي إلا بالمرور من بين أولئك الناس .

فسارا وهما لا يعلمان الى اين يسيران .

حتى انتهيا إلى ساحة رأيا فيها كثيراً من الخطب المعد للاحراق ، أمام

قصر كبير .

وقد وضع كل أثاث ذلك القصر فوق تلك الأحطاب ثم أشعل أحد أولئك
الأجلاف النار في الحطب .

وعندها ظهر رجل يحمل بين ذراعيه جثة .

فصاح الجميع قائلين : ليحيى بيزو .

وأما هذه الجثة فكانت جثة الدوق دي روشفوكار .

وأما بيزو فكان يسير بها كالنمر وقد ظهرت عليه الوحشية .

فحياه أحد الحاضرين بقوله : عوفيت يا بيزو ، لقد جاهدت خير جهاد ،
وهذا القتل الأربمين .

فابتسم بيزو وألقى الجثة فوق النار .

فصاح الجميع صيحات الابتهاج ، وقد سروا سروراً وحشياً لهذا
المنظر الهائل .

فأخذ بارداليان الأكبر بيد ابنه وقال له : لنهرب فلا أطيقت النظر إلى
هؤلاء الوحوش .

وقد ضغط على يد ابنه ضغطاً شديداً لأنه رأى يحاول الانقضاض على بيزو
وقد أعمت بصيرته تلك الأعمال المنكرة .

ولكنه لم يسمعه مخالفة أبيه ، فسار معه مكرهاً في طريق قصر
مونورانسي .

وعندما اقتربا من السين رأيا جمهوراً عظيماً من الناس .

ثم لم تمر لحظة ، حتى باقا في وسط تلك الجماهير ، عند مدخل شارع
سانت دنيس .

فنظرا إلى ما حواليهما فرأيا منزلاً جميلاً كسرت نوافذه وجعل مهاجموه
يرمون منها ما كان فيه من الأثاث .

ولم يسمعا من داخله أصوات الأنين والاستغاثة ، لان أصوات الجماهير

كانت تمنع وصول الأصوات اليهما إذ كانوا كلهم يصيحون :
ليحيى كيرسي !!

أما هذا المنزل الجميل فقد كان منزل لافورس ، وهو من مشاهير
الهوكينوت .

وقد قتلوا كل من كان فيه من الخدام والخدامات والاسياد .

ثم ارتدت تلك الجماهير راجعة بقيادة قواد كيرسي يبحثون عن منزل آخر
يقتلون من فيه وينهبونه .

فلما خلت الردهة منهم ، ولم يبق فيها غير الأب وابنه قال الأب : هلم بنا
نهرب الآن .

فأجاب ابنه قائلا :

- كلا ، لاني أحب ان أرى ما يفعل كيرسي في هذا المنزل ، فإنه
لا يزال فيه .

(وكيرسي هذا هو أحد قواد العامة الثلاثة وهم الكتيبي والجوهري وصانع
الأسلحة الذين تقدم ذكرهم) .

فلم يعارضه أبوه هذه المرة وصعد وإياه إلى سلم المنزل .

حقق إذا وصلا اليه عرف الشغالييه لاول وهلة لإنهم لم يرموا من الأثاث إلا ما
لم تكن له قيمة .

وأما الأثاث الثمين فقد بقي في موضعه .

ثم دخلا إلى قاعة الاستقبال ، فوجدا فيها خمس جثث ، ملقاة بعضها
فوق بعض .

ثم رأيا رجلين يشغلان ، بملء السكينة ، بنهب ما في الخزائن من
الحلي والأموال .

وكان هذان الرجلان كيرسي وأحد أعوانه .

فقال كيرسي لرفيقه : أسرع إن الأموال في هذه الخزانة .

فأسرع رفيقه وكسر الخزانة ، فجعلها يضعمان في جيوبهما ما خف حمله
وغلا ثمنه .

وكان لافورس صاحب هذا المنزل يلبس في عنقه عقداً ثميناً حسب عادة
الأغنياء في ذلك العهد .
قدنا كيرسي من جثته وقطع العقد .

ودنا رفيقه من جثة امرأته فقطع أذنيها كي يأخذ قرطها .
فقال كيرسي عند ذلك لرفيقه : هلم بنا فلم يبق لنا ما نعمله في هذا المنزل
ولم يبق فيه ما ينهب .
ولكنهما ، قبل ان يتمكننا من النهوض ، سقطا فوق تلك الجثث
لا حراك بهما .

ذلك ان الشفالييه ضرب كيرسي ، بقبضة يده على صدغه ، ضربة
كانت القاضية .
وقتل أبوه الآخر بقبضة بندقية كانت هناك .
وكانت الضربتان هائلتين حتى ان اللصين لم ينبسا بكلمة ، بل تحركا حركة
عنيفة ثم قاما فومة الموت .

ففحص الشفالييه الجثث الخمس ، وكان يريد بذلك فصلها عن جثتي
اللصين .

وفيا هو يفصلها ممع صوت غلام صغير يستغيث به ويقول :
— بربك لا تقتلني .. إرحمني .

وقد ركع هذا الغلام ، وعمره اثنا عشر عاماً ، بين الجثث وضم يديه
شأن المتوسل .

وهو أكبر أولاد صاحب المنزل ، وقد كان معانقاً لأبيه ، حين
قتلوه ، فسالت عليه دماء أبيه ، وسقط بالقرب منه فحسبه القاتلون ميتاً
ولم يتعرضوا له .

أما بارداليان فإنه ذعر لهذا المنظر المفجع ، وحاول ان يأخذ بيد الغلام
ويطمئنه .
لكن الغلام ذعر ذعراً شديداً ، وحسب ان بارداليان يريد قتله ، فأفلت
منه وفر هارباً .
وعند ذلك نزل الأب وابنه ، وبرحا ذلك المنزل ، وهما متقبضاً الصدر
لما رأياه .
فجعللا يبحثان الشوارع الكبيرة وعصابات القتلة ، وهما لا يعلمان أين هما
ولا في أية ساعة من النهار .
لكن الشمس كانت قد ارتفعت وهي تتألق من فوق دخان البارود الذي
كان يعقد ضباباً في الهواء .
وفيما هما سائران بلغا إلى عطفة ، فوقفا منذعرين ، وحاولا الهرب
فلم يستطيعا .
وكان كل ما يستطيعا فعله الارتداد الى زقاق ضيق في وسطه باب منزل
دون ان يعرفا منفذ هذا الزقاق .
ذلك أنهما رأيا على قيد عشرين خطوة منهما ، عصابة كبيرة من اولئك
المتعصبين .
وكان يبلغ عدد رجالها نحو خمسين وكلهم مدججون بالسلاح .
ووراءهم جمهور عظيم من الناس مسلحون بالعصي والحديد والسيوف القديمة
وكلهم ثائرون هائجون .
أما رجال العصابة فإنهم كانوا مشهرين الخناجر وهي حمراء من الدم وعلى
صدورهم جميعهم صلبان بيضاء .
وبين هذه العصابة خمسة عشر فارساً .
وفي مقدمتهم ثلاثة رجال ، تتقد عيونهم باللهب ، وقد بدت عليهم
هيئة الوحشية .

وكان كل منهم يحمل حرباً وقد شك في رأس كل حربى رأس إنسان
وهم يسبرون ويصيحون :
- ليحيى كيرفر !

وكان هذا الوحش الذي يهتفون له بينهم ، وهو كيرفر الكتبي ،
أحد زعماء العامة الثلاثة ، وقد شك في حربته رأس رجل ، وجعل يهز
تلك الحربة .

فارتعد بارداليان وابنه حين رأيا ذلك الرأس ، إذ علما انه رأس راميس
ذلك الشيخ العالم الذي أنقذهما مرة في شارع مونمارتر ، وأنقذاه مرة في شارع
سانت دنيس مع عشيقته الملك .

فلما اقتربت العصابة منهما دخلا في ذلك الزقاق ، كي يفسحها لها
بجلاً للمرور .

ثم وقفا ينظران الى رأس ذلك الرجل الجليل يهزه ذلك الوحش المفترس ،
فوق حربته .

فلما مر كيرفر بهما ، اتقدت عينا الشفالييه ، ونظر الى كيرفر
نظرة هائلة وحاول أن يلفظ كلمة شتم أو وعيد فلم يستطع ، وخرج
الكلام من فمه أنيناً متقطعاً ، فضم قبضتيه كأنه يحاول الانقضاض على
الكتبي .

أما الكتبي فانه رأى الشفالييه ينظر اليه تلك النظرات الهائلة وقرأ فيها
سور الوعيد والاحتقار .

فالتفت الى رفاقه فدلهم على هذين الرجلين ، وأمرهم بقتلهما ولكنه قبل
أن يتم هذه الإشارة سقط على الأرض صاخباً لاعناً

ذلك انه أصيب برصاصة اخترقت صدره فسقط قتيلاً .

وكان مطلق هذه الرصاصة الشفالييه بارداليان .

فان أحد رجال الكتبي هجم عليه ببندقيته فانزع بارداليان البندقية منه

وأطلقها على الكتيبي فقتله لفوره .
فلما رأى بارداليان كيرفر قتيلاً تنهد وقال : إن قتل مثل هذا الوحش فيه
بعض العزاء .
وعند ذلك هاج رجال الكتيبي هياج الذئاب الجائعة ، وانقضوا على
بارداليان وابنه ، وهم خمسمائة رجل انقضاض العقبان ، وكانت أصواتهم
تشبه أصوات الذئاب .
وقد حاولوا جميعهم ان يدخلوا الى هذا الزقاق .
لكنه كان ضيقاً لا يتسع لمرور أكثر من اثنين أو ثلاثة معاً .
وقد سبقهم فارس ضخيم الجسم ، كان لابساً ملابس حراء ، عليها
شارة دامفيل .
مما يدل على انه في خدمة ذلك الدوق .
واندفع بجواده الى مدخل الزقاق وحسامه مشهور بيده .
فصاح بارداليان الأكبر صيحة فرح قائلاً :
— لقد نجونا !
وبينما كان الأب ينسائل نفسه عن هذه النجاة التي يزعمها أبوه وثب الأب
وثبة النمر إلى الجام ذلك الجواد وجره إلى ذلك الزقاق بحيث سد مدخله .
ثم جعل يضعك غير مكترث لصيحات الناقمين الذين كانت تشبه أصواتهم
الرعود القاصفة .
وقد دعر الفارس بعد تحمسه ذعراً شديداً وحاول أن يرجع بجواده ويخرجه
من هذا المضيق .
ولكنه لم يتمكن من الرجوع به فرجم وحده .
ذلك أن الشغالييه بارداليان الأكبر ضربه بحسامه ضربة ألقتة صريعاً عن
ظهر الجواد .
وأسرع الأب عند ذلك يريد قتل الجواد واحكام سد المدخل يحمته .

فاسرع ابنه إلى إيقافه وقال له : لا تفعل فهذا كاليور .
(اسم جواد بارداليان الذي وهبه إياه الدوق دامنييل حين انقذه من
الصوص) .

فنظر الأب إلى ذلك الجواد وقال له .
لقد أصبت يا بني فهو بعينه .
ثم ضحك الإثنان ضحكاً عالياً دوى صدهاء في ذلك الزقاق .

وبينما كانت تلك الذئباب الهائجة تعوي خارجاً في طلب الفريسة اسرع
الأب والابن إلى الفرار وهما موقنسان أن القتلة لا يستطيعون ادراكها قبل
خمس دقائق على الأقل إلى ان يخرجوا الجواد فيتنسح لهم مدخل الزقاق وهي
مدة كافية لفرارهم .

ولكنهم لم يسيرا بضع خطوات حتى صاح الشفالييه صيحة يأس وقال :
ليس لهذا الزقاق منفذ .

وقال الأب أذكر اني عرفت هذا الزقاق ومررت به قبل الآن .

وعند ذلك فتح الباب الذي رأوه أولاً وظهرت منه امرأة .
فصاح الاثنان قائلين :

هيكوت ... (وهي امرأة صاحب فندق دفينير) .

وكان هذا الرواق رواق الفندق الذي طالما أقاما فيه ولكنهما لم يعرفاه في
البدء لأنهما كانا يتدفعان مع تلك الجماهير المزدهجة كما تندفع خشاب مع التيار
فلا يعلمان أين هما .

إلى أن دفعهما ذلك التيار إلى شارع سانت دنيس وهما يحسبان انهما
سائران إلى جهة السين .

وقد قدر لهما حسن الطالع أن يقفعا عند مدخل هذا الزقاق حين مر
الكتبي بمصباحه .

فلما رآيا الباب قد فتح أسرعوا إلى الدخول منه واقفلاه فوجدوا نفسيهما في

تلك القاعة التي كان يجتمع فيها الشعراء ، تلك القاعة التي جرت فيها مؤامرة الدوق دي كيز وذبج الشعراء فيها التيس كما تقدم في اوائل الرواية .

وكان يوجد في تلك القاعة ثلاثة رجال وهم لاندرى صاحب الفندق والشاعران دورات وبونتيس .

والغريب في أمر هذين الشاعرين انهما كانا جالسين يعاقران المدام في تلك الساعة الرهيبة كأنهما يلتمسان من إله الخمر أن يوحى اليهما وصف تلك المذابح التي شوهدت وجه تاريخ الانسان .

أما هيكتور فقد كانت مضطربة ترجف رعباً على الإيطاليين .
فدلتها على سلم وقالت لهما اسرعا بالصعود ومق بلغتا إلى أعلى ذلك السلم تتصلان بسطح المنزل المجاور وهناك سلم آخر تنزلان منه الى الشارع .
وأما الشاعران ، فان الشراب كان قد تمكن منهما ، فقال احدهما وهو دورات :

اني سألظم أبعد قصيدة يمكن نظمها في وصف إبادة الهوكينوت .

فأجابه زميله بونتيس قائلاً :

— إذا يجب ان تجعل مدادك من الدم .

ولطم لاندرى وجهه وقال : الويل لي فإنهم سيهاجمون فنسدي متى عرفوا أنهما دخلا اليه .

فأجابه امرأته قائلة :

— إنهم سيعرفون دون شك فأمرع واجمع ما تستطيع جمعه من أموالنا ، ولنهرب نحن أيضاً .

فشى لاندرى وهو يشن أنين الموجه .

فناداه بارداً باليان الأكبر وقال له :

— أضف إلى ما لك عندي ثمن فندقك الذي سينهبه الثائرون .

وقال له الشفالييه : إني أقسم لك بانك ستقبض منا جميع حسابك .

وعاد إلى صاحبة الفندق فقبلها وهو يقول : إني لا أنساك ما حييت .
 ثم توارى مع أبيه في ذلك السلم الذي دلته عليه .
 وبعد هنيهة عاد لاندري يحمل كيساً وضع فيه أمواله وحلي إمرأته .
 فقالت له إمرأته : لتسرع بالفرار ، فان الثاثرين دخلوا الزقنق وهم
 يكسرون الباب .
 فقال لها دورات الشاعر إنك لست بتأوليكية كما يظهر فلا تبرحي هذا
 المكان ، لأنني سأفضح أمرك لدى الداخلين .
 فكبر ذلك على الشاعر الآخر فجرد حسامه وقال لصاحب الفندق
 وإمرأته : إذهبا بأمان ، وإذا خطر له أن يعترضكما أغمدت حسامي
 في قلبه .
 وبعد هنيهة كسر الثاثرين الباب ودخلوا إلى ذلك الفندق ، فلمسوا
 يحدوا أحداً فيه أقبلوا على نهبه فما أبقوا فيه بقية .

- ٣٢ -

..مناظر منجمة

وسار بارداليان وابنه في الطريق التي دلتها عليها هيكوت ، فبلغا منها
 إلى زقاق مقفر ، وسارا منه إلى شارع مونغارتر .
 وهناك رأيا انه لا سبيل إلى المرون لكثرة الزحام .
 فقد كان الناس يعدون بالألوف في ذلك الشارع وجميعهم مندفعون اندفاع

التيار الزاخر إلى جهة السين يصيحوون الصيحات المنكرة فتمتزج أصواتهم
بطنين أجراس الكنائس وقرقرة البنادق فيخرج لها دوي هائل .
فمادت المخاوف إلى الأب وابنه وانزويا في عطفة الشارع ينظران بعبور
تضطرب إلى الوحشية المطلقة وقد تجسدت بأجسام أولئك البشر .

وكان أول ما رأياه جماعة من النساء سائرات في طليعة الموكب يحيط بهن
رجال طبعت الفظاعة على جباههم وصبغت أيديهم بالدماء .
وقد خاط جميع أولئك النساء صلباناً من القماش الأبيض فوق صدورهن
وكل منهن حاملة كيساً على ظهرها .

وفي كل كيس من هذه الأكياس طفل أو طفلين من أبناء الهوكينوت وقد
خنقهم بأيديهن الأثيمة .

وهو منظر فظيسم هائل يفتت الأكباد ويسيل الأرواح من العيون .
ولكن الناس كانوا يسرون وراءهم فرحين جزلين ، وبعضهم كانوا
يغنون أغاني الغرام كأنهم في حفلة راقصة .
فارتعدت فرائص باردالبان وابنه لهذا المنظر الجهنمي ، وأدمعت عينها
الشفالبييه من هول ما رأى من أعمال تلك الوحوش الضارية .
ثم رأيا منظراً آخر مر بهما مرور الحلم .

وهو ثلاثمائة فارس كانوا مدججين بالسلاح ، وقد احمرت ثيابهم من الدماء
فكلموا يبعدون الناس عن اليمين وعن اليسار ليفتحوا ممراً .
والناس يبتعدون ويمثلون راضين مسرورين هاتفين .

وكان هذا الهتاف للدوق دي كيز ، فانه كان عائداً بفرسانه من ساحة
الشنق ، حيث علق جثة الأميرال كوليني من رجلها .
وكان يسير وراء أولئك الفرسان المارشال دي تافان وخلفه أيضاً ثلاثمائة
فارس ، لا يقلون فظاعة وإنما عن الفرسان المتقدمين
وكان في أثرهم مركبة ضخمة متسعة تقل الدوق دالنجو وندماءه مرجيرون

كاليس ، وسانت موجرين وهم يضحكون ويمزحون ، كأنهم في حفلة طرب .
يشجعون ذلك الشعب الثائر كلما قتلوا بريثا ، أو أخرجوا منزلاً .

ومر دي كيز وثافان ، والدوق دالنجو بين الهتاف الشديد الذي كان يطبق الفضاء .

فكان كيز يقول : اقتلوا !

ودالنجو يقول : احرقوا !

وثافان يقول : افصدوا فلن الفصادة صالحة في فصل الحر .

وبعد هذه العصابات الجهنمية مرت عشرون مركبة تجرها جياد قوية ،
وفي كل مركبة قدر ما تسع من الجثث المشوهة .

وهذا الموكب الهائل سائر بحملته إلى السين ليلقي فيه ضحاياها ويغفي عاره بين أمواجه .

فاندفع بارداليان وابنه وسارا مع أولئك الوحوش وهما لا يعلمان كيف يسيران وقد أضاعت هذه المناظر الهائلة رشادهما .

وفياهما يعجبان كيف ان أولئك الثائرين لم يهجموا عليهما ويقطعوهما
بخناجرهم نظر كل منهما إلى الآخر فرأى على ذراعه صليباً أبيض فعلما السبب
في تغاضي الناس عنهم .

وقد أيقنا أن هيكوت وضعت هذه العلامة على ذراعيهما دون أن يشعرا
وقاية لهما من الثائرين .

فانتزع الشفالييه تلك العلامة من ذراعه مغضباً مع انه لم يكن من
الهوكنوت ، بل ولا من الكاثوليك أيضاً ، فإنه لم يكن يعلم شيئاً من
مبادئ المذهبين .

وقد حاول أن يلقي تلك العلامة إلى الأرض .

ولكن أباه أسرع فاخطفها منه فوضعها في جيبه قائلاً :

- لنحفظها على الأقل تذكاراً من هيكوت .

وإنما فعل ذلك لرجائه أن يقنع ولده على وضعها فوق ذراعه فانها كانت
خير واق لهما من جنون الشعب .
وقد أبقي الأب علامته فوق ذراعه .
فهز ابنه كتفيه ولم يجب .
فلما وضع الأب العلامة في جيبه شعرت يده بورقة فيه .
فأخرجها مندهلا ثم أعادها إلى جيبه وقال : لقد ذكرت .
فقال له ابنه : ما هذه الورقة ؟
- إنها سقطت من جيب قاتل الأميرال كوليني حين قتلته . فالتقطتها
ووضعتها في جيبى وسننظر فيها بعد الآن .
وسار الاثنان مع تلك الجماهير ، ولم يكن لهما بد من المسير معهم لأنهما
كانا ذاهبين إلى قصر مونمورانسي ، والجماهير سائرة في طريق نهر السين ،
والطريقان واحدة .
وعندما وصلا إلى جسر النهر ، اضطرا إلى الوقوف وقد رأيا مناظر
ترعد لها للفرائص .
فإن أولئك النساء القين أكياسهن بمن فيها من الأطفال إلى نهر السين وهن
ضاحكات لاعبات وقد انتزع الرفق من قلوبهن الصخرية .
ثم جاء دور المركبات ، فجعلوا يخرجون تلك الجثث المضرجة بالدماء
ويلقونها في المياه ، بحيث استبحال نهر السين إلى بحر أحمر .
وقد حاول بارداليان وابنه أن يهربا كي لا يريا تلك المناظر المرعبة ،
وأرادا أن يخترقا صفوف الناس ويحتازا الجسر إلى الضفة الثانية .
لكنهما لم يستطيعا ، فإن تلك الجماهير التي كان يبلغ عددها عشرة آلاف
صدرت إليها الأوامر بعد أن فرغت من مهمتها ، فتألف رجالها عصابات ،
وانقلبوا راجعين إلى الأماكن التي عينت لهم للعود ، إلى الفتك بالباقيين من
الهوكنوت .

فلم يجد الأب وابنه سبيلاً للتقدم واضطرا مكرهين إلى السير مع هذه
الجهاهير المزدحمة .

فقد سارا معهم نحو ساعة من شارع إلى شارع ، وهما لا يعلمان إلى
أين يسيران .

وما زالا على ذلك حتى مرت تلك العصابات بشارع يشرف على زقاق ضيق .
فأسرعا إلى الدخول في الزقاق .

وبعد هنيهة وجدا نفسيهما عند باب في جدار طويل ، قليل الارتفاع ،
وهو المكان الوحيد الذي سلم من أولئك المتعصبين .

- ٣٣ -

تربة الأبرياء

ولم يكن يعرف الأب وابنه أين هما ، ولم يعلما في أية ساعة هما
من النهار .

لكنهما تنهدا تنهد الارتياح ، ومسحوا العرق الذي كان ينصب من
جبينهما .

فوقفا وقد شعرا بالراحة ، إذ اجتجبت عنهما تلك المناظر الدموية ، فلم
يريا دماء ولا جثثا ولا أسلحة قاتلة .

بل كانت السكينة سائدة في ذلك المكان لا يكدر صفوها غير اصوات
الشارين التي كانت تبلغ إلى اذانهما بلوغ هدير الامواج من مكان بعيد .

وكانت أغصان الأشجار مدلاة فوق السور المحيط بالباب وأصوات الأطياف
 تتناغى عليها وتغرد فرحة بأشعة الشمس
 وقد رأيا قرب الباب ، باباً ضخماً ويجواره غرفة .
 ثم رأيا صليباً كبيراً يعلو ذلك الباب ، ونظرا من فوق الجدران ،
 فرأيا كثيراً من الصليبان فعلما أن المكان تربة ، وأن الغرفة الكائنة بجوار
 الباب غرفة الحفار .
 أما هذه التربة فهي تربة الأبرياء التي دفنت فيها أليس والراهب .
 وكان النهار قد انتصف وبطل دق الأجراس .
 فحسبوا أن المذبحة قد انتهت وجعلوا يتشاوران في الطريق التي يسيرون
 فيها لاجتياز النهر والبلوغ إلى قصر مونثورانسي .
 فاقترح الشفالييه اقتراحاً وافقه عليه أبوه .
 وفيما هما عازمان على المسير رأيا غلاماً صغيراً قادمًا إليهما .
 وكان الغلام يمشي مشياً بطيئاً وهو يحمل صرة .
 تذكر الشفالييه انه رأى هذا الغلام ولكنه لم يذكر أين رآه .
 عند ذلك دنا الغلام منهما .
 فقال له الشفالييه إلى أين أنت ذاهب يا بني .
 فوضع الغلام ما كان يحمله على الأرض وأشار إلى التربة فقال :
 اني ذاهب الى هناك . .
 وقد عرفتك ، فأنت الذي حدثتني منذ شهر ، حين كنت أشتغل
 قرب الدير واثبتت على الأزهار التي كنت أصنعها . أتريد أن تراها فقد
 انتهيت من صنعها
 ثم فك عقدة الصرة التي كان يحملها وأخرج منها بلل الكبرياء ما كان فيها
 من الأزهار الصناعية وهو معجب بها كل الإعجاب .
 فقال له بارداليان الحق انها من أجل ما يصنع .

— نعم ، انها جميلة .. وقد أعددتها لأمي .
فاضطرب الشفالييه وقال : لقد ذكرت . فماذا تدعى يا بني ؟
— اني ادعى جاك كليان ، فهل تريد أن تفتح لي باب هذه القرية
لادخل اليها .
فذهب الشفالييه وطرق باب غرفة الحفار
فخرج الحفار وهو مضطرب فلم يطمئن إلا حين أخبره الشفالييه
بمعزم الغلام .
فضرب الحفار جبينه بيده وقال : لقد ذكرت .
ثم التفت الى الغلام وقال له : ألسنت تدعى جاك كليان ؟
— نعم .
— إذا اتبعني فسأدلك على ضريح امك .
فدهش بارداليان وأبوه لهذه المعرفة ولهذا الجواب .
وأخذ الغلام باقة الزهر بين يديه ، فقال له الشفالييه : أملك قادم من
محل بعيد ؟
— من الدير وأنت تعرفه وقد لقيت عناء شديداً في المسير ، فان الشوارع
كانت غاصة بالناس ولا شك أن هذا اليوم يوم عيد عظيم .
ولكفي سمعت دوي البنادق ، ولماذا يطلقونها ألعلمهم يقتلون الرجال
والأولاد ؟
اني خفت خوفاً شديداً ولكفي مع ذلك مررت دون أن يلتبه لي أحد وأنا
سعيد بوصولي الى هنا .
وكان يتكلم ويتبع الحفار
وكذلك بارداليان فانه كان يسمع حديثه وهو مضطرب وقد دخل معه
الى القرية .
وبعد ان توارى بارداليان وابنه والحفار والغلام في داخل القرية ظهر عند

بأيها الأكبر راهبان .
 فقال أحدهما للآخر :
 لننتظر هنا قليلاً فنستريح وندع وقتاً لرجالنا كي يدركونا .
 فأجابه رفيقه : بل لندع وقتاً للغلام يعد معدات العجيبة .
 ما هذه الدماء التي يسفكونها أيها الأخ تهييوت ، ألم يكن الأجدر
 سفك دمنا القناني ؟
 - إن سفك هذه الدماء ، يا لوبين يرضي الله .
 - لا أنكر ذلك ، ولكنني كنت أؤثر أن أكون في فندق دفينير ، فتإن
 فيه أفضل الخمر ، وفوق ذلك فاني لا أأمن رصاصة تائهة تلجأ إلى صدري .
 - لا تخف رصاص البنادق فانك من رجال الله ، ألم تحدث عجيبة الحلة
 عن يدك ..



وبينما كان الراهبان يتحدثان كان الحفار قد وقف عند قبر لا يزال ترابه
 يدل على أنه حديث الحفر .
 فالتفت الحفار إلى الغلام وقال له هوذا الضريح .
 فأضطرب الغلام في البدء ، ثم التفت إلى الحفار فقال له :
 - انه قبر أمي .. أتعلم كيف كانت حياتها ؟
 فقال له بارداليان بلمهجة المشفق :
 - كيف ذلك يا بني ، ألم تعرف أمك قبل موتها ؟
 - كلا .. ولكنها ستكون مسرورة ، فإن قبرها سيكون من
 أجل القبور .
 ثم جعل يزرع فوق تراب الضريح تلك الأزهار الصناعية باقتان يدل على
 تمرنه على الزراعة .

وبعد ذلك أخذ من الصرة أزهاراً طبيعية وشك عروقها بالأغراس الصناعية فباتت كأنها ثابتة .

كان الشفالييه بارداليان يرى هذا الغلام الصغير منهمكاً هذا الانهماك في زرع الأزهار على ضريح أمه فتأثر وأدمعت عيناه حزناً ، فسقطت دموعه على تراب ذلك القبر - قبر اليس دي ليكس ودي يانيكارولا .

فنظر الغلام إلى الشفالييه ورأى الدمع يحول في عينيه فدعا منه فقال له :
- إنك بكيت على قبر أمي ، فلا انساك ما حييت ... أتريد أن تذكر لي اسمك ؟

- إنني أدعى يا بني الشفالييه دي بارداليان .
- إن اسمك سيحفر هنا ورسمك سينقش هنا .
وقد أشار بيده إلى جبهته وإلى قلبه .
- أتريد أن أوصلك يا بني إلى الدير .
- كلا ، كلا فلا تخاف .

وفوق ذلك فاني أحب البقاء هنا إذ لي كثير من الأقوال أريد أن أقولها لأمي ، فدعني وحدي .
- إذا إلى اللقاء يا بني .

. إلى اللقاء يا شفالييه دي بارداليان .
عند ذلك تأبط بارداليان ذراع أبيه ، وبعد هنيهة كانا بعيدين عن تلك القرية ، وقد تركا فيها ذلك الغلام ينجي روح أمه .



أما الراهبان فانهما كانا ينتظران قرب باب القرية .
وقد لبثا نصف ساعة ثم رأيا جاك خارجاً منها ، فألقى تهيبوت بسرعة أوامره إلى لوبين .

فارتعد لوبين وقال له : أيجب أن أخطر أيضاً بالموت في ذلك المعترك ؟
— لا تخف ، فلا خطر عليك من شعب يعدونك من رجال الله وأهل
المعائب .

فتنهّد لوبين وقال له : لكن لماذا لا تبقى معي .
— لأنني مضطر إلى الرجوع إلى الدير بالفلام ، وفوق ذلك فقد جاءك المدد
فلا تجزع واسرع بالعمل فقد آن الأوان .

ثم أخذ بيد الفلام وقوارى عن الأنظار .
وعند ذلك دفا خمسون رجلاً من التربة ، وقد مروا بالراهب تهيبوت فأشار
اليهم بإشارة ، وأسرع ذاهباً بالفلام .
فتنهّد لوبين قائلاً : لو أرسلني هذا الاخ إلى فندق دفينير لمسا أسرع هذه
السرعة ، لكنه قذف بي إلى الهاوية ، وعرضني لرصاص هؤلاء المجانين وذهب
هو مطمئناً آمناً إلى الدير ..

لا بأس ، ولامت إذا قدر لي الموت فاني أموت موت الشهداء .
ثم دخل الى التربة وهو يتظاهر بأنه لم ير العصابة التي أتت لنجدة .
أما رجال العصابة فقد دخلوا في أفوه إلى التربة .
وقد ذهب لوبين قوياً إلى ضريح اليس دي ليكس فوقف عنده .

ولم يكذب ينظر الى الضريح حتى صاح فجأة صيحة المنذهل وقال :
— ماذا أرى ؟ أينبت من الشوك زهر !
ثم ركع قرب تلك الاشواك التي غرسها الفلام وجعل يصيح قائلاً :
عجيبة عجيبة ! ليتبارك اسم الله .
فردد الرجال الخمسون من وراءه قوله ..

وقال أحدهم : إن هذا لا يحتمل التصديق .
فأجابه آخر . ولكن الحقيقة ظاهرة ، ألا ترى الزهر فوق الاشواك
فقال لوبين تبارك اسم الله ما أكثر عجائبه .

فصاح الجميع قائلين : ليمت الهوكينوت .
وارتفع ضجيجهم وكثر صياحهم وصلى الراهب لوبين ورتل ترقبلاً كانوا
يشاركونه فيه .
فما مرت هنيهة حق انتشرت الإشاعة وأقبل جمهور كبير من الناس على
تلك التربة ، ففصت بهم رحباتها .
كل ذلك ولوبين واقف عند هذه الأزهار لا يدع أحداً يمسيها .
وبعد ذلك أخذ يحكي تلك الأزهار عن الأشواك فلم يبق زهرة .
ثم صلى عليها وحملها في يده .
فأحاط به عشرون رجلاً من أولئك الذين أشار اليهم الراهب تهييوت تلك
الإشارة حين انصرافه بالقلام ، وحملوا ذلك السكير لوبين الذي كانوا يلقبونه
بالقاب القداسة ، فطافوا به شوارع باريس والأزهار بيديه .
وسارت الجماهير في أروم ، فعادت أجراس الكنائس إلى دقها وعادت
البنادق إلى دويها ، وزاد تحمس الشعب بهذه العجيبة ، فجددوا المدحجة ،
وأعملوا القتل الذريع بالهوكينوت .
وهذه هي العجيبة التي اشتهرت يومها بعجيبة الشوك .

- ٣٤ -

غرام ييبو أيضاً

ولنعد الآن إلى بارداليان وابنه ، لقد تركنهما سائرين إلى السين ، بغية الوصول إلى قصر مونبورانسي ، وفي فيتهما أن يحتلبا الجسر لما يخشيانه من الزحام فلما بلغا الضفة ركبا قارباً ، واجتازا به إلى الضفة الثانية .

ولكنهما ما كادا يخرججان من تلك الجهات الهادئة المجاورة للقرية ، حتى لقيتهما الجماهير وامتزجا بالناس ، بالرغم عنهما ، فلم يستطيعا ان يتقدما ولا أن يتأخر .

وكانت هذه الجماهير سائرة إلى السوفر ، فرأى بارداليان وابنه مدفعين ضخمين ، أقبا على باب اللوفر ، وهو مقفل الأبواب كأنه في حالة حصار .

ثم وقف الناس في ساحة متسعة يتفرجون فيها على الرقص .

وقد استلفت الأنظار بين الراقصين رجل كان يراقص امرأة ، والناس من حوله يضحكون مبهجين .

ولم يكد بارداليان يستقر نظره على هذا الرجل الوحشي الراقص ، حتى ارتعدت فرائصه ، وجد الدم في عروقه ، وحسب نفسه حالماً دامه الكابوس .

ذلك انه رأى تلك المرأة مصفرة الوجه ، جامدة العينين ، يسقط رأسها قارة إلى اليمين وقارة إلى الشمال ، لان هذه الراقصة كانت جثة لا روح فيها .

وكان هذا الرجل الوحشي يراقص جثة امرأة من نساء الهوكينوت ، قتلها بيده الأثيمة . ثم لم يكن يكتف بذلك القتل الفظيع ، فجعل يراقصها ليضحك الناس .

فتراجع بارداليان وابنه مندعرين كي لا يريا هذا المنظر الهائل واغتنا فرصة وقوق الناس للتراجع .

ولكنهما لم يخلصا من ذلك الزحام حتى وقعا بزحام أشد ، بين جمهور عظيم كانوا يركضون ركضاً إلى جهة السين .

وذلك أنه أشيع بانهم اكتشفوا مكاناً تحت جبل سانت جنيفاف اختبأ فيه نحو مائة من الهوكينوت

فأسرع الشائرون متراكضين الى ذلك المكان .

واندفع بارداليان وابنه مع تيارهم .

وبعد هنيهة رأيا أنهما باقا عند مدخل الجسر ، ثم على الجسر ، ثم على الضفة الثانية من النهر .

وقد بلغا غايتها من اجتياز النهر بهذا الاتفاق .

وسارت الجماهير بطريق الشمال فسار بارداليان وابنه في الطريق المعاكسة وهما ينويان الذهاب إلى قصر موغورانسي .

وفيا هما سائران ، وقف الأب وضغط على ساعد الابن ، وقال له :
أنظر !! .

فدع الشفالييه ووضع يده على قبضة حسامه .

وقال الأب : هذا هو أورتييس ... هذا هو الكونت اسبرمونت قائد
حراس الدوق دامفيل ، عسكوي اللدود ، فلا شك ان الدوق يرود حول

قصر أخيه .
وعند ذلك رأيا امرأة من الهوكينوت تركض هالمة منذرة يطاردها
عشرة رجال يريدون قتلها .
وجعلت تلك الصبية تركض حتى وصلت إلى أورتيس . فركعت أمامه
وقالت له بلمهجة تقطع القلوب من الاشفاق .
- بربك ارحمني ولا تقتلني .
فابتسم أورتيس ابتسام الأبالة ورفع سوطاً علق في رأسه حبل رفيع ،
فلمس به كتف تلك المرأة .
ثم قرع به الهواء ، كما يفعل سائقو المركبات ، ونادى كلبة كبيرة
كانت معه .
فأصرعت الكلبة ولبت النداء .
وعاد أورتيس فلمس كتف المرأة بسوطه وقرع به الهواء وجعل يحرض
كلبته على المرأة .
وكانت تلك الكلبة قد فهمت قصد صاحبها حين سمعت صوت السوط ،
وأنت تبعد عن الفريسة .
فلما رأت سوط صاحبها ، قد لمس كتف تلك المرأة ، لم تعد في
حاجة إلى التحريض ، وهجمت على عنق تلك المنكودة ، هجوم الذئب
الجانمة .
فصرعتها وجعلت تنهش عنقها بأنيابها ، وقد انقطع صوت المرأة ، فلم
تعد تصيح .
كل ذلك وأورتيس يضحك معجباً بقوة الكلبة .
مر ذلك بسرعة عظيمة ، حتى ان بارداليان وابنه لم يستطيعا إدراك تلك
المنكودة وإنقاذها .
لكنهما مجبا هجوم الأسود وقد صاح بارداليان الأصغر صيحة دوى لها

ذلك المكان

فالتفت أورتييس ، وقد هالته هذه الصبيحة ، ففرح فرحاً وحشياً حين رأى بارداليان وأباه ، ورفع السوط كأنه يريد أن يرسل كلبته لاستقبالهما .

لكن الشغالييه انتفض على يديه انقضاض العقاب ، وانتزع منه ذلك السوط .

فانقلب صياح فرحه إلى صياح رعب .

أما الشغالييه فلأنه رفع السوط وهوى بحبله على وجه أورتييس .

فصفر الحبيل في الهواء ، وسقط على وجه ذلك النمر البشري ، فشق جلده .

ثم أعاد الكرة مرة ثانية فتأثت وهو يشب ويضربه بسوط الكلاب على وجهه حتى لم يعد يعرف له وجه لكثرة الجراح .

دام ذلك تحو نصف دقيقة ، كان أورتييس فيمسا مثل غريق داهمته المياه فلم يستطع تنفساً .

لكن هذه المياه كانت سيّاطاً من نار .

إلى أن بذل أورتييس جهداً عنيفاً فتمكن من الابتعاد لحظة عن سيّاط بارداليان واستنجد بـكلبته عليه .

لكنه قبل أن يتم كلامه سقط على الأرض صريعاً .

فان طبا هائلاً انقض عليه انقضاض الكواسر ، وصرعه فالتصاه على الأرض .

وكان هذا الكلب عشيق بروسبرين كلبه أورتييس ، وقد تبعهما من منزل الدوق دامفيل إذ لم يطق فراقها .

وهذا الكلب الماشق المفرم المفتون ، نسي غرامه حين رأى بارداليان ، كما نسي من قبل بارداليان حين رأى بروسبرين ، فإنه كان « يبيو »

كلب بارداليان .
 وكان أورتييس قد خارت قواه لما ناله من سياط بارداليان ، فأجهز عليه
 بيبو وأنيابه ناشبة في عنقه حتى قارق الحياة .
 ولم يكن بارداليان وابنه قد رأيا شيئاً من ذلك المنظر المفجع
 فلما السخبة شملت بهجومها الشفالييه وأبيه .
 وقد هجمت في البدء على الشفالييه فماجلاها بارداليان الأكبر بطعنة خنجر
 قتلتها في الحال .
 وعند ذلك نظرا إلى ما حواليهما فرأيا بيبو يرقص أمامهما ويثب وهو يكاد
 يحن سروراً .
 وقد مرت هذه الحادثة بسرعة غريبة ، قبل ان يتمكن رفاق أورتييس
 من تجددته .
 وهم أولئك الذين كانوا يطاردون المرأة ، وقد سبقتهم شوطاً بعيداً لسرعة
 عدوها إلى ان التقت بأورتييس فلقبت حتفها .
 لما وصل أولئك الرفاق وقفوا حوالى بارداليان وابنه وهم يندرون ويتوعدون
 دون أن يحسروا على الدنو من الأسدين
 فقال له أبوه : هلم بنا .
 فمشى بارداليان مع أبيه وهو يهز السوط بيده .
 وكانا يسيران بلاء العظمة والكبرياء وقد اتقدت عيونهما بلهب من نار ،
 وشعرا أنهما أعظم من أبناء الانسان .
 فتبعهما رفاق أورتييس على حذر فكانوا كلما دنوا منهما رجع البطلان فمحلا
 عليهم حملة منكورة حتى يتفارقوا .
 فيعود البطلان الى المسير ، ويعود أولئك الجبناء الى المسير في
 أثرهما ، وكانوا كلما توغلوا في الشارع ، ينضم اليهم فريق من الناس .
 حتى شعر الأب وابنه ، ان الناس قد تكاثروا عليهما ، وأب الخطر

بات أكيداً .
 فأسرعاً الخطى ، وكان يديو بحمي ظهرهما ، وقد أصيب بجراح كثيرة
 تلقاها صابراً ، راضياً ان يكون فداء مولاة . لكنسه لم يأسف إلا على
 تلك العشيقة .
 وكان الشفالييه باردالبيان يضرب بسوطه ، فيمنع أولئك الجبناء من
 الدنو منه .
 وباردالبيان الأكبر ، يظعن بسيفه الطويل ، كل من تجاسر على الدنو .
 وما زالا يجاهدان هذا الجهاد ، وهما يركضان كلما تمكنا لحظة من تفريق
 الناس ، حتى وصلا الى زقاق ضيق فوجلا فيه مسرعين .

- ٣٥ -

بين الأرض والسماء

دخل الشفالييه في البدء الى هذا الزقاق وهو لا يعلم أين يسير .
 وتبعه أبوه وهو يحمل في يناه سيفه وفي يصره الخنجر .
 وتلاهما بييو وهو يتقدمهما قارة فيشب عليهما فرحاً جذاً ويندفع الى وراءهما
 مرة ليدافع عنهما .
 وفي أثرهما أولئك الثوار ، وقد كثر عيودهم ، وزادت جرأتهم ،
 وارتفعت صيحاتهم ، بحيث لم يجد البطلان بداً ، من مقاسلتهم
 وجهاً لوجه .

فتمحو لا اليهم وجعلا يقاتلهم قتال اليأس في ذلك الزقاق الضيق ، وهما يتراجعا في كل حين .

وكان سوط الشفالييه يلعلع في الهواء ، ويعمل في وجوه اولئك الهاجمين فوق ما تعمله السيوف ، فلا يسمع غير الأنين والتوجع وصياح الذعر .

خلفا لسيف أبيه ، فلم يكن يسمع غير صوته ، فإنه كان يطمئن به الرجل فينقلب على الأرض صريعاً مخضباً بدمه دون أن يفوه بحرف ، وتشغل جثته الهاجمين لحظة عن التقدم ، فيغتم البطلان هذه الفرصة ويتراجعا إلى الوراء .

كل ذلك وهما لا يعلمان أين هما ، وكيف يسيران ، فقد شغلتهما تلك المعركة الهائلة عن البحث عن المكان .

وفيا هما على ذلك من ورائهما سمعا دويًا هائلا أشد من هزيم الرعد .
وألا هذا الدوي صوت سقوط منزل يتهدم

وقد تصاعد الدخان والغبار وملاء ذلك الزقاق ، فكان ضبابا كثيفا حجب الفريقين وحال بينهما .

فاغتم بارداليان وأبوه هذه الفرصة أيضا وتراجعا مسرعين وهما لا يعلمان أيسيران إلى الحياة أم إلى الموت .

ولكنها رأيا أن الموت محتم بالتقدم ، وإنهما قد يجحدا بابا للفرج في التأخر .

فجعلا يركضان في ذلك الزقاق وقد أظلم بدخان البارود ، وغبار المنزل المتهدم .

حق وصلا إلى سلم عريض ، وهو قطعة من ذلك البيت الذي تهدم .

فصعدا إليه وهما كأنهما في حلم لا يعلمان إلى أين ينتهيان .

وقد أدركهما الناس ، ولكن لم يحسر أحد أن يتبعهما ، وأن يصعد على

ذلك السلم ، وهم يعلمون انه من ذلك القصر الذي لقم ونسفه البارود .

وما زالا يصعدان فيه حتى انتهيا إلى آخره .
وهناك لم يجدا شيئا سوى ان هذا السلم كان مستنداً إلى جدار وبقي
وحده واقفاً كما يتفق أحياناً في الحرائق .
وفيا هما واقفان على آخر درجة من درجاته لا يعملان ماذا يصنعان شعرا
بأن ذلك السلم هتز تحت أقدامهما .
فأيقنا أنه لا بد من سقوطه .
وقد اسودت الدنيا في عيني ذلك الأب إشفافاً على ولده وكاد يحن رعباً
عليه ، فإنه لا يسلم من خطر موت حتى يقع في خطر أفضح .
وكان قد اشتد الاهتزاز فأسرع الشفالييه وثباً إلى الجدار القائم عليه
السلم وامتطاه كما يمتطي الجواد .
فوثب أبوه وفعل فعله ..
وبعد ذلك سمعا دويّاً شديداً وانتشر الغبار فسد المناقس
ثم انقشع ذلك الغبار ، وإذا بالسلم قد تهدم وسقط .
ولو تأخر بارداليان لحظة عن الوثوب إلى الجدار لقتل مع أبيه شر قتيل
يسقوط السلم .
وعلى ذلك أصبح البطلان راكبين فوق الجدار وهما بين سماء تلبدت فيها
غيوم دخان البارود ، وغبار التهدم ، وبين أرض فرشت يحوث القتلى .
وعند ذلك جعل الشفالييه ينظر إلى ما تحت ذلك الحائط .
ولم يكن ينظر من الجهة التي سقط فيها السلم فإنه أشفق أن يرى مطارديه
تحت الردم .
ولكنه كان ينظر من الجهة الأخرى .
أي من تلك الجهة التي لغم منها القصر وتهدم قبل سقوط السلم .
وفيا هو ينظر انقبضت نفسه وارتجفت شفتاه واتقدت عيناه بهمسارق
يأس وحشي .

ذلك انه رأى في ردهة ذلك القصر المتهدم ساحة عظيمة غصاصة يجثث القتلى ، وبما سقط من الحجارة والأخشاب .

وبالقرب من تلك الجثث جمهور من الرجال المدججين بالسلاح يهجمون على الباب الأكبر المتهدم .

ولم يبق من أولئك المدافعين عن القصر غير ثلاثة رجال يدافعون دفاع المستميت والسيوف مشهورة بأيديهم .

وفي طليعة أولئك الثلاثة رجل عرفه بارديليان ، فإنه كان المارشال فرنسوا دي مونمورانسي .

وكان الذي يهاجمه أخوه الدوق هنري دي دمفيل .
وقد التقى الأخوان أخيراً بعد تلك الأعوام التي مرت بهما من عهد قتالهما في مارجنسي .

وكان هذا القصر الذي نسف وتهدم قصر المارشال فرنسوا .

فلما رأى الشفالييه المارشال في هذا الموقف صاح صياح ارتجت لها تلك الجهات ، لأنه رأى حبيبته لويزا واقفة وراء أبيها وهي محولة الشعر ترتجف من الرعب .

- ٣٦ -

كما حدث في تيرنوا

لنذكر الآن كيف كان اللقاء هذين الأخوين .
كان الدوق هنري أول من زحف يحنوده ، حين دق جرس سانت جرمين
الدقة الأولى .
كان يسير يجيشه بانتظام وببطء .

وإنما نقول يجيشه ، لأن هنري كان قد تأهب لكل طارئ ، وتوقع كل
ما يمكن حدوثه ، وعلم أن أخاه متأهب ، وأنه حصن قصره ، وجعله
كالحصون ، فسار إليه بكل رجاله كأنه سائر إلى حرب .

وكان جيشه هذا مؤلفاً من حاشيته ، وهم أربعون رجلاً من الأشراف ،
ومن ثلاثمائة فارس وخمسمائة رجل .

وكان يسير وراءهم ثلاث مركبات وضعت عليها براميل البارود ، ووراء
تلك المركبات مئتا رجل من حملة البنادق .

وقد اجتمعوا كلهم في الليل حول منزل الدوق هنري ، قرب باب
مونمارتر .

فلما بدأ الزحف إلى قصر المارشال فرنسوا ، عهد هنري بقيادة رجاله إلى
أحد قواده ، وأمره أن يسير بهم سيراً بطيئاً .

ثم انسحب بثلاثين فارساً ، وسارت بهم الخيل تعدو خبيماً .

وكان هنري مقطب الجبين منقبض النفس ، لم يظهر شيئاً من ذلك السرور الذي كان يظهره رجال المذبحة حين دقت الأجراس .

بل إنه لم يكن يحض الناس على القتل كما كان يفعل سواء من الأسياد ، ولم يحفل بأنوار المشاعل ، أو عثم بدوي البارود . وعلى الجملة فإنه كان غير مكترث لهذه المذبحة ، وسواء أقتسل الهوكينوت ، أم لبثوا في بيوتهم آمنين .

غير أنه كان يدفع - بواده بسرعة فيدوس الناس ولا يبالي بصياحهم . ولم يكن يتمثل له في خلال تلك الفظائع التي تجري حوله غير خيال امرأة ، وهذه المرأة هي حنة امرأة أخيه . وبعد هنية وصل بفرسانه إلى قصر مسيم فترجل عن جواده ودنا من باب القصر وقال :

- أي فرنسوا مونجورانسي .. أنت الذي وضع قفازه على هذا الباب ؟ ثم ضرب ذلك القفاز بسيفه .

وكانت الصيحات قد ارتفعت في كل مكان من باريس ، ودوت البنادق وأضاءت المشاعل .

ولكن فرسان هنري لم يلتفتوا إلى ورائهم لشدة اندهالهم مما رأوه فشفلوا عن ذلك كله بالنظر إلى مولاهم .

أما دامفيل فإنه ضرب القفاز ضربة أخرى وقال :

- أين أنت يا فرنسوا دي مونجورانسي .. ولماذا لا تكون حاضراً حين ارفع قفازك واجلد به الأرض .

ثم انتزع القفاز من موضعه ووقف عند ذلك الباب ينتظر ، وقد ضم يديه إلى صدره .

وقد صبر دقيقة ثم قال .

- ايها الجبان إنك لم تحضر ساعة إهانة قفازك ولم تجسر على الهجيء إلي ،

فأنا أذهب اليك .

وعند ذلك امتطى جواده وسار في طليعة فرسانه ، فسالتحق بجيشه وأدركه قبل أن يصل .

* * *

أما المارشال فرنسوا دي مونمورانسي فقد كان ملازماً الحياض في جميع ما حدث من الدسائس والمؤامرات كما تقدم في الأجزاء السابقة .

فكان دي كيز مرقاباً به والملكة تكرمه وقد ابتعد عن البلاط وامتنع عن الاختلاط بأهله ، فلم يعلم ما كانوا يدبرونه بشأن هذه المذبحة الكبرى .

ولو اففق انه علم فلم يكن يخطر في باله انهم يحسرون على مهاجمة رجل من أسرة مونمورانسي .

وذلك ان المارشال فرنسوا لم يكن فقط ابن أمير الجيوش الأعظم ، ذلك الذي خدم عرش أسرة فالوا أجل خدمة يذكرها التاريخ .. ولم يكن فقط رئيس حزب النبلاء ، الذي كان شديد الحول والطول في ذلك العهد ، بل كان أيضاً كاثوليكياً معروفاً بغيرته على الكاثوليكية عند الفرنسيين ، فقد حارب الهوكينوت في عهد أبيه .

وبما لا ريب فيه ان مبادئه قد اختلفت بعد موت أبيه ، فبات يكره قتل الناس باسم الدين .

ولكنه بقي محافظاً على مذهبه غيوراً عليه .

ثم إنه قد اتفق له انه دافع أحياناً عن الهوكينوت في مواقف الجدل .

لكن وفاءه لأسرة فالوا المالكة لم يشبه شائبة ، وقد تقدم برهان ذلك من حديثه مع ملك النافار ، كما يذكر القاري .

وعلى الجملة ، فإن جميع المعتدلين في المملكة الذين يودون إطلاق حرية

الضمير . ويدعون الهوكينوت يدينون بالدين الذين يريدونه ، كانوا يعتبرون
المارشال فرنسوا دي مونجورانسي زعيماً لحزبهم ، قائداً لأفكارهم .
لكنهم لم يفعلوا شيئاً يدل على سوء القصد .
لذلك كان المارشال يعلم إن أضداد الهوكينوت يراقبون به ، لكن لا يخطر
في باله انهم يذبحونه كما يذبحون الهوكينوت

ومع ذلك فإنه حين علم بأن أبواب باريس مقفلة وأنه لم يؤذن له بالخروج
منها حسب ان هذه التأهبات قد اتخذت من أجله خصيصاً ، وإنهم يريدون به
سوءاً ولكنه لم يعرف هذا سوء .
ف رأى من باب الحكمة أن يحصن قصره .

وكان رجال حاشيته مؤلفين من اثني عشر كاثوليكياً والباقيون من
الهوكينوت .

وكانوا جميعهم مخلصين للعرش كل الاخلاص ، ولكنهم كانوا جميعهم
على مبدأ واحد أيضاً ، وهو كره الحروب الدينيّة واعتبارها من
الأعمال الوحشية .

وكان عدد حاشيته اربعين فاذا أضيف اليهم الخدم والجنود بلغوا نحو ثمانين ،
وقد سلعهم جميعهم بما كان لديه من الاسلحة الكثيرة المختلفة .

فلما أتم تسليمهم واستعرضهم جعل يبتسم لاعتقاده انه قد بالغ في هذا
الاحتياط الذي لا فائدة فيه .

ثم علم بعد ذلك باحتجاب بارداليان وابيه فخامرته الهواجس وعارده
القلق لا سيما وأنه لم يجد سبيلاً لمعرفة مكانيهما .
فزاد تيقظه منذ ذلك العهد وبات قصره يشبه الحصون المنيعه .

وكانت لويزا مقيمة خلال هذه الأيام مع امها .
وأما امها فقد بقي جنونها على ما كان عليه دون تغيير ، أي انها كانت
دائماً تبتسم ابتسام الرضى وتحسب نفسها لا تزال في منزل ابنيها في مرجسي .

فكانت لويزا تسمعها من حين إلى حين تناجي نفسها قائلة :
هوذا قد حضر .. لا بد لي أن اعترف له بذلك السر ... أواه اني
اضطرب .

وانما كانت تناجي فرنسوا بهذه الأقوال .
ولكنها حين كانت يدخل فرنسوا منقبض الصدر إلى تلك المرأة التي
طالما أحبها ولا يزال يحبها كانت تنظر إليه نظرات المنذهل كأنها لا تعرفه
ولم تره من قبل .

وأما لويزا فقد كان شقاؤها عظيمًا لاحتجاج بارداليان .
ولكنها لم تكن تظهر شيئًا من هذا الشقاء وتصرف كل اهتمامها إلى
العناية بأمها .

ففي مساء السبت كانت جالسة بقرب أمها تشتغل بالتطريز .
فتوقفت يداها عن العمل فجأة ونظرت إلى أمها لأن حنة كانت شاخصة
الطرف في تلك الغرفة كأنها تنظر إلى شيء معين .

ثم وقفت ومبت يديها قائلة .. اني أراه .. هذا هو .. أواه متى يحضر ..
فارتعشت لويزا كأنما أمها كانت تعبر عن افكارها فوضعت يديها على عينيها
وجعلت تبكي .

فقالت الأم وهي تناجي فرنسوا . انه سيحضر .
وقالت البنت وهي تناجي بارداليان . ترى أين هو الآن ؟
ودخل المارشال في تلك اللحظة ورأى ذلك المنظر المؤثر فضم الأم وابنتها
إلى صدره بملء الحنو .

وقد لبثت حنة تبسم ولويزا تبكي وكلماتهما تفنكران بأمر واحد وتشتغلان
بسؤال واحد فتقولان :
أين هو ؟ متى يحضر ؟ ..

* * *

في الساعة الثانية بعد انتصاف تلك الليلة كان جميع من في ذلك القصر نياماً ما خلا حراسه .

وكان السكون سائداً ولويزا وامها نائمتان في غرفة واحدة . وكانت الأم نائمة نوماً ساكناً هادئاً لا يشغلها شغل بعد ذهاب عقلها . وكانت لويزا نائمة نوم المتأرق لا تلبث أن تغفو حق تستفيق . أما المارشال فكان قد دخل إلى غرفته في الساعة العاشرة حسب عادته .

ولا بد لنا هنا من وصف قصر المارشال الذي كان مبنيّاً على نسق القصور الكبرى في ذلك العهد .

فقد كان يفصل ردهته المبلطة عن الشارع ، جدار عظيم فيه باب ضخمة وباب أصغر .

وكان على يسار الردهة بناية مرتفعة يقيم فيها الخفراء ورجال الاسطيل .

وتحت هذه البناية طابقان ومستودع للحبوب .

وأمام الردهة مكان البواب وعلى يمينها بناية أخرى عظيمة تقيم فيها حاشية المارشال .

وفي اعلاها غرف الخدم والطباخين وسوام .

وبين هاتين البنايتين في آخر الردهة يوجد القصر وهو متصل بهما بعض الاتصال .

وقد خصص الدور الأول منه لقاعات الاستقبال والدور الثاني لاقامة المارشال .

فلما دق جرس سانت جرمين دقته الأولى صعد المارشال من رقاده فلبس ثيابه وتدرع وتقلد حسامه وتسليح بخنجره .

ثم ذهب إلى النافذة فرأى النجوم قد مالت إلى الاصفرار وسمع ضجيجاً من قلب باريس .

ثم زاد ذلك الضجيج وكثرت اصوات الأجراس وارتفعت اصوات الناس ،

فدعر لهذه الاصوات وقطب حاجبيه وأيقن أن الأمر جلل .
وعند ذلك اسرع الى الغرفة التي تنام فيها حنة وابقتها .
فوجد أن لوبزا قد صحت مثله حين سمعت الدقة الاولى فلبست ثيابها
وجعلت تعين امها على لبس ملابسها .

فبادرها المارشال بقوله : لا تخافي يا ابنتي .
- لم أخف يا أبي ، ولكن ما هذا الاجراس ، وما هذه الصيحات
التي اسمعها ؟

- سأعلم قريباً يا ابنتي فالبسني ملابس السفر وكوفي متأهبة مع امك
للرحيل .
ثم عانق الأم وبنتها وخرج من غرفتهما وكانت الساعة قد بلغت الثالثة
ونصف .

وقد وجد رجاله مجتمعين في زدهة القصر متأهبين للطوارئ منذعرين
بما كانوا يسمعون .

فقال له أحدهم وهو من الهوكينوت :
- أظن يا مولاي انهم يهاجمون اللوفر ، ويجب ان تسرع لمساعدة الملك .
إسمع يا مولاي ، إنهم يتضاربون في اللوفر .

فهز المارشال رأسه وقد ظهرت عليه علائم القلق فقال :
- كلا انهم لا يهاجمون اللوفر بمثل هذا الضجيج ، فإن دي كيز لا ينهج
هذا المنهج في قتاله ، لكن ما عسى يكون هذا القتال ؟ إذهب أنت وسانت
مرتين واستكشفا لنا الخبر .

فأسرع الرجلان وخرجا إلى الشارع .
وقد عادا نحو الساعة الرابعة .
ولا شك انهما لقيا ما يحمل على الرعب ، لأن إضطرابهما كان عظيماً ،
لأن الدم كان يسيل من كتف أحدهما ، ومزقت ملابس الآخر .

فصاح سائت مرتين قائلاً :
- مولاي إنهم يقتلون الهوكينوت ، مولاي إن القتل قائم في كل
مكان .

ثم سقط مغماً عليه لفرط ما نزل من دمائه .
أوقال الهوكينوتي :
- مولاي ، إنهم يقتلون إخواني في اللوفر ، وفي المنازل والشوارع ،
وكل مكان ، ولا يفرقون بين الرجال والنساء والأطفال .. مولاي لنتخذ
هؤلاء الأبرياء .

فأجابه المارشال بلمجة خطيرة : سنذهب لمساعدة إخوانك ، فهم إخواننا
أيضاً بالإنسانية .
ثم صاح برجاله قائلاً : هلموا إلى الجياد .

فوثبوا كلهم مسرعين إلى جيادهم ، كأنهم رجل واحد ، فقال لهم
المارشال :

- إننا سنحاول المستحيل ، أي إننا سنذهب إلى اللوفر ، فأقابل الملك
وأسأله إيقاف المذبحة فإذا أبى فلا يكون بعد ذلك إلا القتال .
فصاحوا جميعهم بصوت واحد :

- إلى القتال .. إلى اللوفر !
فقال المارشال : افتحوا الباب الأكبر .
ففتح للرجال مصراعاً الباب .
وعند ذلك ظهر لهم جمهور عظيم من الفرسان وغيرهم من المقاتلين وكلهم
يصيحون قائلين :

... إلى القتال ، إلى النهب !
فنتفب الهوكينوتي شعره وقال : لقد فات الأوان .
وقال فرنسوا : هوذا أخبي في طليعة أولئك السفاكين .. لقد لقيته أخيراً

وسنجتمع كما اجتمعنا في غابات مرجسي .

ثم صاح بصوت هائل قائلاً :

— هنري .. هنري .. الريل لك أيها الشقي !

وعند ذلك أقفل الحراس الباب الأكبر .

فأمر فرنسوا رجاله أن يترجلوا عن جيادهم ، وأوقفهم في مواقف القتال على نسبة درجاتهم ، كما كان يفعل في حصار تيرفوان .

وهجم رجال أخيه على الباب يحاولون كسره .

ثم سكنت حركاتهم ، وسمع فرنسوا من خلف الباب صوت أخيه يقول :

— أيها الجبان اني نزع قفازك عن باب منزلي فأين أنت الآن لأصفعك بهذا القفاز .

فزار فرنسوا زئير الأسود وقال : افتحوا الباب .

وكان واقفاً في مرتفع كي يستطيع الاشراف على المعركة وإصدار الأوامر إلى المقاتلين .

أما أمره بفتح الباب ولقاء هذا الجيش الزاخر ، فقد كان جرأة نادرة ، لكنه لم يجد بداً منها .

فلما فتح الباب صاح قائلاً :

— ليطلق الصف الأول النار !

فأطلق الصف الأول ناره من عشر بنادقيات ، إذ كان عدد رجاله عشرة ورجعوا إلى الوراء كي يحشوا بنادقهم .

فحل محلهم الصف الثاني ، فأمرهم فرنسوا بإطلاق النار .

ثم أمر الصف الثالث فالرابع .

فهرب بعض رجال دامفيل من ذلك المكان الذي دخل منه بارداليان

وإبنه ، وقد قتل منهم ثلاثون رجلاً وانطرحت جثثهم قرب الباب .

وقد ازدحم الناس عند الباب ، وكانوا خليطاً من المقاتلين والمتفرجين .

فترجل هنري عن جواده وهو يكاد يجن من الغضب ، مهدداً القصر
بقبضتيه .

أما فرنسوا فإنه امر بعد تلك المعركة الأولى بإقفال الباب .

على ان هنري لم يلبث ان هادت اليه سكينته ، وأخذ يهجم بأعداد
هجومه ثانية .

فأمر فرسانه بالترجل عن جيادهم ، فامتثلوا وارسلوا تلك الجياد إلى
ضفة السين .

ثم أبعاد عن القصر جماعة المتفرجين ووقف مع حاشيته يتداولون .

وقد حدثت هذه الحوادث بمدة ساعة ، وعندما أعد هنري معدات الهجوم
الثاني ، كانت الشمس قد تماثلت في كبد السماء .

وكانت صيحات الناس في باريس تترج بأصوات الأجراس فتصل إلى آذان
هنري فيعض شفته من القهر ويقول : ان جميع الناس يقتلون ويحرقون ، وأنا
لم أفعل شيئاً بعد .

وعند ذلك أصدر أوامره بالبدء في العمل .

وقد كانت خطته واحدة ، وهي كسر الباب ، والتمكن من الدخول
إلى القصر .

ولكنه اضطر إلى تغيير الآلات التي استخدمها لكسر الباب .

فقد استعمل في الهجوم الأول الأخشاب الغليظة فوجد أنها لا تفيد في
كسر ذلك الباب لضخامته .

فوضع قربة سداً مزدوجاً من الخشب الصلب ودعمه بالعواميد الغليظة ،
وجاءوا من عند حداد قريب ببكرتين ترفع بهما الاثقال فوضعوهما في اعلى
السلمين من الداخل ، ثم جاءوا بثلاث مطارق من الحديد شديدة الثقل ،
فربطوها بسلاسل طويلة من الحديد .

وفي الوقت نفسه كان جماعة يشتغلون بنقب الجدار ، فنقبوه ووضعوا فيه

برميلاً من البارود .

وقد صف دامفيل رجاله على اليمين وعلى اليسار ، ثم أمرهم بالإسراع بالهجوم حين يفتح منفذ في الباب .
وكانت الشمس قد توسّطت في قبة الفلك ، فقد اقتضى لهم زمن طويل لنقل هذه المعدات ووضعها في أماكنها .

ثم ساد الحسوت بين جميع الحضور ، فنظر دامفيل إلى رجاله نظرة الفاحص ، فرأى أنهم على تمام التأهب ، فرفع يديه إشارة إلى الأذن بالبدء في العمل .

عند ذلك أخذ عشرة رجال تلك المطارق الفليضة الحديدية ، وابتعدوا بها بقدر ما يسمح طول السلاسل ، ثم افلتوها فاندفعت تهوي إلى باب القصر فخرج لها دوي شديد .

وهم الرجال بالهجوم لوثوقهم أن هذه المطارق ستعظم الباب .

لكنهم رأوا أن الباب لبث مغلقاً ، فلم يتخطم ولم يفتح كما كانوا يعتقدون .

فشم هنري شتماً قبيحاً ، فقد أيقن أن أخاه وضع المتاريس وراء الباب بينما كان هنري مهتماً بنقل الآلات .

وكرر الشتم واللعن وقال : إني لا أبرح هذا المكان ولو اضطررت إلى البقاء فيه عاماً ، ونسف الشارع يحملته .

عند ذلك ضرب جبينه بيده كمن خطر له خاطر سريع فبرقت أسرته بأشعة الفرح ، ونادى أورثيس .

فأجابه رجل من كانوا حوله قائلاً :

— إن الفيكونت يرن كلابه يا مولاي .

وأجابه آخر : إن كلابه جائعة .

فابتسم هنري ابتساماً يدل على أنه فهم غاية دامفيل من تمرين كلابه ،

ونادى رجلاً من أعوانه يدعى سوفال ، فقال له مشيراً إلى مكانين .

— ضع برميلاً من البارود هنا وبرميلاً هناك ، أفهمت ؟

— نعم ..

وانصرف الرجل فوضع البرميلين في المكانين الذين عينهما .

فوضع هنري بنفسه الفتيل بالبرميلين وأشعلهما بيده الأثيمة ، ثم ابتعد .
فما مضى نصف دقيقة حتى انفجر البارود ، وتصاعد عمودان من اللهب
إلى الجو ، وتحطم باب القصر الكبير ، وما كان خلفه من المتاريس .
فاندفع الجنود عند ذلك إندفاع السيل الجارف ، ودخلوا أفواجا إلى ردهة
قصر مونمورانسي .

وهنا بدأت المعركة الجهنمية ، ودوت البنادق كهزم الرعود .

ثم عمد الفريقان إلى الخناجر والسيوف فكانت معركة هائلة .

فدافع رجال مونمورانسي دفاع القناط المستميت ، وكان المهاجمون
يصبغون حياح الفوز ، وقد تراكم الناس من كل صوب طمعا بنهب ذلك
القصر العظيم .

فكانوا ينظرون إلى القتلى من الجانبين ، وهم يضحكون ، كأنما جردت
قلوبهم من الرحمة ، وذهبت منهم عواطف الانسانية .

وكان فرنسوا مونمورانسي يهجم هجمات الأسود ، ويبحث عن أخيه
هنري فلا يجده .

ذلك ان هنري كان متربصاً ينتظر الفرصة المناسبة .

وقد كان السيف يصعد ويهبط في يد فرنسوا ، فإذا صعد تراجع مهاجموه
منذعرين ، وإذا هبط عاد مخضباً بدم قتيل .

وطال ذلك الدفاع ، فقد سقط حوله خمسة عشر قتيلاً ، فسكر بنجرة
البأس والتحمس ، فحسب نفسه في حصار تيرنوا .

فإن موقفه في هذه المعركة كان كموقفه في ذلك الحصار ، فكانت فعله

فيهما متشابهاً .

فإنه كان يضرب الضربة تلو الضربة ، وكلما قتل خصماً جاء بدلاً منه خصمان حتى تمكن منه القنوط ، ورأى أنه سيسقط صريعاً كما سقط هناك فقال كما قال في ذلك الحصار الوداع يا حنة !

وبعد أن قال كلمة الوداع صاح صبيحة هائلة ، واليك ما رآه .
انه وجد نفسه عند سلم قصره ، ورأى مائة فارس قد هجموا مع المهاجمين ولم يكن باقياً غير عشرة من رجاله ، فصعد الى السلم ، وهجم المهاجمون فلم يبق من رجاله غير خمسة .

وعند ذلك سمع دويًا هائلاً ، ورأى ان البناية اليمنى قد تهدمت بالانفجار فسقطت على من كان فيها من المدافعين .

فضحك فرنسوا ضحك القانطين قائلاً : يجب أن أموت هنا .
ثم نظر نظرة سريعة الى الورا فرأى ابنته لويزا راكضة اليه وبيدها خنجر مجرد .

فهزت الخنجر بيدها قائلة لأبيها : سوف ترى يا أبي كيف تموت ابنة مونغورانسي .

فقال لها أبوها .. امك .. أسرعى الى أمك .

ثم التفت فرأى أخاه هنري أمامه ..
عند ذلك صاح تلك الصبيحة الهائلة .

- ٣٧ -

البطلان

كان المارشال واقفاً على السلم ، ووراءه ابنته .
 وقد رأى في القاعة المجاورة للسلم امرأة جالسة على كرسي وهي تنظر
 الى ما يجري حولها من الأحوال وتبتسم .
 وبالقرب منه اثنان من رجاله ، وهما كل من بقي من اولئك الأبطال .
 وفي آخر السلم كان أخوه هنري واقفاً ينظر اليه نظرات الأفاعي ، وفي
 يده سيف طويل ، وهو يفرق الناس من حوله قائلاً :
 - دعوا هذا الرجل فهو لي .
 وقد وقف خلف هنري جمهور عظيم من الفرسان والمشاة ، وهم ينذرون
 ويشتمون .
 فصاح المارشال صيحة منكورة ، وقد اقتعدت عيناه ببارق الانتقام فهجم
 عليه نحو مائة رجل بالخنجر .
 ولكن دامفيل أوقفهم عن الهجوم بإشارة وهو يقول :
 - اني أريده حياً لاميته كما أريد .
 وعند ذلك ضربه فرنسوا بحسامه الطويل ضربة هائلة .
 فخلا دامفيل من الضربة ، وسقط السيف على بلاط السلم فانكسر ، ولم
 يبق بيد فرنسوا منه غير قطعة تشبه الخنجر الطويل .

فنظر فرنسوا إلى السماء نظرة القانط .

ونظر إليه أخوه نظرة الشامت فقال :

... ودع الحياة يا أخي فقد بت في قبضة يدي ، واذكر إنك ائتمنتني على
حنه دي بيانس ، فثقت انها ستكون في خير منزلة .
فلما رأى فرنسوا انه بات أعزلاً ، وسمع اكلام أخيه رجع وثباً إلى القاعة
التي كانت وراءه ، فقم إلى صدره إمرأته وابنته وقال مخاطباً اخاه : إنك لا
تناالنا إلا جثثاً باردة أيها السافل .
ثم انتزع الخنجر من يد ابنته وهو يقول :

- الوداع ، فإننا سنموت معاً .

وقد رفع الخنجر بيده وهم أن يقتل به إمرأته وابنته ثم يقتل نفسه .
لكنه سمع في تلك اللحظة ، ضجيجاً عند السلم ، وصوت هبوط ثلاثة
أصوات ...
فأوقف يده عن الضرب والتفت إلى الجهة التي كان فيها أخوه فلم يره ،
فانه كان قد وثب عن السلم صاخباً لاعناً وهرب إلى الشارع .
كذلك جميع من كان في ردهة القصر ، فانهم كانوا يهربون مندعرين يزحم
بعضهم بعضاً ليفوزوا بالهرب .

فأمرع المارشال إلى السلم ليرى ما حدث ، وهذا بيان ما اتفق .
إنه لم يبق قائماً من بنايات قصر مونغورانسي بعد انفجار اللغوم غير ذلك
الجدار العالي الضخم الذي كان عليه بارداليان وابنه .

فبينما كان المارشال يهم يقتل إمرأته وابنته ونفسه ، وبينما كان دامفيل يهم
أن يلحق بأخيه إلى القاعة .
وبينما كان الناس في الردهة ، ينتظرون أن تنتهي المعركة بين الأخوان
لينهبوا القصر .

بينما كان كل ذلك يجري سقط قسم من ذلك الجدار الطويل المريض على

اولئك الناس فقتل منهم نحو عشرة .
ولم يكن ذلك السقوط من الانفجار ، فان من نظر إلى أعلى ذلك الجدار
يحد من خلال الغبار ، رجلين واقفين في زاويتين عريضتين من زوايا الجدار ،
وهما يصعدان ويتزلان ، ويقومان ويقعدان ، ويتقدمان ويتأخران .

فلما تساقط قسم من حجارة ذلك الجدار الضخمة ، تسلا ذلك السقوط ،
سقوط ثان ، ثم ثالث فرباع وهلم جرا ، إلى أن باتت تلك الحجارة الضخمة
تتساقط على الناس تساقط الأمطار فتفتك بهم الفتك الذريع .

فصاح الجميع صياح الذعر وجعلوا يهربون دون رشاد ، كما يهرب المجتمعون
في مرسح شبت فيه النار .

فما مضى نصف دقيقة حتى خلعت الردهة من الناس ، ولم يبق فيها غير
جثث القتلى ، وقد تبادر إلى أذهانهم ان الجدار لنم .

وفوق ذلك الجدار كان بارداليان وابنه يضحكان ضحكاً هائلاً يلقي
الرعب في القلوب .

كان هذا الجدار الواقف عليه بارداليان وابنه مرتفعاً عن البناية التي يقيم
فيها المارشال ، بحيث يمكن النزول منه إلى سقف تلك البناية ، ومن
السقف إليها .

وهذا الذي لاحظته بارداليان الأكبر لأول وهله ..
أي حين تركا ذلك السلم وصعدا إلى الجدار ، وعلما انه جدار قصير
مونغورانسى ..

وقد عرض هذا الحاضر على ولده .

لكن الشفالييه هز رأسه وأشار بيده إلى المارشال وابنته فقال :
- إنها إذا ماتت القيت بنفسي من فوق هذا الجدار على رأسي كما يلقي
السابح نفسه في البحر .

فارتد أبوه وقال : يا للهول ، أتحارب أهل باريس يحملتهم ، وتنجو من

ضغط الآلة ، وتسلم من الموت على اختلاف أشكاله ، وتزرع الرعب في جميع القلوب ، ثم تأتي لتموت هنا .

فضم الشفالييه يديه إلى صدره ، وضرب برجله ذلك الجدار المتزعزع من تأثير الانفجار .

فانفصلت قطعة من أحجاره وسقطت على رؤوس الناس المجتمعين في الردهة فألقت الذعر في نفوسهم .

فسر بارداليان الأكبر لما رآه وقال : إن هذه الحجارة خير من المدافع .
— إذا لم بنا نلقها عليهم .

فالحفى الاثنان وجعلا يستعينا على خلع حجارة الجدار بخناجرهما وأيديهما وأرجلهما ، فمتساقط على الناس كمرشاش المطر ، وتفتك بهم الفتك الذريع .

وعندما أيقنا من نجاح العمل ، لم يعودا ينظران إلى الناس ، وجعل كل منهما يشتغل في جهة ، فيلقيان الحجارة من ذلك الجدار قطعة قطعة ، وما يعرضان نفسيهما لأشد الأخطار .

فان زلت قدمه منها إلى المكان المتهدم ، سقط مع ما يستعمله ، وليس بعد سقوطه غير الموت .

لكنهما كانا يعملان بملء الحذر والتأني ، وكان الحائط عريضاً يعينها على الثبات ..

فلما التقيا ودعا كل منهما من الآخر ، نظرا إلى الردهة فوجداها قد خلت من الناس ..

ورأيا ذلك الجدار بات يشبه السلم لكثرة ما حدث فيه من التعاريج بعد التهدم .

فقال الأب لابنه : هلم نزل الآن فقد خلت الردهة من الناس .

فأجابه الشفالييه ضاحكاً : هلم بنا .

وكان وجهاهما قد اسودا من القبار ، وأيديهما قد احمرت من الدم ،
وثنيهما قد تمزقت ، وهما يضحكان ضحك المجانين دون أن يعلما السبب في
هذا الضحك .

وعند ذلك دوت في الفضاء رصاصة بندقية أصابت قبعة الشفالييه
وأطارتها عن رأسه .

فأجاب الشفالييه ضاحكاً : اني لا أحييم برفع قبعتي بل هي التي تحييم .
ثم توالى إطلاق الرصاص عليهما من الشارع ، فكان الرصاص يتساقط
حولهما دون أن يصيبهما بأذى .

فقال الشفالييه لأبيه : أرى ان الهائلة تقضي علينا بتوديع هؤلاء الناس
فانهم يودعوننا بإطلاق الرصاص والهتاف .

ثم انحنى والقى قطعة كبيرة من الحائط إلى جهة الرواق الذي اجتمع
رجال دامفيل فيه وقال :

... أظن اني قتلت عشرين رجلاً منهم .

فقال أبوه : وأنا لا بد لي من مساواتك .

ثم فعل فعله ، فعلا صياح الناس من الخارج وكثر دوي البنادق .
وبعد دقيقة انقطع الدوي وحل محله ضحك بارداليان وإبنه .

فوضع دامفيل رأسه بين يديه وبكى من الغم والقهر .

وكان قد سقط من الجدار سبعة صفوف .

ونظر البطلان إلى ردهة القصر ، فلم يجد فيها احداً فأسرعا إلى الوثوب
من الجدار إلى سطح الباب ومنه إلى الردهة .

وقد سارا بين تلك الحثث ركضاً إلى السلم الذي كان المارشال واقفاً عليه
ودخلا منه إلى تلك القاعة .

وكان الشفالييه يركض أمام أبيه ، فأسرع اليه المارشال وعانقه بحنو لا
يوصف وهو يقول :

ولدي .. ولدي . إني لا انسى ما فعلت .
فنظر الشفالييه إلى ما حواليه ، فرأى حنة دي بيانس تبسّم مسترسلة إلى
قصورتها غير مدركة شيئاً مما حدث .

ورأى المارشال فرنسوا يبكي من الحنو .
ورأى حبيبته لويزا مصفرة الوجه تنظر اليه نظرات إعجاب لا توصف .
أما المارشال فلم يجد ما يعرب به عن إمتنانه ، إلا بمناداة بارداليان بصوت
يتهدج بالبكاء قائلاً : ولدي .

فشمم بارداليان بضعف عظيم ونظر الى لويزا ، ثم الى أبيها فقال :
... انك تدعوني يا مولاي بولدك .. ألا تخاف أن أخطىء فهم معنى
هذه الكلمة ؟

مارشال : . مارشال دي مونغورانسي اقدعوني أنا ولدك .
ففهم المارشال ما يخالج قلب هذا الأسد من الريب ، فالتفت الى لويزا وقال
لها : تولى عني إجابته يا إبنتي .

فاصفر وجه لويزا ، واغرورقت عيناها بالدمع ، ثم ظهرت هلائم الجذ على
وجهها الملائكي ، فمدت له يدها وقالت له :
- إنك خطيبي ، وهذا المنزل منزلك .

فاضطرب الشفالييه اضطراباً عظيماً وجثا على ركبتيه ، فأخذ بيده يدي
لويزا وجعل يبكي .
فبكى أبوه سروراً لبكائه وقال له . ألم أقل لك يا بني انها لك فقد نلتها
بجسامك .

فهزت لويزا رأسها وقالت :
- كلا ، فاني أحببته قبل الآن . هناك حين كنت أراه من تلك النافذة
هناك امتلك قلبي بنظراته وحبّه .
ثم افلست من بارداليان وذهبت الى أبيه فطوقت عنقه بذراعيها قائلة له :

- ان أبي دعاه بولده وأما أدعوك بأبي .
فرقص شاربا بارداليان الأكبر من الارقمعاش ، وحمل لويزا بين يديه وهو
يبكي ويقول :

- تبارك اسم الله فقد حملتك ساعتين حين كنت طفلة كما أحملك الآن ..
أتملين انك نمت حين كنت طفلة مع ولدي في مهد واحد ؟
وفي تلك اللحظة سمعوا ضجيجا فتكهرب الشفالييه ووثب الى السلم وهو
يقول : اني أحارب الآن كل أهل الأرض والسماء .
وكان دامقيل قد عاد برجاله ودخلوا من باب القصر ، وهم يهدرون
ويزجرون ، ولكنهم كانوا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى لخوفهم من
ذلك الجدار .

وكان المارشال وبارداليان الأكبر قد تبعوا الشفالييه فوقفوا كلهم عند ذلك
السلم يتشاورون .

فأشار الشفالييه بيده الى باب في القاعة وقال المارشال :
- الى أين يؤدي هذا الباب ؟
- الى الحديقة .
- وماذا يوجد وراء الحديقة ؟

- زقاق يؤدي الى النهر .
- أوجد في تلك الحديقة مركبة ؟
- نعم ..

- اذا هلموا بنا .

فأجابه أبوه قائلا :

- 'تقدموني وسألتق بكم'
فحمل المارشال امرأته حنة ، وحمل بارداليان خطيبته لويزا وهو يحسب
انه ملك الدنيا بأسرها .

وبعد هنيهة كانوا في الحديقة ، فربطوا جوادين في المركبة وصعدت إليها
لويزا وأمها .

فقال الشفالييه للمارشال : قول أنت قيادة المركبة .

فوثب للمارشال إلى ظهر أحد الجوادين ، وأسرع بارداليان إلى الاصطبل
فأخذ جواداً منه وعاد إلى المارشال فقال له :

- أين الباب ؟

- هو هذا الباب الكبير الذي تراه .

فدفع اليه عنان جواده وقال :

- إذهب بالمركبة وبهذا الجواد وانتظري خارج الباب .

وقد كان هذا الفقير المعدم يلقي الأوامر إلى مارشال فرنسا ، وكلاهما
يجهلان ذلك طبيعياً معقولاً كأنها يحملان ، لان جميع مساربهم من تلك
الحوادث كان يشبه الأحلام . وهي أحلام امتزجت فيها السعادة والشقاء
والدماء والمذابح .

وامتثل المارشال فخرج بالمركبة ويجواد بارداليان من الحديقة ، ورجع
بارداليان إلى تلك القاعة يبحث عن أبيه ويناديه فلا يجيبه .

فلما دنا من القاعة سمع دويًا هائلاً ، وشعر ان الأرض تهتز تحت قدميه .
ورأى عموداً نارياً قد تصاعد الى السماء وإن البناية التي كان يقيم فيها المارشال
قد تهدمت يحملتها وباقت انقاضاً .

وقد دفع هذا الانفجار الشفالييه عشرة أقدام إلى الوراء ولكنه لم يسقط
لأنه لم يكن يريد أن يسقط .

وربما كانت هذه الدفعة قد أنقذته ، فإنه لم يثب إلى رشده حتى رأى
ذلك العمود الناري قد استحال إلى حجارة ، كانت تتساقط كرشاش
المطر حوله .

ثم رأى عمراً قد التهب حجارته ، وهو كل ما بقي من ذلك القصر ،

قطار فؤاده شعاعاً على أبيه ، ودخل في هذا المر وهو يصيح صياح القانطين وينادي أباه فلا يجيبه أحد .



بينما كان الشفالييه ذاهباً مع المارشال ولويزا وحنة إلى الحديقة كان أبوه يقدم إلى جهة الردهة وهو يقول تقدموني وسألق بكم .

وكان السبب في تأخره عنهم غريباً في بابه لا موضع له في تلك الحالة التي كان فيها .

لكنه يتفق أحياناً في حالات اليأس ان يشغل القانط عن نفسه بأمر واقع لا تذكر بإزاء ما هو فيه .

فقد حدثوا ان رجلاً سقط من قطار السكة الحديدية وداسه القطار فقطع رجله فكان أول اهتمامه أنه قتل في جيبه بحثاً عن غليونه .

وذكروا عن امرأة أنها كانت في باخرة صدمت صخوراً ، وأخذت الأمواج تبتلعها . فلم يكن يشغلها في هذه الساعة الهائلة غير رفع ثوبها حذراً من ان يهتل .

وكذلك بارداليان الأكبر فقد كان جل اهتمامه في تلك الساعة قاصراً على معرفة ما تتضمنه تلك الورقة التي سقطت من جيب قاتل الأميرال كوليني حين قتله الشفالييه بالحرية .

فلما تخلف عن الجماعة فتح تلك الورقة وقرأ فيها مصرعاً ما يأتي :
« يؤذن لحامل هذا الأمر ومن يصحبه من الرفاق بمبارحة باريس من أي باب أرادوه ، لانهم مسافرون لخدمة الملك » .

وكان هذا الأمر ممضياً بتوقيع الملك ومختوماً عليه بختمه ، وهو الأمر الذي أعطته الملكة كارين لقاتل الأميرال بحضور الدوق دي كيز .

فتشهد بارداليان تنهد الارتياح إذ عرف أخيراً ما تتضمنه هذه الورقة وقال في نفسه : لقد أخطأت إذ كان يجب ان أقرأها من قبل والآن فكيف السبيل إلى تسليمها لولدي فيخرج بها آمناً من باريس .

وكان قد وصل إلى ذلك السلم ، الذي كان المارشال يقاوم عليه المهاجمين ، فرأى رجال دامفيل واقفين في جهة بعيدة وهم يحاولون الهجوم ولا يحسرون .

فلم يكثر لهم ومشى إلى مركبة في وسط الردهة كان فيها عشرون برميلاً من البارود فجعل ينقلها إلى حيث كان .

وكان كلما حمل برميلاً انصب عليه رصاص رجال دامفيل الذين لم يحسروا على الدخول إلى الردهة حذراً من نكبة جديدة .

وكرر عليه إطلاق الرصاص حتى اضطر إلى التدرج بحثه من جثث القتلى فكان يحمل تلك الجثة ويسير بها إلى المركبة فيحمل برميلاً ويعود به إلى حيث كان في أعلى السلم .

وقد ثقب برميلاً بمنجيره وأخرج مقداراً من باروده فرشاه على جميع البراميل وعلى الأرض .

وكان قد نقل ستة عشر برميلاً ولم يبق في المركبة غير أربعة . فلما رجع إلى المركبة لينقلها ، وجد دامفيل قد دخل إلى الردهة بجميع رجاله .

فرجع مسرعاً إلى البراميل وهو يقول : إن ما نقلته منها كاف لإيقاف هؤلاء المهاجمين عند حدهم ووضع سد بينهم وبين ولدي .

ثم وقف وراء البراميل وانتظر إلى أن دخل جميع رجال دامفيل إلى الردهة ، فأطلق النار على البارود ووثب إلى رواق قرب القاعة يشرف أيضاً على الحديقة .

فما مضت بضعة ثوان حتى حدث ذلك الانفجار الهائل ورأى الشفالييه

بارداليان ذلك العمود الناري يمتد إلى السماء .
وكان دامفيل قد رأى بارداليان الأكبر ، مسرعاً إلى الخروج
من الردمة .

فرأى من خارج ذلك القصر ما حدث من الانفجار ورأى جيشه قد تبدد
يحملته فصاح صيحة يأس وأغمي عليه من القهر .

* * *

لم يكن بين تلك القاعة التي حدث فيها الانفجار وبين الحديقة ،
غير رواق . وهو الرواق الذي دخل فيه بارداليان ، بعد ان أطلق النار
على البارود .

وقد رأى القراء كيف أن قوة هذا الانفجار قد دفعت الشفالييه
بارداليان عدة أمتار إلى الوراء ، وكيف أنه كاد يحن خوفاً على أبيه ويناديه
فلا يجيب .

ثم لما سكن ثائر الانفجار وشعر ان الأرض قد ثبتت تحت قدميه بمسده
ذلك الاهتزاز رجع الى مناداة أبيه .
فسمع صوتاً ضعيفاً يقول : أأنا هنا .

فعلم أن الصوت صادر من الرواق وأسرع اليه كالجائنين وهو يقول : لا تخف
يا أبي فقد أتيت لتجدتك .

ودخل الشفالييه إلى ذلك الرواق المتهدم ، فرأى أكداش الثراب والحجارة
ورأى أباه راکعاً بينها على الأرض وهو يسند بكتفيه قطعة عظيمة من تلك
الأنقاض وقد أعياء حملها حتى كاد يروح تحتها .

فأسرع الشفالييه وانتزعه بعنف وابتعد به بسرعة فسقطت تلك الأنقاض
وهما بعيدان عنها .

فتنفس الاثنان الصعداء وقال بارداليان الأكبر :
- ألم أقل لك أن تهرب دوني ؟ ولكنك تعودت أن لا تصني إلي .
فلم يجبه الشفالييه على كلامه وفحصه ثم قال :
- أرى أنك لم تصب إلا برجلك ، اليس كذلك يا أبي ؟
- هو ذاك يا بني ، ولكنني مصاب برضوض كثيرة ، قدعني واذهب
بشأنك .
وقد أخفى بارداليان الأكبر الحقيقة عن ولده ، فإن صدره وظهره
تكسر العظم فيهما .
فلما قال كلامه الأخير ، لم يستطع إتمام الحديث ، وسقط
مغمياً عليه .
فرعب الشفالييه رعباً عظيماً ، وحمل أباه وأسرع به ركضاً
في الحديقة .
حتى إذا خرج منها ، وضعه في المركبة بين لويزا وأمها ، ثم
امتطى جواده وجرد حسامه ودفع المركبة ، فصاروا إلى أقرب باب من
أبواب باريس .

المحلة الاخيرة

كانت الساعة قد بلغت السابعة ، والشمس أخذت تتوارى في حجابها ، فتصبغ تلك السماء المقتمة بدخان البارود بلون الأرجوان .

وكان القتل لا يزال دائراً عاملاً في شوارع باريس في كل مكان منها . لان اولئك القتلة باتوا يحدون لذة في القتل ، وارقياحاً الى سفك الدماء .

فبعد ان قتلوا الهوكينسوت ، عمدوا الى قتل اليهود ، ثم الذين كانوا يشتبهون بهم من الكاثوليك ، ثم الذين لم يشاركهم بهذا القتل الفظيع .

ثم تطرقوا من ذلك الى النهب فنهبوا ثلاثة أخماس المنازل لا فرق عندهم بين مؤمن وكافر في اعتبارهم وهم يقتلون ويصيحون :
- لتحيى الكنيسة !

وقد بدأت تلك المذبحة من الساعة الثالثة بعد انتصاف ليلة الأحد وبقيت عدة أيام .

أما يارداليان الأصغر فكان يسير فوق جواده وراء تلك المركبة وهو غير مكترث لهذه الأصوات الهائلة التي كان يسمعا .

فقد كان كل ما يقتكر به الوصول الى أحد أبواب باريس والخروج من

تلك العاصمة التي كان يلقبونها بجهنم .
ولكنه لم يكن يعلم كيف يخرج .

وكان كلما تقدم بتلك المركبة تعرضه عصابة فيعمل فيها السيف حتى صبح
ذلك السيف بالدم الى القبضة .
وكان قارة ينجو منهم بالقتل وقارة بالحيلة والحياد تسير خبيثاً بالمركبة بحيث
لا يستطيع الناس بلوغها .
وما زال على ذلك الى ان وصل الى أحد أبواب باريس وقد تبعه نحو
خمسين جريئاً من أولئك الثائرين .

ولكنه وجد الباب مقفلاً وخرج اليه ضابط وحشرون جندياً .
فقال بارداليان مخاطباً الضابط :

- افتح الباب !

فأجاب : ذلك مستحيل لان الخروج ممنوع .

- افتح الباب أو ...

عند ذلك وثبت لويزا من المركبة وأسهرت الى الضابط فأعطته ورقة ،
ورجعت مسرعة الى المركبة .

فقرأ الضابط تلك الورقة ونظر الى بارداليان نظرة اندهال ثم أمر البواب
بفتح الباب وأمر الجند بإرجاع الناس المهاجمين .

لكن الناس لم يرددوا الى ان أظهر لهم الضابط الورقة وقال لهم : إنهم
يخرجون بأمر الملك وهم رسله الى بعض الجهات .

فصاح بارداليان الأكبر من داخل المركبة قائلاً :

- رسول الملك !

وكرر ابنه كلمته قائلاً : رسول الملك !

فترجع الناس عند ذلك ، وخرجت المركبة آمنة . فاقفل الباب بعد
خروجها .

لكن هذا الباب لم يكبد بفعل في أمر المركبة حتى أقبلت من باريس كوكبة
من الفرسان مؤلفة من عشرة رجال .
وكانت هذه الكوكبة بقيادة دامفيل ومورفر .
فصاح دامفيل بالضابط قائلاً : إفتح الباب فإني هؤلاء الذين خرجوا منه
من الهوكينوت .
فأجاب الضابط : بل هم رسل جلالة الملك وهذا أمر جلالته .
فصاح به دامفيل وقد انقادت عيناه قائلاً :
— قلت لك إفتح الباب أو تدور الدائرة عليك .
فأمر الضابط جنده أن يصوبوا بنادقهم على دامفيل .
فتراجع هنري منزعراً .
وأصرح مورفر إلى الضابط فأراه ورقة مكتوبة وقال :
— إفتح فأنا أيضاً رسول الملكة .
فقرأ الضابط الأمر وقال : هو ذاك ، لكنك لا تخرج إلا وحدك فليرجع
الآخرون .
فخرج مورفر وحده ووقف هنري وهو يتوعد السماء بقبضتيه .

* * *

لم يكن مورفر كاذباً فيما ادعاه فإنه كان حقيقة رسول الملكة .
وذلك أنه بعد أن بحث في كل مكان ، عن بارداليان وابنه ، دون
أن يجدهما ، ذهب إلى اللوفر وطلب مقابلة الملكة ، فأجيب طلبه
في الحال .
وقد لقي تلك المحتالة راكعة أمام صورة المسيح تهلي .
فلما رأت مورفر قالت له : أرى كيف إني أصلي من أجل نفوس أولئك

الذين قتلوا اليوم .

- أرجو مولاي أن تصلي أيضاً عن نفس هذا القتل .

ثم وضع على مائدتها رأس الأميرال كوليني .

فلم ترتعش كاترين ، ولم يظهر على وجهها شيء من علائم الاضطراب ، بل نظرت الى مورفر وقالت له : كيف أحضرت أنت رأس الأميرال ، فأين قاتله ؟

- لقد قتل .

- إذأ يجب عليك يا مورفر أن تذهب أنت بهذا الرأس الى رومة وتحدث هناك بما فعلناه هنا .

-- إني أسافر حين تشائين .

. أريد ان تسافر الآن وهذا جواز السفر وهذه نفقاتك .. أسرع ولا تقف لحظة في الطريق . خذ أيضاً هذا الخنجر .
- لا حاجة لي بالأسلحة لأنني مدجج بها .
ولكن هذا الخنجر لا رحمة في نصله فخذ .

فأخذ مورفر ذلك الخنجر وهو يعلم انه مصنوع في معمل بيليه ، أي انه مسموم . وانصرف .

ثم امتطى جواده وربط رأس الأميرال في سرجه وسار وهو يتحدث نفسه بليل الثروة من راحة ثم يرجع الى باريس ليقتل بارداليان بالخنجر المسموم الذي أعطته إياه الملكة .

وقد اجتاز جسر السين وفيما هو ذاهب الى أحد أبواب باريس رأى قوماً يهربون فعرّفهم وعرف أنهم من رجال دامفيل .

فخطر في باله للفور دامفيل ومونورانسي وبارداليان وأسرع إلى قصر مونورانسي وهو يتميز من الفيض فشهد الانفجار .

وبعد أن أمنوا عواقب الانفجار ، دخل مع دامفيل إلى ذلك القصر

المتهدم ، وجعلنا يبحثان عن بارداليان والمارشال فرنسوا وحنة ولويزا ، فلم يجدا أحداً .

ثم خرجا إلى الحديقة ورأيا آثار المركبة وان باب الحديقة مفتوح ، فأيقنا أنهم هربوا منه وأنهم يحاولون الخروج من باريس .

فرجع مورفر وهنري وجما بين وجدوهم من الفرسان ، وشاروا إلى قرب أبواب باريس .

ولكنهم وصلوا بعد فوات الأوان ، أي بعد ان خرج بارداليان برفاقه كما تقدم .

وقد خرج مورفر من نفس الباب الذي خرج منه بارداليان .

وفي الوقت نفسه انسل معه كلب ، لم يتعرض الحراس لمنعه ، وكان هذا الكلب يبيو .

فلما صار مورفر خارج الباب ، وقف هنيهة مفكراً ، وهو يقول في نفسه :

— ترى أي طريق سلكوا في فرارهم ، إن الطرق متعددة وكيف السبيل إلى لحاقهم فلاني ألحقهم ولو ساروا إلى جهنم .

وفيا هو يفكر ، رأى الكلب يشم التراب ، كأنه يبحث عن أثر مولاه :

فعرف أن هذا الكلب كلب بارداليان .

ثم رأى يبيو قد اندفع راكضاً ومرق مروق السهم .

فلكن مورفر بطن جواده واندفع في أثر يبيو

وهذه أول إساءة بدرت من هذا الكلب الأمين .

* * *

أما بارداليان فإنه تقدم المركبة وهو على جواده وسارت المركبة في أثره
يقودها المارشال فرنسوا .

فاجتازت سهلاً متسماً ثم صعدت إلى قمة لم يكن بد من اجتيازها فأوقفها
المارشال هناك للاستراحة وترجل بارداليان عن جواده كي يتفقد أباه وأخرجه
من المركبة فوضعه فوق العشب ، وجعل يفحصه وهو يعتقد أنه لم يصب
إلا بجرح فخذ .

وكان مورفر قد أدرك المركبة مسترشداً بالكلب ورآها وقفت على قيد
مائة خطوة منه ورأى بارداليان ترجل عن حصانه وأخرج أباه من المركبة ،
وجلس القرفصاء على الأرض يتفقد فقام فقال في نفسه :
- لقد دنت ساعة الانتقام فساطعته من وراء طعنة تكون القاضية .

ثم ربط حصانه بشجرة ، وأسرع ينسل انسلال اللصوص ،
وخنجره بيده
إلى أن بلغ بارداليان ، وبارداليان لا يراه ، فرفع يده كي يطمعنه
الطعنة القاضية .

لكنه قبل أن يبلغ خنجره إلى ظهر ذلك البطل ، فتح باب المركبة ،
ووثبت منه لويزا ووثوب المهانين ، وحالت بين مورفر وبارداليان .
فطاشت يد مورفر ، وأصاب خنجره صدر لويزا بدلاً من أن يصيب ظهر
بارداليان .

غير أننا نسرع لنقول ان يد مورفر اضطربت وان يد لويزا دفعتها بحيث
لم يصيبها الخنجر غير إصابة طفيفة .

فوثب بارداليان ورأى الدم يسيل من صدر خطيبته وهي تبسم فصاح بمورفر
صيحة اهتزت لها الجبال وانطلق في أثره .

لكن مورفر كان قد أمعن بالفرار وهو يحسب انه قتل لويزا فأدرك فرسه
قبل ان يصل اليه بارداليان فوثب إلى ظهره وأطلق له العنان وهو يضحك

ضحك الساخر ويخاطبه فيقول :

— لقد قتلتك بقتل من تحب فإذا حييت بعدها تجدني في باريس .

ثم سار بفرسه خبيئاً إلى رومة .

أما بارداليان ، فما تمى إلا أن تكون له أجنحة عقاب ، لينقض على هذا الخائن .

لكنه رأى ان لا حيلة له بلعاقه ، فرجع مسرعاً إلى خطيبته وأبيه وهو واجف القلب فرأى المارشال يبتسم وابنته واقفة بالقرب منه وهو يقول : لا تخف يا بني إنها لم تصب إلا بخدش بسيط .

فترك الشفالييه لويزا مع أبيها وأقبل يفحص أباه فرأى مما انقبضت له نفسه وأضاع رشده ومزق قلبه .

فإنه رأى أباه بحالة النزاع ، لان الموت يشب وثوب النمر ، فبينما يحسبه المراء بعيداً خفياً إذا به قد وثب ونشبت برأثته بالفريسة .

ولم يكن بارداليان عارفاً بشيء مما أصاب أباه إذ كان يحسب انه أصيب بجرح في فخذه .

والحقيقة أن أضلاعه قد تكسرت بذلك الانفجار ، فإنه الغم البناية وهو موقن انه لا يبعد بعد ذلك غير الموت ، ولكنه كان موقناً أيضاً أن تهدم البناية سيكون حائلاً بين ولده وبين أعدائه فيموت فداء عنه .

وقد صبر على ما أصابه صبر الكرام ولم يظهر عليه شيء من علائم الموت حين كان ولده في خطر .

فلما خرجوا من باريس وزالت تلك الأخطار اطمأنت نفسه ولم يمد يستطيع مغالبة الموت فلم يبق فيه من علائم الحياة غير تلك النظرات التي كان ينظر بها إلى ولده ولويزا بمنو لا يوصف .

وعرف بارداليان حقيقة حالة أبيه فركع أمامه وجعل يبكي بلاء الأطفال ، فقال له أبوه .

على م البهاء يا بني وقد بلغت من العمر عتياً ، أم تحسبني من الخالدين ؟ ..
 انك بلغت بحسامك واقدامك أقصى ما رجوته لك وأنا أراك صاعداً إلى
 قمة مجدك فكيف تبكي لفقدتي وقد بلغت بك كل ما أتمناه ..

كن ثابت الجنان يا بني وارقف نفسك لهذا الملاك الواقف بجانبك ، اني
 اباركك في الحياة وستباركك نفسي بعد الموت .

ثم التفت إلى المارشال وقال :
 وأنت يا سيدي المارشال ، ألا تزال عازماً على تزويج ولدينا ؟ قل يا
 سيدي ودعني أمضي مستريح البال .

فاغرورت عينا المارشال بالدموع وقال :
 ان ولدك ولدي ، وأقسم لك أن لا يحول حائل دون هذا الزواج
 الذي أتمناه .

— ولكنني أذكر يا سيدي انك قلت لي يوماً بأنك ستزوج ابنتك من رجل
 يدعى الكونت مارجنسي
 فأشار المارشال إلى الشفالييه وأجابته قائلاً : هذا هو الكونت دي مارجنسي
 الذي كنت أعنيه ..

أن هذه الكونتية لي وقد وهبتها لولدك وجعلتها مهر ابنتي .
 فابتسم بردالمان الأكبر وقال لولده ، هات يدك يا بني .
 ثم أخذ يده فشد عليها وقال له . اني أحب ان ادفن هنا قرب هذا
 النبع وتحت هذه الشجرة ، فقد انتقلت إلى محطات كثيرة فلم أر أهناً من
 هذه المحطة .

ثم تنهد تنهداً طويلاً وأطبق عينيه وذهبت روحه الكريمة إلى خالقها ،
 فمات وهو مبتسم ناعم البال .



وعند انتصاف الليل كان الشفاليه بارداليان بين المارشال وخطيبته يعزيانه عن نكبته وهو يبكي بكاء أليماً ويمتنع عن مواصلة الرحيل إلى أن قال له المارشال : تشجع يا بني وهلم بنا نذهب إلى مونغورانسي ، وأعلم أن خطيبتك لا أمان لها إلا فيها ، وإن ذلك الوحش الذي طعنها قد يعود بمدد عظيم .

فركع بارداليان بجانب جثثة أبيه وجعل يقبل وجهه ويفسل يديه بدموعه .

وكان المارشال قد غادر بارداليان مع ابنته وذهب إلى قرية قريبة فجاء يجيعة من الفلاحين وأمرهم أن يحفروا ضريحاً فوق قمة عالية فوضعوا في هذا الضريح ذلك البطل وأمالوا عليه التراب .

فركعت لويزا عند ذلك الضريح وقالت : طب نفساً أيها الشيخ الكريم فسأحب ولدك إلى آخر العمر كما أحبيته قبلاً وأحبه الآن .

ثم أخذت غصناً فجعلته صليباً وشكته في تراب الضريح . ولا تزال تلك القمة إلى الآن معروفة بقمة الصليب .

وعند الصباح كان بارداليان والمارشال وحنة ولويزا قد وصلوا إلى حصن مونغورانسي وأمنوا كل طارئ ، ولكن المارشال كان خائفاً على بارداليان من الحزن فانه كاد يفقد الرشاد توجعاً لفقد أبيه .

الخاتمة

إلى هنا انتهت حوادث هذا البطل الكبير فانتبهت به حوادث هذه الرواية التاريخية .

ولا بد لنا قبل ختامها أن نذكر للقراء قسمة أخبار أبطالها كي لا تبقى حاجة في نفوسهم .

فقد عرفوا أن مورفر سافر برأس الأميرال إلى رومة فأقام عاماً في تلك العاصمة الباباوية ، وهي في ذلك العهد مرجع الساطة وهدد الكنيسة ، فلقى من إنعام الحبر الأقدس ما أنساه منكارم الملكة كاترين ، وعاد إلى باريس ، وهو مثقل بالهدايا ، لا ينقص عيشه غير الانتقام من بارداليان الذي عاهد خصيصاً إلى باريس من أجله .

ثم الدوق دي كيز فقد ثقل عليه فشله ، وقرأ ما كان يرد من تهنشات الحبر الأعظم إلى الملكة كاترين ، فشمع أنه لا قبل له بتلك الملكة وقد عضدها سيد رومة

فعاد إلى أرضه وودع اللوفر وهو يقول . سنعود إليك أيها القصر العظيم ، وسيكون لنا فيك شأن .

ثم الدوق دامفيل ، فقد كان أشد الناس نكداً ومما بعد إفلات أخيه من قبضته وهرب حنة منه . وكان يحن غيظاً حين يفتكر أن رجلين ومما بارداليان

وابنته قد غلبا جيشاً برمته ، وانه لولاهما لظفر بأمنيته وبلغ ما يريد من قتل أخيه ونيل حنة .

وقد ساورته الهموم حتى اعتل واشرف على الموت ، ولكن قوة بنيته تغلبت على مرضه ، فلما شفي ذهب إلى أرضه ، وأقام فيها معزلاً لا يشغله غير التفكير في طرق الانتقام .

ثم ريليه الفلبي ، فإنه يشأس شديداً من رد الحياة إلى ولده بعد فرار بارداليان منه ، واستشار الكواكب فلم ترشده إلى دم صالح لادخاله في جسم ولده ، فلم يجد بداً من دفنه ، ودفنه بعد أسبوعين في تربة الأبرياء

وكانت الملكة قد رهيته لكثرة ما يعلمه من أسرارها ، فكان آخر ما صنعتته ، انها أغرت به بعض أعوانها ، فأتهموه بالسحر وساحرهم ، وقضي عليه بالموت ، فأنهضته في آخر ساعة ، ولكن خوف الموت قتله ، فما عاش بعد خروجه من السجن غير بضعة أيام .

ثم الدوق دانجو ، فإنه عين ملكاً لبولونيا بعد مذبحه برتلماوس ، ولبت على هذا العرش إلى أن استحككت العلة بأخيه ، فجاء سراً إلى باريس بدعوة أمه ، وأقام فيها إلى أن عين ملكاً لفرنسا بعد موت أخيه .

ثم الملكة كاترين فقد حسبت انها بلغت إلى قمة أمانيتها ، بعد أن ظفرت بما كانت تسعى اليه من تنويع ولدها الدوق دانجو ملكاً على فرنسا ، لكن هذا الولد كان عاقراً بها ، جاحداً لفضلها ، كافراً بنعمتها ، فأهينت في عهده ، واحتقرت كما كانت تحقر في عهد زوجها ، فثقل هذا العقوق عليها ، وهي إنما عاشت دهرها بكيد المسكائد وفس الفتن تهيداً لبلوغ ولدها إلى ذلك العرش فاعتلت وماتت من غمها أشنع موت .

ثم ابنها الملك شارل ، فقد عرف القراء انه لم يصدر ذلك الأمر الهائل ، القاضي بقتل الهوكينوت إلا مكرهاً خائفاً من القتل .
فقد مثلت له أمه الموت أشكالا كما عرفه القراء في مكانه ، وما زالت به

حقى أكرهته على اصدار الأمر بتلك المذبحة التي وصمت تاريخه بوصمة عار لا
يجوزها كروار الأجيال .

وقد ندم ندماً شديداً ومثلت له تلك الفظائع فحرمته الرقاد ، واعتزل
اعتلالاً لم يبق بعده سبيل إلى الشفاء .

وكانت خليلته ماري توشيت تعزبه في كل يوم ، وهو لا يتعزي ، ولا يزيد
إلا تعباً وشقاء .

الى أن جاءها يوماً فجلس يحانها وبينها ولده فقال لها : لقد جاء دوري
بتعزيتك يا ماري ، فأنا الذي أعزبك الآن ، فقد قضى علي بالموت المحتم ، ولا
أرى حياتي تمتد الى أكثر من أسبوع ..

لا تبكي أيتها الحبيبة واصفي الى ، فقد هنأت حياتك بحياتي ، فلا أريد
أن ينقص عيشك بعد موتي ، بل أريد أن تعيشي سعيدة ، وأن تعلمي هذا
الطفل أن لا يحتقرني كما سيحتقرني جميع الناس .. واني أحب أن ألقى اليك
وصاياي ، بل هي أوامر ملكك ..

أقول ذلك وأنا أرجو أن تعذرني ، فهذه أول مرة كلمتك بهذه اللهجة
وستكون الأخيرة ، فهل تمتثلين لإرادتي ؟

قالت إن أوامرك مقدسة ، ولكن ما يدعوك الى الاهتمام بالوصايا
الآن ؟

أتريدين أن تقسمي لي عينا أن تعلمي بعد موتي بما أوصيك به الآن ؟
فبككت ماري وقالت : اقسم .

إذا فاعلمي انك وحيدة بعد موتي دون صديق يحميك من جور اعدائي
ولا أأمن عليك كيد أولئك الأعداء . ثم انهم قد يفضون عنك ، ولكنهم لا
يرحمون ولدك لأن دمه ملكي ، ويخشون أن ينزعوا الدھول ونظرت الى
فيعتلونه .

قالت : ماذا أرى ؟

فدعرت ماري ذعراً شديداً أنت يا لويزا ؟

هل رأسك ا . رباه ماذا أرى ؟ العلي في حلم ؟

نحميه وقالت : أيقتلونه ؟

— نعم يا ماري ، وخير وسيلة لانقاذه أن يكون بقربه وقربك رجل وفي
باسل يحميك ويحميه بحق لا يستطيع ان يعترضك أحد فيه ، وهذا الرجل
يكون زوجك يا ماري .

فأجفلت ماري وقالت : شارل ماذا تقول ، أنا أتزوج بعد الملك .

— هذه ارادتي ، وقد قلت انها مقدسة واقسمت على الامتثال .

— اذا لا بد لي من الخضوع .

فأشار الملك عند ذلك اشارة الى الموضع ففتحت الباب ودخل منه فرنسوا
دي انتراغ .

فقال له الملك : ادن مني أيها الصديق وقل لي اذا كنت لا تزال عازماً على
البر باليمين التي حلفتها لي أمس .

قال : لقد أقسمت يا مولاي ، ولست من الذين يقسمون مرتين في أمر
واحد .

— اذا ، تعديني أن تزوج المرأة التي ذكرتها وتنبئ ابنها فيكون كأنه من
لملك ردمك .

— لقد فهمت يا مولاي ما تريد ، وهو أن أتولى العناية بولدك ، وأكون
في عيون الناس زوجاً السيدة ماري ، فاذا كان ذلك فقد أقسمت ، وسأحميه
وأحميها بما وهبني الله من قوة وبأس وامتنل لأمر مليكي .

فأخذ الملك عند ذلك يد ماري فوضعها في يد فرنسوا دي انتراغ وقال
ليبارك الله قرانكما .

~~سكت سكت فقله وقال~~ : اني أدعوك بالدوق دي انجلوم وأرجو
ثم ابنها الملك شارل ، فقد عرس

القاضي بقتل الهوكينوت إلا مكرها خائفاً
فقد مثلت له أمه الموت أشكلاً كما عزفه القراء

وبعد يومين مات شارل التاسع .
فلما اجتمع النبلاء في غرفة الميت أشارت الملكة كاترين الى جثة ولدها
شارل ، والى ولدها الدوق دالنجو وقالت :
- أيها الأسياد ، مات الملك ، فليحيى الملك !
وهكذا مات الملك شقياً معذباً ، وورقي الدوق دالنجو الى عرش فرنسا
باسم هنري الثالث .



وأما بارداليان فقد كان الحزن انهكه لفقد أبيه .
فلما وصل مع خطيبته وأبويها الى حصن مونغورانسي ، أراد المارشال ان
يشغله عن هذه الأحزان ، فجمع رجاله جيشاً كثيفاً قسمه الى قسمين . فولى
بارداليان قيادة القسم الاول ، وتولى هو قيادة القسم الثاني ، وسار كل من
الجيشين في جهة من البلاد التابعة لولاية مونغورانسي ، فتمتعوا الناس الشائرين فيها
عن المذابح وطالت رحلتها ثلاثة أشهر .
ثم عاد الجيشان وقد سادت السكينة في البلاد وخفة لوعة حزن بارداليان
فحمل مونغورانسي الجيش وجعل يتأهب لزواج ابنته وبارداليان .
وكانت حنة قد انتعشت لتلك المناظر الطبيعية التي الفتها منذ الحداثة
فخفف ذهولها ، ولكنها كانت لا تزال تعتقد ، انها في عهد الصبا ، فتبتسم
وتتأجج فرنسوا ، واذا رآته لا تعرفه .
حتى اذا دعا يوم الزفاف ، ودخل العروسان الى كنيسة القصر ، وعقد
السكاهن لهما عقد الزواج ، خرجت حنة فجأة من هذا الدهول ونظرت الى
ما حولها كما ينظر المنتبه من رقاد طويل فقالت : ماذا أرى ؟
أهذا أنت يا فرنسوا ؟ أهذه أنت يا لويزا ؟
وما هذا الاكليل الذي على رأسك . ا. رباه ماذا أرى ؟ العلي في حلم ؟

فكادت لويزا تطير سروراً إذ ايقنت أن الصواب قد عاد إلى أمها واقبلت
تعانقها وتبكي ، وكذلك فرنسوا وبارداليان .

وقد ختم هذا الزفاف بالبكاء ، لكنه بكاء حنو وسرور إذ شفيت حنة
من جنونها ، وعاشت مع فرنسوا ، كما عاشت لويزا مع بارداليان ، فلم تشرق
الشمس على أمنا منهم عيشاً وأظهر أخلاقاً .

وهكذا كان ختام حوادث أبطال هذه الرواية ولقي أولئك الأربعة من
نعيم العيش ، ~~مسا أنسائهم~~ مراية الماضي ، فغفروا لدهرهم كل ما انتابهم من
السيئات .

- تمت -

